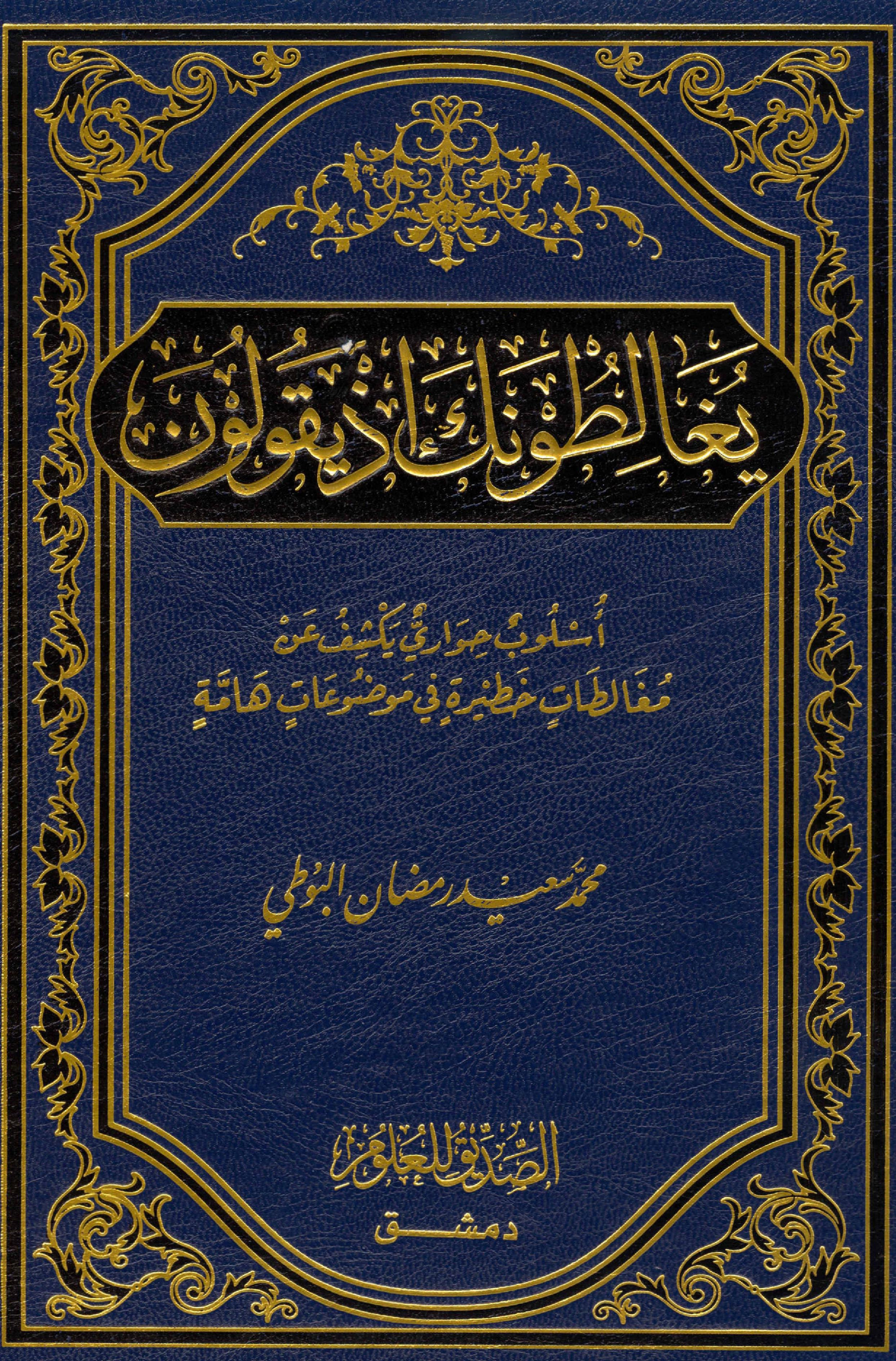

يغالطونك إذ يقولون
أسلوب حواري يكشف عن
مغالطات خطيرة في موضوعات هامة
محمد سعيد رمضان البوطي
الصديق للعلوم
دمشق

# كَلِمَتِي
# مَعَ هَذِهِ ٱلطَّبْعَةِ ٱلْجَدِيْدَةِ

عمر هذا الكتاب أحد عشر عاماً.

ولو جاز تشبيه المؤلفات التي يُوَّفق لإخراجها المؤلفون، بالأولاد الذين يكرم الله بهم الآباء، لقلت: إن هذا الكتاب من خيرة أولادي الذين جعلهم الله قرّة بصر وبصيرة لي. وفقني الله لبثه حلقاتٍ في التلفزيون، ثم وفقني لإخراجه كتاباً، وثيقةً تبقى في أيدي الناس.

والمزية التي من أجلها كان هذا الكتابُ قرةَ عين لي، هي أنه حوى كل الموضوعات المتنوعة التي تشكل آفاتٍ تسري في كيان العالم الإسلامي. إنَّ كلاً من هذه الموضوعات يتمتع باستقلالية تفصلها فصلاً تاماً عن الموضوعات الأخرى. ولكنها في مجموعها تشكل شبكة اصيطاد، تُصطادُ بها الأمة الإسلامية للتحكم بها، ثم للقضاء السهل الميسر على وجودها.. وهي في مجموعها الموضوعات الحارّة بل الملتهبة التي يستمرّ الجدل فيها بين الأوساط، وينفخ في أوارها أصحاب الأغراض.

وأعتقد أنك مهما بحثت فلن تعثر على مزيد من هذه الموضوعات التي تشكل (على الرغم من استقلالية كل منها) الشبكة المنصوبة لاصطياد وجود

المجتمع الإسلامي . . وأعتقد أن الله وفقني لمعالجتها بطريقة حواريةٍ استقصائية الوجوه المؤيدة منها والمعارضة، موصلةٍ إلى القرار الحيادي الذي يقضي به العلم، وتؤيده موازين المنطق.

ولكن ظروفاً استثنائية شاء الله أن يمرّ بها سير هذا الكتاب في الأوساط، أجبرته على التعثر بين الدروب، والتريث في المنعطفات . . ولا أرى ما يوجب تحميل مسؤولية ذلك على أحد. فالظروف كثيراً ما تكون هي المسؤولة عن نفسها.

أرجو أن يكون هذا الكتاب الذي يتمتع باستقلالية نوعية عن كتبي الأخرى، قد تحرر في طبعته الجديدة وطريقة نشره في الأوساط عن عثرات الدروب والمنعطفات.

وأسأل الله أن ينفع به إن كنتُ على صواب فيما أعرف له من مزية المعالجة لسائر المشكلات التي يتألف من مجموعها شباك صيد للوجود الإسلامي من حيث هو.

والله ربي الموفق، وإياه أسأل أن يأخذني من نفسي إليه، وأن يقيني من حظوظ نفسي وحسبي الله ونعم الوكيل والحمد لله على كل حال.

**دمشق في ٢٤ شوال ١٤٣١**

**٢ تشرين أول ٢٠١٠**

**محمد سعيد رمضان البوطي**





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# ٱلْمُقَدِّمَة

الحمد لله دائماً وفي كل التقلبات والحالات.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وأصلي وأسلم على رسول الله الحبيب المحبوب صلاة أبلغ بها رضوان الله، وأنال بها شرف القرب من رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فهذه سلسلة من أحاديث تلفزيونية، سجلتها منذ عامين أو أكثر استجابة لرغبة الإخوة أعضاء شركة الفاتح للإعلام المتخصص...

وقد عرفت أنها بثت من بعض الأقنية الفضائية... وعرفت أيضاً أن جمهوراً كبيراً من الناس سمعوا بها ولكنهم لم يسمعوها. ومن ثم فقد رغب إليَّ كثير ممن لم يسمعها أن أجمعها في كتاب منشور.

ومما يسّر لي الاستجابة لهذه الرغبة، أن في الإخوة من تفضلوا مشكورين فقاموا بتفريغ السجلات التي تحوي سلسلة هذه الأحاديث وإرسالها إليّ، فكان في ذلك إلزام أدبي لي بأن أمضي في المشروع إلى نهايته، فأعود إلى صياغتها بالتنسيق والصقل وحذف التكرار وسدّ الثغرات.

ولقد بدأت بإنجاز هذا العمل وأنا أحسبه هيناً، ولكني لم أنته منه إلا بجهد كبير.. ولعلي لو قمت بصياغة المعاني التي تضمنتها سلسلة هذه الأحاديث صياغة جديدة، لوفَّرت قدراً أكبر من الراحة بمقابل جهد أقل.

العنوان المكرّر لهذه الأحاديث هو: «يغالطونك إذ يقولون..»

والجامع المشترك بين مضامينها، هو أنها جميعاً تحوي مناقشات لأفكار وتصورات تسربت في الخفاء إلى بنيان المبادئ والحقائق الإسلامية. ثم أقبل من اهتم ورحَّب بها، وأنزلها من الإسلام منزلة الحقائق الثابتة، ودافع عنها بأغلوطات لا يتأتى للعالم أن يجهل بطلانها، ولا للبصير من الناس أن تغيب عنه أخطاؤها.

والأسلوب الذي ألزمت نفسي به هو الأسلوب الحواري.

صحيح أنني لم أكن أحاور أحداً من المدافعين عن تلك الأغلوطات، ولم يكن أحد منهم أمامي أثناء حديثي عنها، ولكني أعلم حججهم التي يدافعون بها عنها، ولقد ألزمتُ نفسي بأن أعرضها وافية كاملة، كما لو كنت واحداً من الموقنين بها والمقتنعين بنتائجها. ثم إني وقفت منها ومن نقائضها موقف الباحث المحايد، وجعلت من المنطق والموازين الحيادية للعقل الحَكَمَ الفصل في ذلك.

وأعتقد أن أياً من أصحاب هذه الأغلوطات لو كان هو المعبر عن حججه في دفاعه عنها، لما استطاع أن يصوغها وأن يعبر عنها بأجلى وأقوى مما عبرت به عنها.

وفي يقيني أن لهذه الأغلوطات مصدراً كلياً واحداً لا ثاني له، هو أن الإسلام بكل ما يزخر به من مبادئ وأحكام ومعتقدات، ليس في يقينهم إلا من ثمرات الفكر الإنساني ومن ثَمَّ فهم يروجون ليقينهم هذا بأساليب شتى، من أهمها استعمال التعابير التي توحي بهذا اليقين من طرف خفي، كقولهم: الأفكار الإسلامية.. الفكر الإسلامي.. تاريخ الفكر الإسلامي.. الخ. وإذا آلت حقائق الإسلام إلى أن تكون من نتائج الفكر الإنساني، فإن لأي فكر إنساني آخر أن يدحضها، إذ ليس في ساحة الأفكار الإنسانية فكر أسمى من فكر.

وأنا عندما حاورت المبطلين من أصحاب هذه الأغلوطات إنما استخدمت الفكر مصباحاً أستبين به حقائق الإسلام، وأدرك بواسطته أنها فعلاً حقائق موضوعية ذات وجود مستقل عن الفكر والذهن.. ولم أقارع أفكارهم الذاتية بأفكار ذاتية من عندي.

ولو أني انتصرت لأفكاري الذاتية من حيث هي أفكار ضد أفكار الآخرين لرأيتني كمن يقارع سيفاً بسيف، ويواجه حدَّ هذا بحدِّ ذاك!!!.

وأقول بهذه المناسبة: ما وجدت كلمة مما يتداوله الناس اليوم فيما بينهم، سخيفةً وفارغةً من أي معنى مفيد ككلمة: «المفكر الإسلامي فلان»!!.. هل هي إلا كقول أحدهم: العاقل الإسلامي فلان؟!!..

ماذا أعطت كلمة «المفكر..» لصاحبها أكثر مما أعطته كلمة «حيوان ناطق»؟ ومتى أصبح التفكير الذي كان ولا يزال جامعاً مشتركاً بين العقلاء جميعاً، حِكراً للمشتغلين بعلوم الإسلام دون غيرهم؟!..

كانت الكلمة التي ينعت بها الباحث في علوم الإسلام بجدارة: «العالم..»، فإن سما عن هذه الدرجة قيل له: «العلامة»، فإن زاد عن ذلك وصف بـ «المحقق».

ثم جاء اليوم من يسعون جاهدين أن ينسخوا تلك الألقاب أو الصفات بكلمة: «المفكر» حرصاً منهم على أن يجعلوا الكلمة توحي إلى الأذهان بأن الإسلام في مجموعه ليس إلا من ثمرات الفكر الإنساني.

وإلا، فهل سمعتهم يقولون: «المفكر الفلسفي» أو «المفكر النحوي أو الأدبي» أو «المفكر التاريخي»؟!..

إنهم يقرون بأن الفلسفة حقيقة علمية خارجة عن الفكر، وكذلك النحو والصرف والتاريخ وعلم النفس، والتعبير بالمفكر التاريخي مثلاً يخالف هذه

الحقيقة التي يعترفون بها. أما الإسلام فليس له عندهم أيُّ وجود حقيقي خارج أذهان القائلين به والمعتقدين له، ومن ثم فينبغي أن يقال عن المعارف والحقائق الإسلامية التي تسجل في الكتب أو تلقى على الأسماع: «الفكر الإسلامي»، وينبغي أن يُسمَّى المشتغلون بهذه المعارف: «المفكرون الإسلاميون».

والحديث عن حرب الشعارات التي يُغْزَى بها الإسلام اليوم دون شعور بذلك من أكثر المسلمين، حديث طويل ذو شجون. ولعلي أُوفَّقُ لتفصيل القول فيه، ولبيان مدى خطورته في كتاب ما أو في إحدى المحاضرات.

بقي أن أقول إنني أضفت إلى هذه الموضوعات التي سبق أن بُثَّت في بعض الأقنية الفضائية، موضوعاً آخر أثبتُّه في آخر الكتاب وعنوانه: «العولمة تعاون عالمي ندّي لا تبعيةٌ لقطب متسلط».

وكلمة العولمة هذه ليس لها وجه صحيح في العربية، وليس لها فيما تحمله من مضمون أيُّ معنى منطقي سليم. ولعلها الطبعة الثانية لكلمة «النظام العالمي الجديد» وكلا الكلمتين من مفرزات أطماع القطب الواحد؛ إذ يشعر أنه الوحيد في الساحة ومن ثم فهو يشعر بأنه القادر دون غيره أن يجعل الدنيا كلها طوع أمره، وأن يجعل مردَّ خيراتها ومنافعها إلى جيبه، وأن يُسخِّر أنشطة الناس كلهم لمصالحه.

وهذا الطمع من شأنه أن يهيمن على صاحبه عندما يخيل إليه أنه الوحيد في ساحة القوى والغنى!.. وأقول: «يخيل إليه..» لأنني على يقين بأن سنة الله في عباده تأبى أن يخضع العالم كله لسياسة القطب الواحد، وإن تراءى أن ذلك يقع في بعض الحالات، فما هو في الحقيقة إلا منعطف سريع في مرحلة انتقال.. وصدق الله القائل «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين».

هذا هو كل ما كنت أريد أن أثبته في هذه المقدمة بين يدي كتابي هذا «يغالطونك إذ يقولون..».

وقبل أن أسلمك يا قارئي العزيز لبحوث الكتاب؛ أرجو منك أن تنتزع من نفسك ما قد يعكر صفاء الموضوعية في إقبالك بالتأمل فيما قد كتبت والتدبر لما قد انتهيت إليه، فما آفة الإقبال على العلوم الإنسانية إلا مصيبة العصبية للذات والاستسلام للرغبة والهوى.

أسأل الله لي ولك القدرة على انتزاع هذه الآفات من النفس، والتحرر إلا من سلطان العقل، الذي لا يمكن إلا أن يوصل إلى عز العبودية لله.

والحمد لله في المبدأ والختام.

دمشق ٣٠ رمضان ١٤٢٠
٧ كانون الثاني ٢٠٠٠

محمد سعيد رمضان البوطي



يُغَالِطُونَكَ إِذْ يَقُولُونَ :

# الدَّوْلَةُ الإِسْلَامِيَّةُ لَمْ تَعِشْ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ عَامًا

سنبدأ اليوم بدراسة أول موضوع من هذه الموضوعات.. أطروحة لعلكم جميعاً سمعتم عنها، ولعل فيكم من ناقشها، بل لعل فيكم من اتخذ موقفاً منها أو فيها. إنها المقولة التي تنادي بأن المجتمع الإسلامي أو الدولة الإسلامية، لم تعمِّر ولم تعش أكثر من ثلاثين عاماً على أبعد تقدير، أي إن الحكم الإسلامي القائم على تنفيذ الشريعة الإسلامية لم ينجح، ولم يثبُت منسجماً مع حاجات المجتمعات الإنسانية أكثر من ربع قرن، أو نحو ذلك..

هذه الأطروحة واحدة من المقولات التي سنعالجها في ميزان المنطق، وفي ميزان العلم والموضوعية المتحرِّرة.

أصحيح أن الدولة الإسلامية القائمة على شرعة الإسلام وتطبيق أحكامه، أخفقت في صلاحيتها، وفي الانسجام الذي ينبغي أن يشيع بينها وبين حاجات المجتمعات الإنسانية؟

أيها الإخوة والأخوات، ينبغي بادئ ذي بدء أن نتساءل عن معنى تطبيق الشريعة الإسلامية في ظل الدولة الإسلامية، أو المجتمع الإسلامي.

عندما نقول: هذه الدولة تطبق الشريعة الإسلامية تطبيقاً ناجحاً، ما الذي نبتغيه من هذا الكلام؟ هل نبتغي منه أن الناس أو الأفراد الذين تطبق في حقهم أحكام الشريعة الإسلامية في ظل هذه الدولة، قد اكتسبوا بفضل الإسلام سمة العصمة، أي ينبغي بفضل تطبيق الإسلام عليهم، أن يصّاعدوا، فيصّاعدوا، إلى أن يتحرروا من أسر مشاعر البشرية وأحكام الإنسانية، ويصبحوا ملائكة معصومين؟ ما أعتقد أن فيكم من يتصور أن هذا هو معنى نجاح تطبيق الشريعة الإسلامية على مجتمع من المجتمعات.

بل إذا كان هذا هو المعنى المراد، فأعتقد أن المجتمع الإسلامي لم يفرض نفسه، ولا في يوم من الأيام، ومن ثم فأعتقد أن الحكم الإسلام لم يصلح حتى في عصر رسول الله ﷺ أيضاً، ذلك لأن الناس، حتى في عصر المصطفى ﷺ لم يصبحوا بفضل الإسلام معصومين، لم يصبحوا بفضله منزهين عن الآثام والأخطاء، بل ظلوا بشراً كسائر الناس على الرغم من اصطباغهم بالإسلام، وعلى الرغم من التزامهم بدين الله، وعلى الرغم من أنهم كانوا خاضعين في المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة، لشِرعة الله سبحانه وتعالى.. ظلوُّا، كما قال المصطفى ﷺ خطائين وخير الخطائين التوابون، فيهم من سرق فثبت عليه الجرم فقطعت يده، فيهم من ارتكب الفاحشة فأقيم عليه الحد، فيهم من شرب فأقيم عليه الحد، وفيهم من انزلق إلى معاص مختلفة.. كل ذلك تم في ظل المجتمع الإسلامي الأول، الذي كانت تطبق فيه شرائع الإسلام، أي في عصر رسول الله ﷺ فلئن كان المعنى المراد بتطبيق الشريعة الإسلامية، في ظل حكم إسلامي ما، أن يتحول الناس في ظل هذه الدولة فيصبحوا ملائكة، فلنعلم من الآن أن هذا المجتمع لم يوجد بعد، ولن يوجد في يوم ما.. وإذا كان هذا هو مقياس صلاحية الشريعة الإسلامية، فأنا أقولها لكم بصراحة، إن الشريعة الإسلامية ليست صالحة، أي ليست صالحة لتحويل الناس من أناسي إلى ملائكة معصومين منزهين من سائر الأخطاء.

إذن ليس هذا هو المعنى الذي يمكن أن يراد لصلاحية تطبيق الشريعة الإسلامية في المجتمعات الإنسانية.

فما المعنى المراد إذن من هذه الكلمة؟

المعنى المراد فيما تجتمع عليه أذهان سائر علماء القانون، وعلماء الشرائع، وعلماء الاجتماع، وكل المثقفين، بقولنا إن شريعة ما، أو إن شريعة

الإسلام صالحة للتطبيق، ومنسجمة مع مصالح الناس، أن الدولة التي تحكم بالإسلام، كانت ناجحة في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية عليهم، بقطع النظر عن الناس الذين طبقت عليهم أحكام الشريعة الإسلامية، أفأصبحوا معصومين أم ظلوا خطائين. هذا شيء آخر لا علاقة للحكم الإسلامي به أبداً، إنما المقياس الأوحد لصلاحية الشريعة الإسلامية للتطبيق، هو أن ننظر فنجد أن الأحكام التي كانت سائدة في عصر رسول الله ﷺ، وفي عصر الخلفاء الراشدين، وفي العصور التي تلت ذلك، كانت الأحكام الشرعية التي تنزلت من عند الله عز وجل وحياً على قلب رسوله، وأن الناس استقبلوا هذه الأحكام بقبول حسن، وأنها كانت تتجاوب مع مصالحهم، وأنها كانت تحميهم من الشرور والأخطار ..

إن وجدنا هذا، فهو الدليل القاطع على أن الشريعة الإسلامية، كانت صالحة للتطبيق لا في عهد ضيق محدود، بل في سائر العصور التي خلت. أما إن وجدنا أن المجتمع الإسلامي تأبى على تلك الأحكام، وقام تشاكسٌ بين مصالح الناس الحقيقية وبين أحكام الشريعة الإسلامية، فهذا دليل على أن الشريعة الإسلامية لم تكن إذن صالحة للتطبيق، ومن ثم لم تطبق.

هل هنالك ريب في أن هذا هو المعنى المراد بقولنا: مجتمع إسلامي يطبَّق فيه الإسلام؟

أعتقد أن هذا هو المعنى المراد، وما أحسب أن هنالك معنى آخر يزاحمه.

أما الفهم الأول فكما قلنا: لا يمكن للمنطق أن يقبله، لأن الناس سيظلون بشراً من الناس وسيظلون خطائين، ولن يكونوا ـ حاشا الرسل والأنبياء ـ معصومين من الانزلاق في المحرمات المختلفة.

إذا عرفنا أن هذا هو معنى صلاحية الشريعة أو عدم صلاحيتها للتطبيق وللانسجام مع المجتمعات، فلنتساءل إذن: أفكانت شريعة الإسلام غير صالحة

للتطبيق، وغير مطبقة إلا في هذا العصر الضيق فقط، أي الذي يحصره من العمر ثلاثون عاماً تقريباً، أو خمسة وعشرون عاماً، أم إن شرعة الإسلام كانت نافذة ومهيمنة في كثير من العصور التي جاءت من بعد.

لو تأملنا لعلمنا أن الشريعة الإسلامية كانت هي المطبقة، وكانت هي النافذة، وكان المجتمع الإنساني في سائر العصور المتسلسلة التي تلت عصر الخلافة الراشدة منسجماً كل الانسجام مع أحكام الشريعة الإسلامية، أي إن الشريعة الإسلامية هي التي كانت نافذة في عصر الخلافة الأموية، وظلت هي النافذة في عصر الخلافة العباسية، وظلت نافذة في عصر الدول المتتابعة، ما عدا جيوب من المشكلات العارضة التي ربما أوجدت ثغرات معينة ولا عبرة بها، ثم ظلت الشريعة الإسلامية هي النافذة في صدر من خلافة الدولة العثمانية، إلى عصر السلطان سليمان القانوني، ثم بعد ذلك بدأت تتقلص أحكام الشريعة الإسلامية تدريجاً، وما أظن أن فينا من يرتاب في شيء من هذا، وإلا فتعالوا نسأل: ما هي الشريعة التي كان الخلفاء من بني أمية يطبقونها على مجتمعاتهم؟ ما هي القوانين التي كانت تطبق آنذاك؟.

القوانين التي كانت مرعية هي قوانين الشريعة الإسلامية، وكلٌّ من رجع إلى نظام تلك الدول، وإلى موسوعات التاريخ العربي سيجد برهان ذلك بشكل أوضح.

الشِّرعة التي كانت الخلافة العباسية تأخذ الناس بها هي الشِّرعة الإسلامية في كل ما يتعلق بالمعاملات، وبالأحوال الشخصية كما يسمى اليوم، وبالجرائم والعقوبات، لم تكن هنالك أصلاً أي شريعة إلا شريعة الإسلام، ومن ثم فقد كانت هي النافذة وهي المطبقة.

ما الشرعة التي كانت نافذة في عصر الخلافة العثمانية؟ إنها شرعة الإسلام، بكل تأكيد. ولقد ازدهرت هذه الشرعة في ظلها أيما ازدهار. ومن قرأ كتاب علي

همّت، في سيرة السلطان محمد الفاتح ـ رحمه الله تعالى ـ سيجد مصداق ما أقول، سيجد بياناً مفصلاً للأحكام الشرعية التي كان الناس يؤخذون بها.

شيء آخر نطرح السؤال عنه: أفكان الناس سعداء بتطبيق شريعة الله عز وجل، أي الشريعة الإسلامية، أم كانوا أشقياء بها؟

ما أعتقد أن في الناس من كان يتأفف من تطبيقها سواء كانوا تائهين أو مستقيمين، سواء كانوا من المتنكبين عن هذه الشريعة أم من المتمسكين بها. ما أعتقد إطلاقاً أننا سنعثر أو سنلتقط حالات ذات أهمية وذات قيمة، تدل على أن في الناس من تبرموا بأحكام الشريعة الإسلامية في الأمور الاقتصادية مثلاً، أو المعاملات المالية أو العقوبات، وتمنوا لو أن أحكاماً أخرى جاءت من موسوعة جستنيان مثلاً، أو غيرها واستقرت فيما بينهم وطبقت عليهم. لم نعثر ولم نلتقط ما يدل على شيء من هذا أبداً.

إذن فالشريعة الإسلامية كانت مطبقة، وكانت صالحة للتطبيق، واستمر هذا الحكم يمخر عباب العصور إلى منتصف عصر الخلافة العثمانية.

وهل بوسعنا أن نختار أقوى من هذا الدليل، على أن الشريعة الإسلامية صالحة للتطبيق، وأن الناس كانوا منسجمين معها؟.

إذن فما يراه البعض دليلاً على عدم الصلاحية هو ذاته في الواقع دليل الصلاحية، بالمعنى الذي أقوله لكم، أي على أن نعلم أن معنى سلطان شريعة الله على المجتمع، أن تكون الشِّرعةُ النافذةُ في المجتمعات، فيما بين الناس، في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، هي شريعةَ الله سبحانه وتعالى، وهذا ما كان سائداً فعلاً في العصور المنصرمة التي أشرنا إليها.

يخيل إليَّ أن الشبهة التي تطوف بأذهان أصحاب هذه الأطروحة، أي القائلين بأن الشريعة الإسلامية لم تعد صالحة إلا إلى أواخر عصر الخلافة الراشدة، يخيل إليَّ أن الشبهة التي تطوف بأذهانهم هي الفتنة التي قامت بعد مقتل عثمان في وقعة الجمل.

حَدَثٌ، مما يمكن أن يحدث في كل عصر!.. عوارض انبثقت عن فتنة خارجية، تسربت إلى المجتمع، وأحدثت نميمة خطيرة، لا بين شخصين بل بين فئتين من المسلمين، وفعلت ما فعلت، فوقع كثير من المسلمين في ضِرامِ هذه الفتنة.. ثم إنها تقلصت وعاد المجتمع الإسلامي إلى سابق عهده، وإلى رؤيته الناصعة للشريعة الإسلامية، وعاد المجتمع يتفاعل تفاعلاً إيجابياً مع الإسلام. لا بل أقول: إنه استمر في اعتصامه بالشريعة الإسلامية إبان الفتنة، ذلك أن تلك الفتنة لم تكن تعني أن الذين احترقوا في أوارها، أو أن الذين تفاعلوا وتأثروا بها، تأففوا من الإسلام.

إن فئة خارجة من الإسلام هي التي حاكت خيوط تلك الفتنة. وكان الذي خطط لها وقادها، عبد الله بن سبأ، المعروف بـ "ابن السوداء"، فقد تقنَّع هذا اليهودي بالإسلام زوراً، وحاول أن يشعل فتنته في اليمن فلم يتأتَّ له ذلك.. ذهب إلى مصر وجمع الناس حوله على مذهب اخترعه كي يحارب بهم الخلافة الراشدة في شخص عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلم يتأت له ذلك. وتصدى له علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ثم جرب حظه أخيراً في إشعال هذه الفتنة. بعد مقتل سيدنا عثمان ـ رضي الله تعالى عنه ـ ولسنا بصدد بيان الشناعة التي فعلها ابن السوداء عبد الله بن سبأ ورجاله، بين فئتين من أصحاب رسول الله، ولكن كل من درس التاريخ بدقة سيعلم أن إخوة متحابين متآلفين، تسرب بينهم هذا الظربان، فأفسد صلة ما بينهم، وسرعان ما عاد الأمر إلى أعلى درجات الانسجام والانتظام[1].

إذن ما علاقة سحابة سوداء لفتنة اصطنعها ابن السوداء مرت وذهبت، بصلاحية الشريعة الإسلامية أو عدم صلاحيتها؟

تعالوا نفتش عن حجة أخرى، يتذرع بها أصحاب هذه الأطروحة.

---

(١) انظر قصة الفتنة التي حاكها عبد الله بن سبأ في الجزء السابع من كتاب البداية والنهاية لابن كثير ص٢٣٤، وانظر ملخص ذلك في كتابي «فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة» ص ٥٤٢ فما بعد.

لقد قرأت كلاماً لبعض من ينادي بهذه الأطروحة، مفاده أن الخلفاء الذين جاءوا بعد عصر الخلافة الراشدة انغمسوا في الترف، انغمسوا في الموبقات، وكانت حياتهم مليئة بالانحراف، وهم القادة، وهم الذين ينبغي أن يكونوا المثل الأعلى للانضباط بأحكام الشريعة الإسلامية التي هم حراسها.

ينظر هؤلاء إلى عصر الخلافة العباسية، على أنه بؤرة للترف والبذخ، ويقفون عند حياة رجل مثل هارون الرشيد، ليتحدثوا عن الكثير مما يسمى البذخ والترف والانحراف في حياته .

ولقد قرأت وأصدقكم القول، لهؤلاء الناس كلاماً في ترجمة الخلفاء، الذين عاشوا في عصر الخلافة الأموية، أو العباسية، فوجدت نفسي فعلاً أمام صور لانحراف شنيع، ولبذخ لا يكاد العقل يتصوره، ورأيتني وأنا أقرأ ترجمة هارون الرشيد بأقلام هؤلاء الناس أمام إنسان يتطوَّح بين دنان الخمر، يتنقل بين أحضان الغانيات، مسرف على نفسه، اعتصر من الخلافة سَكَراً من أجل متعته وأهوائه.

أقول: ربما كانت معذرة الذين يقولون إن الشريعة الإسلامية لم تطبق أو لم تكن صالحة للتطبيق بعد عصر الخلافة الراشدة، هذه الصور التي يضعونها أمام أذهان الناس. فماذا نقول في الجواب عنها؟

نقول في الجواب: الترجمات التي نقرؤها لأولئك الخلفاء، من حاكها؟ ومن الذي صاغها؟ كلكم ينبغي أن يعرف الجواب.

إن هذه الترجمات إنما تم نسجها والحصول عليها من كتب أجنبية لأمثال: كريمر، وفان فلوتن، وشاخت، وغولدزيهر،.. وعندما يعكف أناس من أبناء جلدتنا على هذه المصادر الأجنبية، ليتبينوا تاريخ مجتمعاتهم العربية والإسلامية، فإنه لشيء طبيعي أن يرجعوا بهذه الصورة المزرية والتراجم المؤسفة.

غير أننا جميعاً نعلم أن الكريم على نفسه، والمعتز بهويته، لا يستجدي علم تاريخه وتراجم رجاله من أعدائه وأعداء تاريخه، وإنما يأخذ علم ذلك من تراثه العربي الإسلامي، من أمثال الطبري وابن كثير وابن الأثير وابن خلدون.

وأنا أيها السادة والسيدات لا أعتقد أبداً أن خلفاء هذه الأمة كانوا ملائكة تنزلوا من السماء، بل أعلم أنهم بشر من الناس، وأنهم تعرضوا لكثير من الأخطاء، وأن كثيراً منهم ربما غضبوا فظلموا، واجتهدوا فأخطأوا. لكني على يقين أن الصورة التي نسجتها أقلام المستشرقين، والأجانب من الحاقدين على تاريخكم الإسلامي، صورة كاذبة.

ويتبين هذا لدى المقارنة بين ترجمة واحد مثل هارون الرشيد تقرؤها في كتابات الطبري وابن كثير ونحوهما، وبين ترجمته التي تقرؤها مثلاً في كتابات كريمر وفان فلوتن وغوستاف لوبون وغيرهم..

في المصادر الأولى، أجدني أمام إنسان يغزو عاماً، ويحُجُّ عاماً، يصلي في اليوم مائة ركعة، ما لم يكن مشغولاً بالغزو، أو معتلاً بعلة، لا يقطع بأمر إلا بعد أن يستشير علماء الشريعة الإسلامية.

ومع ذلك فقد يجتهد ويخطئ، وقد يغضب كما قلت لكم فينحرف إلى ظلم. ومهما نقبت وبحثت، فلن أجد في ترجمته أنه كان سكيراً يتطوح بين الدنان، أو أنه كان ينتقل بين أحضان الغانيات.

فإذا انتقلت إلى ما يكتبه الأعداء وجدتني أمام الصورة المستقذرة الأخرى. فأي الصورتين نعتمد، بل بأي المرجعين نأخذ؟!

أنأخذ بما يقرره أصحاب الدار، أم بما يدَّعيه اللصوص المتسللون إليها.!

إننا الآن من هذه المسألة أمام مشكلة أخرى: المرض الذي يسميه بعض علماء الاجتماع في عصرنا: «قابلية الاستعمار». ذلك لأن الاستعمار بحدٍّ ذاته

ليس مشكلة، إذ إنه إن وقع لابدّ أن يمرَّ وينقضي، ما دامت النفوس حرة وقابليتها غير موجودة. ولكن المشكلة تتمثل في القابلية التي جُبِل عليها بعض النفوس.. وهي تلك التي تحدث عنها طويلاً ابن خلدون، ولفت النظر إلى أبرز سماتها، وهي افتتانها عندما تُغلب وتقهر، باتباع القاهر وتقليده، إذ تشعر في ذلك بجبر لكسرها وإتمام لنقصها!.

ولعلّ مصدر هذا المرض ما قد يستقر في نفوس كثير من الناس الذين وقعوا في قبضة الطغاة وأرباب البغي والعدوان، من أن الذي سلط هؤلاء الطغاة عليهم، إنما هو رُقِيُّهُم الفكري والسلوكي، ومذاهبهم الفلسفية في فهم الحياة وكيفية التعامل معها.. إذن فخير سبيل تقضي على ذلهم المضروب عليهم، وتملأ مكانتهم في أعين خصومهم القاهرين، هو أن يتبعوهم في كل تلك الشؤون والأحوال والصفات، وأن يجردوا أنفسهم شيئاً فشيئاً من ذاتيتهم وذيولها الفكرية والسلوكية، التي أورثتهم ـ حسب ما يخيِّل إليهم هذا المرض ـ الهزيمة وألحقت بهم الهوان.

ولسنا الآن بصدد الحديث عن خطورة هذا المرض الذي يذكرنا بمرض (الساد)، ولا بصدد الحديث عن العلاجات التي تقاوم جراثيم هذا المرض، وتقضي عليه بعد استقراره في كيان الأمة أو الأفراد من الناس.

ولكن حسبنا الآن أن نشير إلى الآثار المُذِلَّةِ، بل المهلكة اجتماعياً وحضارياً، لهذا المرض الذي يسمونه، كما قلنا «قابلية الاستعمار» وكيف أنه ـ أي هذا المرض ـ يشل فاعلية العقل فيريه الحقَّ باطلاً والباطلَ حقاً، طبقاً لما يبصره به عدوَّه القاهر وسيده المتغلِّب، لا طبقاً لما يدركه هو بقابليته وقدرته الذاتية.

ينبغي أن أضعكم أمام واقع من عوفي من هذا المرض «قابلية الاستعمار» ولم يعان في حياته منه، وذلك من خلال المثال التالي:

طالب أوربي يعيش بين ظهرانينا، يدرس في آخر المرحلة الثانوية، طلب منه أستاذه العربي أن يكتب له بحثاً عن الثورة الفرنسية، أو الثورة البريطانية، ووضع بين يديه عن هاتين الثورتين مراجع عربية، هل يتنازل هذا الطالب، الذي لم يتجاوز بعد المرحلة الثانوية، أن يعكف على هذه الكتب العربية التي تتحدث عن الثورة الفرنسية أو البريطانية؟! أبداً.. لا يمكن أن يقبل ذلك، لأنه سيشعر أنه يهبط إلى الدون في هذا التصرف. ولسوف يقول بلسان مقاله أو لسان حاله: مكتبتي الأوربية التي أعتز بها مليئة بالمراجع التي تنجدني لدراسة هذا الموضوع، فلماذا أترك المعين الذي أعتز به، وأدور وألفّ، بحثاً عن أقلام عربية لدراسة مشهد من مشاهد تاريخي الأوربي!!.

لماذا يكون هذا الطالب الذي يدرس في المرحلة الثانوية أكثر اعتزازاً بذاتيته وتاريخه من اعتزازنا نحن العربَ والمسلمين بإسلامنا؟! لماذا نغمض العين عن مراجعنا، التي بين أيدينا ونعتمد على مراجعهم؟! لأننا مرضى، ولأنهم معافون.

علينا أن نتفحص الأمور، فإن تأملنا في أعمال هؤلاء الناس وكتاباتهم فوجدناهم صادقين، فلا مانع أن نغمض العين ونأخذ منهم. ولكن إذا تتبعنا أعمالهم، فوجدناهم يكذبون ويختلون ويدجلون، فما الدافع الذي يحمل كثيراً منا على أن يصدّق الكاذب ويتبع المخاتل وينقاد للمدجل؟

الدافع: هو المرض الذي حدثتكم عنه، مرض الاستعمار، بل قابلية الاستعمار.

ولعل فيكم من يقول: وهل فينا من تتبع وبحث.. فوجد أنهم يكذبون ويدجلون؟

وأقول: أجل.. كل من حمَّل نفسه جهد المقارنة بين ما يكتبه أعداء تاريخنا عن تاريخنا ورجاله، وما هو مدون في مراجعنا العربية والإسلامية الموثوقة، يتبين هذه الحقيقة ويكتشفها. والأمثلة على ذلك كثيرة لا تحصى.

قرأت قبل سنوات طويلة في كتاب مدرسي أُلِّف لطلاب الإعدادية في بلادنا العربية والإسلامية، الخبر التالي عن هارون الرشيد:

يقول الكاتب: لقد بلغ من تَرف هارون الرشيد وبذخه، أنه كان ينفق (أي هذه عادته) على طبق جانبي في مائدته، أكثر من مائتي درهم، طبعاً مائتا درهم مبلغ كبير من المال يساوي ما يقدر اليوم بألفي ليرة تقريباً، لا أشك أن أي طالب يقرأ هذا الكلام، لابد أن يتقزَّزَ من هارون الرشيد وعهده، وربما من تاريخه كله، ولابد أن يتساءل عن المال الذي جاء به، من أين امتلكه حتى يجعله عصارة لمتعته، وحتى يجعل منه سَكَراً لترفه وبذخه، ولكن تعالوا نتبع مصدر هذا الخبر، قبل أن يأخذنا الاشمئزاز من تاريخنا ورجاله.

بحثت ونقبت أياماً حتى عثرت على مصدر هذه القصة في كتاب (مروج الذهب) للمسعودي، ينقل المسعودي بدوره هذه القصة من مراجع أكثر وثوقاً أيضاً. وإليكم تفصيلها:

نزل هارون الرشيد ضيفاً على خاله المهدي في الرقة، وذات ليلة، قام هارون الرشيد لتناول العشاء، ولما جلس على مائدة الطعام، لفت نظره طبق صغير، لاحظ أنه مليء بقطع لحم صغيرة جداً، فقال لخاله: لماذا صغَّر طباخك قطع اللحم هذه؟ وكان الطباخ واقفاً يسمع، قال: يا سيدي؛ هذه ألسنة أسماك وليست لحوماً، فوقف مدهوشاً، وقال: كم أنفقت على هذا الطبق؟ قال مائتي درهم. فأحجم هارون الرشيد عن الطعام وأقسم أنه لن يمد يده إلى هذه المائدة، ولن يأكل شيئاً منها إلا بعد أن يخرج حاجبه بهذا الطبق فيعطيه لأول محتاج يراه

في الطريق، ولما مضى الحاجب بالطبق، ناداه قائلاً: قل لمن تعطيه الطبق، إن الطبق يساوي كذا درهماً حتى يعلم قيمته ولا يغبنه أحد، ثم إنه أخرج مبلغاً من المال من جيبه، وأعطاه أيضاً للحاجب، وقال: أعطه هذا المال أيضاً، إذ إنني كنت أنا السبب في هذا البذخ.

انظروا أيها السادة والسيدات إلى هذه القصة، كما هي في تاريخنا وتراثنا، كم ترفع من شأن هارون الرشيد في ذهن أي إنسان عاقل، أي إنسان يتعامل مع الذوق الرفيع، يتعشق الإنسانية الباسقة، يطأطئ الرأس للإسلام الذي ربّى مجتمعنا هذه التربية المثلى، ثم انظروا كيف نُكِّست هذه القصة هذا التنكيس الشنيع، وكيف اسْتُنطِقَتْ في المراجع الغربية المختلفة بنقيض ما تنطق به!!..

أليس عجيباً أن يأتي كُتاب عرب مسلمون فينقلوا هذه القصة، بهذا الشكل المُنكَّس من كتب أجنبية، ويغمضوا العين، ثم يضعونها في كتب مُقرَّرةٍ لطلابنا، دون أن يبالي أحد منهم بأن يتلمس عزته المفقودة، وأن يتفحص مصدر هذه القصة، ليتبين مدى صحتها، لا سيما وهو ينقلها من أعداء دينه وتاريخه؟!..

وليرجع من شاء منكم إلى كتابي «دفاع عن الإسلام والتاريخ» ليقف على نماذج كثيرة أخرى من دجل هؤلاء الأعداء وأكاذيبهم.

وهكذا، فإن كل ما ينسجه فكر الغربيين عن تاريخنا، إنما يُخْتَلَقُ ويتم نسجه من مشاعر حاقدة على تاريخنا الإسلام العربي الأغر.

لاشك أن ما يفعله هؤلاء الأجانب خيانة.. والخيانة تتفاوت في درجتها الإجرامية.. فالكذب على شخص من الناس خيانة وجريمة، ولكن الكذب على لتاريخ الذي هو لسان الدهر أشنع الخيانات والجرائم.. أن يستنطق الكاتب لتاريخ بما لم ينطق به، قِحَةٌ بالغة ما مثلها، ومع ذلك فلعل لهذا الكاتب عذراً ندما يكون عدواً للتاريخ الذي يتحدث أو يكتب عنه، وقد يكون عذره مقبولاً.

ولعلكم تعجبون من هذا الكلام، ولكن لا داعي للعجب، لأن الحقد عذر.. ولأن العداء أيضاً عذر، ولأن الغضب الذي ينبثق من نيران الحقد، من شأنه أن يدفع صاحبه إلى هذا، لذا فأنا أقول: إن أولئك معذورون في أكاذيبهم بسبب حقدهم على هذه الأمة وتاريخها.

إنهم جميعاً قرؤوا ما فعله هارون الرشيد بنقفور خليفة «إيريني» التي كانت قبله مباشرة، فماذا عسى أن يكون شعورهم تجاهه وموقفهم منه، وهم أحفاد نقفور وإيريني؟

ودعوني أضعكم أمام تفصيل هذا الخبر:

لما قضت إيريني نحبها ـ وكانت تجلس على عرش الإمبراطورية الرومانية ـ خلفها من بعدها نقفور. وما إن استقر على العرش واستقل بالحكم حتى أرسل إلى هارون الرشيد، يقول له: لقد وضعتك التي كانت قبلي من نفسها مكان الرخ، ووضعت نفسها منك مكان البيدق (البيدق يعني الجندي الصغير في لعبة الشطرنج) وأرسلت إليك من أموال الدولة ما كنت خليقاً أن ترسله أنت إليها، فإذا جاءك كتابي هذا، فأرسل كل ما قد أنفذته إليك من أموال الدولة، وإلا فالحرب بيني وبينك.

فأرسل إليه هارون الرشيد يقول: من أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى نقفور كلب الروم، قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما ترى لا ما تسمع.

وسرعان ما اتجه بجيش جرار إلى هرقلة، وقاتل نقفور، وأخضعه لما كانت قد خضعت له من قبله إيريني، وكتب في ذلك كتاباً وعاد منتصراً. وفي الطريق وكان الشتاء قاسياً، وكان الثلج يهمي، وقد غطى الطريق كله، سمع رجال من حاشية هارون الرشيد أن نقفور نكث العهد. فاستكتموا الخبر خوفاً من أن يسمع به هارون الرشيد، فيعود مرة ثانية إلى هرقلة، وكان الوقت قاسياً والبرد قارساً

والشتاء شديداً، ولكن الخبر تسرب إلى سمع هارون الرشيد، فعاد مرة ثانية، وقاتل نقفور، وأخضعه بموجب كتاب ألزمه بتوقيعه لما كانت قد خضعت له إيريني من قبل.

ماذا تتوقعون أيها الإخوة والأخوات من أحفاد نقفور، الذين يقرؤون مثل هذه الواقعة في حياة هارون الرشيد والإمبراطورية الرومانية؟ ما الذي تتوقعون أن يقوله أحفاد نقفور عن هارون الرشيد؟ أفيكم من يتصور أن يقول عنه: رضي الله عنه وأرضاه، أو قدس الله روحه، كم كان إنساناً عظيماً؟! لو كنتم تتوقعون هذا، فاسمحوا لي أن أقول لكم: إن هذا غباء من الذي يتوقع منهم ذلك.

إذن أنا أقول مرة أخرى: إنهم معذورون في أن يكذبوا على هارون الرشيد وأمثاله، ذلك لأنهم إنما ينطلقون، إلى ما يقولونه ويكتبونه، من حقد دفين أسود بين جوانحهم..

لكن ما شأن هؤلاء العرب والمسلمين الذين ينبغي أن يعتزوا بمثل هذه المواقف ورجالها؟!.. ما بالهم يشيحون بوجوههم عن تاريخهم العربي، الذي صيغ بلسان عربي مبين، والذي كتبته أقلام أمينة على تاريخها!.. ليقبلوا فيطأطئوا الرؤوس خنوعاً لأحفاد نقفور وليتقبلوا منهم ثمرات غيظهم وأحقادهم بانكسار وخنوع؟

فهذا هو جوابنا عن هذه الشبهة الثانية، وإنه لينطبق عليها المثل القائل: عذر أقبح من الذنب.

ذلك لأن الذي يقول: إن الإسلام لم يطبق أكثر من خمسة وعشرين عاماً، والدليل ما يقوله أعداء الإسلام عن حياة الخلفاء الذين جاؤوا بعد عصر الخلافة الراشدة، يضيف إلى افتئاته في حق الإسلام، افتئاتاً آخر في حق تاريخه

ورجاله، لمصلحة أولئك الذين يمارسون معاملة كيدية وعدوانية لهم ولأمتهم الإسلامية على السواء.

وبعد، فليعد كل منكم إلى ما كتبه الكتاب العرب والمسلمون على اختلافهم، وليتبيَّن تاريخ المجتمعات بعد الخلافة الراشدة، وليتأمل المنهج الذي كانت تسير عليه تلك المجتمعات، والشِّرعة التي كانت تخضع لها تلك المجتمعات، وسيجد أنها كانت سعيدة بالإسلام، كانت سعيدة بالقوانين الإسلامية، وأن تلك المجتمعات لم تكن تفكر ببديل عنها بشكل من الأشكال.

ولكن إياك أن تجعل مقياس سعادة تلك المجتمعات بالإسلام وشرائعه، العصمة.. إن كنت تبحث عن العصمة، فلن تجد فينا من هو معصوم.. أنا واحد ممن ينتشي افتخاراً بشريعة الله سبحانه وتعالى، ولكني لست معصوماً.. قد أخطئ.. قد أنحرف.. قد تزل بي النفس تحت سلطان الغرائز التي سلطها الله سبحانه وتعالى عليَّ، ولكني حتى في لحظة الانحراف والتيه أرفع الرأس عالياً بحكم الشريعة الإسلامية وأقر بعظيم حكمتها وجدواها.

وأختم مناقشة أصحاب هذه الأطروحة بشيء أخير، أقول لهم: افرضوا أن الشريعة الإسلامية لم تكن مطبقة بعد عصر الخلافة الراشدة، وافرضوا أن الخلفاء فعلاً كانوا كما يقول الأوربيون وكتابهم، بل أنا أفرض أنهم كانوا شراً من هذا التصور الذي نسجوه لهم، وافرضوا أن الناس خانوا الأمانة بعد الخلافة الراشدة، فاتجهوا ذات اليمين، وذات الشمال، وبحثوا عن أحكام وعن شرائع أخرى، هل هذا ذنب الإسلام، أم هو ذنب الناس الذين توجهم الله بتاج الإسلام، ثم لم يكونوا على مستوى هذا الشرف فانحرفوا عنه وشردوا إلى المستنقعات؟

كان الله قد أكرمني بشرف هذا الدين وأحكامه، وتوجني بتاجه سعادة وعزاً وقوة، ثم إنني لهوى من أهواء النفس، خلعت هذه الحلة التي شرفني الله عز وجل بها، إن المشكلة لا تكمن في هذه الحال في شرف الإسلام وتجاه، وإنما تكمن في خيانتي لهذا الشرف والتاج، أليس هذا منطقاً سليماً واضحاً؟

نحن آمنا بأن الله حق، وبأنه موجود، وآمنا بأن هذه الشريعة هي شريعة الله سبحانه وتعالى، نزلت علينا جميعاً، عن طريق محمد ﷺ، ونحن نعلم أنها نزلت رحمة بنا، واستجابة لمصالحنا، وحلاً لمعضلاتنا ومشكلاتنا. فإذا رأينا أن هنالك من أغضى الطرف عنها، ولم يكن على مستوى الاعتزاز بها، والاعتناق لها. فالمشكلة مشكلتهم هم.. أما نحن فلسوف نكون أمناء على هذه الشرعة، التي توجنا الله سبحانه وتعالى بها، وجعلها مصدر عزتنا وسعادتنا، ولن نكون كأولئك الناس، الذين انحطوا إلى الدركات يبحثون عن قمامات الأنظمة والشرائع، عند أمم ومجتمعات أخرى، أجل.. هكذا يفرض المنطق أن نكون.

أما إذا قلدنا من خان الأمانة، والأمانة مسعدة، وإذا قلدنا من خان الشِّرعة، والشِّرعة تستجيب لسائر مصالحنا؛ لأنها شرعة الله عز وجل، فانتقصنا الشِّرعة، وتناسينا من خانها، فنحن ـ اسمحوا لي أن أقول لكم ـ كمن ينظر بعين حولاء.. ينظر إلى الظالم، ويتجه لينحط ضرباً بالمظلوم.. يرى الظالم وهو يسيء ويفسد، وبدلاً من أن يتجه فيضرب على يده، ينحط ضرباً بالمظلوم.. صاحب العين الحولاء هكذا يرى، يرى المظلوم حيث يوجد الظالم، ويرى الظالم حيث يوجد المظلوم.. الذين يقولون إن شريعة الله سبحانه وتعالى لم تكن صالحة، ومن ثم فما ينبغي أن نطبقها، يجرِّم بذلك شريعة الله، في حين أن الجريمة جريمة من أعرضوا عنها بدون موجب.

ثم كيف أقول إن شريعة الله غير صالحة. وأنا مؤمن بالله؟!... أنا لا أتكلم عن الملحد.. الملحد منطقي مع إلحاده، عندما يقول: أنا لا أخضع لهذه الشرِّعة.

ذلك لأني إن قلت له: هذه شريعة الله، يسكتني بقوله: أنا لا أؤمن بالله، إذن هو منسجم مع إلحاده، وإن لم يكن منسجماً في قوله: لا يوجد إله، فهذا شيء آخر...

أما أولئك الناس الذين يقولون إنهم يؤمنون بالله، ويعلمون أن هذه الشريعة منزلة من عند الله عز وجل، فلا يمكن أن يكونوا منطقيين عندما يعودون فيقولون: ولكن ثبت أن هذه الشريعة غير صالحة للتطبيق. إذن فهؤلاء الناس يرون أنهم هم الآلهة وليس الله سبحانه وتعالى، لأن الذي يراجع شريعة الله ويميز الصالح فيها من غير الصالح، يقول: هذا صالح، وهذا غير صالح، وهذا مضى أوانه ولم يبق خير في العمل به، فمعنى ذلك أنه هو الذي يعلم وليس الله المشرع جل جلاله!.. فهل هذا كلام منطقي عندما يصدر عمن يدعي أنه مؤمن بالله؟

لو قال لنا: إنه ملحد لا يؤمن بالله، فلا نقاش لنا معه عندئذ في هذه المسألة، وإنما يتحدد نقاشنا معه في مسألة وجود الله سبحانه وتعالى، ولسوف يتجلى عند مناقشته في هذا الموضوع، أنه إنسان متنكب عن جادة العلم، بعيد عن المنطق، ولو كان رجل علم لما اتخذ هذا الموقف أبداً. بل ما كان الإلحاد في يومٍ ما مذهباً علمياً، وإنما كان ولا يزال ظاهرة مرضية.

غير أن الإنسان المتهافت هو من إذا سألته عن الله قال: أنا أؤمن بالله عز وجل، فإذا سألته: لماذا لا تطبق شريعة الله عز وجل؟. قال: اسمح لي أن أقول لك: الشريعة الإسلامية لم تكن صالحة للتطبيق، أو لم تعد صالحة للتطبيق!..

هذا الكلام ينطوي على تشاكس يمجُّه العقل لأنك إذا كنت تعلم أن هذه الشريعة آتية من عند الله، فلا يمكن إلا أن نؤمن بأنها صالحة في كل زمان ومكان.

أقول هذا الكلام على افتراض أن التاريخ الإسلامي، فعلاً كان مليئاً بحكام ورجال أعرضوا عن شريعة الله، وانغمسوا في الموبقات، وانغمسوا في المعاصي، كما يقول فان فلوتن وشاخت وكريمر وآخرون.

ولاشك أن هذا لم يحصل، لكن أفترض ذلك. إذن فالمشكلة مشكلة الناس الذين أعرضوا عن شريعة الله، وليست مشكلة شريعة الله الطاهرة من الشوائب، والتي تنزلت من عند الله سبحانه وتعالى.

ولما صحا بعض هؤلاء الناس إلى هذا التهافت الساري في كلامهم ودعاويهم، أسرعوا فغيروا السبيل إلى ما يبتغون، واستبدلوا بدعوى عدم صلاحية الشريعة، الدعوة إلى تطويرها وتجديدها، وإخضاعها للقراءات الفنجانية المعاصرة.

إذن فالأسلوب الجديد هو: الشريعة الإسلامية عظمية وصالحة، ولكنها تحتاج إلى تطوير وقراءة جديدة تتفق وواقع العصر.

ولمناقشة هذه المغالطة ميقات آخر، ستحين مناسبته إن شاء الله.



يُغَالِطُونَكَ إِذْ يَقُولُونَ :

# اَلْعِلْمَانِيَّةُ هِيَ ٱلْحَلُّ -١-

أما اليوم فسنتحدث عن مغالطة أخرى أحسب أنها من الأهمية والخطورة بمكان، نسميها ابتداء مغالطة، ولكن الحكم لها أو عليها إنما يستبين بعد حديثنا عنها، وبعد مناقشتنا لها، وبعد عرضها على ميزان المنطق والعلم الموضوعيين البعيدين عن أي أسبقية من الأسبقيات.

هذه الأغلوطة الجديدة عنوانها: العلمانية هي الحل. ولعلكم جميعاً قرأتم كثيراً وسمعتم كثيراً عن هذه الدعوى أو عن هذه الأطروحة، وكأن العالم العربي يعاني من مشكلات تفاقمت في حياته واستعصت في واقعه المعاصر اليوم، وكأنه جرب الوسائل كلها، واستعان بالأفكار جميعها، وبالفلسفات المختلفة على تنوعها، فلم يجد هذا العالَم حلاً لهذه المشكلات أو المعضلات، ولم يبق أمامه إلا الحل الوحيد الذي لا بديل عنه، ألا وهو اللجوء إلى العلمانية.

هل هذا التصور صحيح؟ وهل العلمانية تحل المشكلات التي نعاني منها فعلاً؟

هذا ما سيتبين إن شاء الله تعالى، لدى النقاش العلمي الموضوعي، الذي نرجو أن يوفقنا الله سبحانه وتعالى له.

قبل كل شيء لابد أن نمر بمسألة لغوية، هل هي عِلمانية أو عَلْمانية؟

من المعلوم أن كثيراً ممن يناقشونها أو يدعون إليها، ويفلسفونها، ينطقونها بفتح العين، يقولون: عَلمانية. وأكثر هذا الاستعمال إنما يأتي من شمال أفريقيا، فأهل المغرب هم الذين يؤثرون أن ينطقوا بها مفتوحة العين ويلحون على أن هذا هو التعبير الصحيح، وأنها بكسر العين لا تدل على المعنى المطلوب.

والذي تبين لي بعد التمحيص، أن العلمانية نسبة إلى العِلم، بكسر العين على أنها نسبة على غير بابها، إذ الأصل أن يقال: علمي. ولم أجد في اللغة العربية شيئاً اسمه العَلم بفتح العين مما يتعلق بموضوعنا هذا. وإنما يقال: علم عَلْماً، من باب تعب، أي: انشقت شفته العليا، والوصف منه للرجل: أعلم، وللمرأة: علماء، يقول الإمام الزمخشري في قصيدة له معروفة:

ومذ أفلح الجهال أيقنت أنني أنا الميم والأيام أفلح أعلم

أي: فهو كالميم التي لا تستبين إذ يحاول أن ينطق بها صاحب الشفتين المشقوقتين.

فكلمة الأعلم إذن اسمٌ لمن شُقَّت شفته العليا، والعَلْم مصدر منه، فما معنى النسبة إليه في المجال الذي نحن بصدده؟ أعتقد أن هذه الكلمة بهذا الشكل لم تأخذ إجازة مرور من أي مجمع من المجامع العلمية والعربية قط.

وإنما هي بالمعنى الذي يتطارحه الناس اليوم والذي نريد أن نناقشه في هذه الحلقة، بكسر العين نسبة على غير بابها إلى العلم[1].

والمعنى الذي يرمي إليه أصل هذه الكلمة: أن الجدير بالمجتمعات الإسلامية أن تستبدل بارتباطها الديني الارتباط العلمي.. وإنما يتصور هؤلاء أن الدين إنما يأخذ أحكامه من غيبيات لا يرفدها العلم، ولا يؤيدها المنطق، ولا سيما العلم الحديث.

ونظراً إلى أن الحضارة الحديثة تأخذ معينها ـ فيما يزعمون ـ من العلم، العلم بمعناه الحديث، ونظراً إلى أن الدين يعتمد على الغيبيات، إذن ينبغي

---

(١) نقول: بالمعنى الذي يتطارحه الناس اليوم، احترازاً عن المعنى الدقيق للأصل الانكليزي، وهو: Secularism إذ هو يعني في المدلول الحرفي للكلمة النزوع إلى الدنيا دون اعتبار لغيرها، ويصبح معناها من حيث اللزوم: اللادينية.

للمجتمعات العربية والإسلامية أن تستبدل بمعين الغيبيات، معين العلم. ولما لم يكن من الممكن أن يجتمع المنهج العلمي مع المنهج الغيبي، فقد كان لابد أن ننفض أيدينا على مستوى المجتمع وأنظمته من الدين وغيبياته، وأن ندخل في مضمار التعامل مع العلم، أما الدين فما ينبغي أن نستبقي منه إلا خيطاً دقيقاً يتمثل في صلة ما بين الفرد وربه.

والتاريخ الذي يتحدث عن نشأة هذا الانفصال بين العلم والدين، في ربوع فرنسا وغيرها أكبر شاهد على المعنى الذي نقول.. لقد كان منشأ هذا الانفصال ثورة العلم والعلماء على الكنيسة والدين.. انتصرت الكنيسة بادئ ذي بدء، وحوكم العلم والعلماء، ولكن الثورة العلمية عادت بعد حين، وانتصر العلم في هذه المرة الثانية على الدين وعلى الكنيسة، وساد المبدأ اللائيكي أو العلماني، وارتفع لواء الانتصار للعلم في تلك البلاد، ولم يكن ليتم ذلك إلا بتحرير المجتمع من سلطان ذلك الدين .

فكلمة العلمانية إنما انتشرت في البلاد العربية والإسلامية بكسر العين، تعبيراً عن هذا التوجه الذي ظهر بادئ ذي بدء في أوربا، نتيجة للخصام الذي قام هناك بين العلم والدين، ثم الثورة التي حجمت سلطان الدين تفضيلاً للعلم وانتصاراً لأحكامه.

بعد التصحيح الذي لابد منه لطريقة النطق بهذه الكلمة، أقول:

لاشك أن الدعوة إلى هذا الحل، عن طريق العلمانية، إنما هو تقليد واضح لموقف الغرب من الدين، الذي يتعامل معه ويأخذ نفسه به، ولا داعي إلى أن نفتح ملف الحديث عن تاريخ علاقة الغرب بالدين، كيف كانت هيمنة الكنيسة على الغرب؟! ثم كيف تقلصت هذه الهيمنة، ثم ازدادت تقلصاً، ثم آل الأمر إلى أن تمت القسمة على أساس أن المجتمع ينبغي أن ينهج منهجاً علمانياً أو علمياً!، ولابد لكي ينهج هذا المنهج من أن تُحَجَّمَ الكنيسة ضمن صلاحيات

محددة معينة، أما نظام الدولة، ودستورها وأنشطتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والسلوكية، فينبغي أن يؤول أمر ذلك كله إلى سلطان العلم، وسلطان الثقافات المختلفة المتنوعة!.

هذا باختصار هو موقف الغرب من الدين، وهو الموقف الذي يُعَبَّرُ عنه اليوم بالعلمانية.

وعندما يصر أصحاب هذه الأطروحة على تقليد الغربيين في الدعوة إلى هذا المنهج، وفي التعلق بهذا الحل الذي سار عليه الغربيون قبل قرون، فإنا لا نطلب منهم إلا أن يقلدوهم تقليداً كلياً متكاملاً في هذا الأمر، بحيث يتبعونهم في المنطلقات والنتائج معاً، وبذلك يكون للتقليد ما قد يبرره من الأسباب المنطقية.

من المعلوم أن الغربيين الذين آثروا النهج العلماني في مجتمعاتهم، بدؤوا قبل كل شيء فاتجهوا إلى دينهم الذي كانوا يتعاملون معه، فدرسوه دراسة دقيقة، درسوا تاريخه، وجذوره، وانتهوا إلى يقين بأن هذه المقولات الدينية التي تصدرها الكنيسة ليست وحياً تنزل من عند الله على عيسى بن مريم، وليس شيءٌ منه مما قد قاله الحواريون، وإنما هو مجموعة مواضعات تراكمت وتزايدت مع الزمن، عن طريق المجامع الكنسية المختلفة، فهي في مجموعها التزامات اتخذها لنفسه الإنسان الغربي، وليست أحكاماً منزلة من عند الله سبحانه وتعالى، هذا ما وقر في نفوس الغربيين لدى دراستهم الدقيقة لدينهم الذي كانوا يأخذون أنفسهم به.

يقول ستوارت ميل في كتابه «الحرية»، سائلاً نفسه؟ إذ كان يبحث عن الضرورات التي من شأنها أن تقيد من حرية الإنسان، وأن يقبل المجتمع بذلك: لماذا لا تتمثل هذه الضرورات في الأحكام الدينية التي ترعاها الكنيسة؟ ثم يجيب قائلاً:

إن ما يسميه الناس آداب المسيحية ليس مما أخذ عن السيد المسيح، ولا مما نقل عن الحواريين، بل هي آداب وضعتها الكنيسة الكاثوليكية على سبيل التدرج أثناء القرون الخمسة الأولى.

وما يقوله ستوارت ميل، يؤكده العالم والفيلسوف البريطاني بنتام في كتابه «أصول الشرائع» موضحاً أن الدين، في مجموعه وتعاليمه الكنسية، إنما هو مواضعات اصطلح عليها رجال الدين، واجتهدوا فيها، فهي من صنعهم، وهي من إبداع فكرهم، وإنما قصد منها السير الذي يتفق مع مصلحة المجتمعات الغربية.

إذن ينبغي للدين أن يكون خاضعاً للمصلحة الغربية، وينبغي أن يسير معها أين سارت، وأن تتطور معها كيفما تطورت. يقول: «يجب أن يكون سير الديانة موافقاً لمقتضى المنفعة، فالديانة باعتبارها مؤثراً تتركب من عقاب وجزاء، يجب أن يكون عقابها موجهاً ضد الأعمال المضرة بالهيئة الاجتماعية فقط، وهذه هي القاعدة الأولية، والطريقة الوحيدة في الحكم على سير الديانة، هي النظر إليها من جهة الخير السياسي في الأمة فقط، كما نظر إليها رجال الدين من قبل، وما عدا ذلك لا يلتفت إليه»[١].

وهذه المعلومات عن الدين تدخل لدى الغربيين فيما يعد من الثقافة الأولية العامة التي لابدّ منها لكل الفئات والطبقات.

إذن فالغربيون قبل أن يتخذوا موقفهم من الدين وتحجيمه، وجعل سلطان العلم مهيمناً عليه، درسوا الدين في مجمله وفي تاريخه، وانتهوا إلى أن التعاليم الكنسية المختلفة، التي يراد تقليد المجتمعات الغربية بها، لم تتنزل وحياً من عند الله، وإنما هي مواضعات بشرية، أي: هي من صنع الإنسان، فإذا كانت

هذه التعاليم من صنع الإنسان، فما الذي يوجب الالتزام بها والخضوع المطلق لها.! وهكذا كانت نتيجةُ دراستهم الدقيقة التاريخية للدين عندهم القناعةَ المنطقية السليمة بما انتهوا إليه من قرار العلمانية واتخاذها الحاكم البديل.

أما الإخوة الذي يصرون على طرح الحل العلماني عندنا، تقليداً للغرب، فلقد كنت أتمنى ـ وقد أصروا على التقليد ـ أن يكون تقليدهم للغرب تقليداً متكاملاً! لا أن يقلدوا الغربيين في قرارهم الأخير الذي اتخذوه، دون أن يقلدوهم في الدراسات الدقيقة للدين عندهم، أهو وحي منزل من عند الله، أم هو عبارة عن مجموعة مواضعات اتفق عليها رجال الدين مع الزمن؟

مطلوب من هؤلاء المقلدين أن يكونوا مخلصين في تقليدهم، فيسيروا في المنهج الذي سار عليه الغربيون كاملاً، بدءاً من أوله إلى آخره، ما داموا يريدون التقليد حقاً، أمَّا أن يغمضوا العين هنا، عن دراسة الإسلام وحقيقته وجوهره، وأن يعرضوا عن الإجابة عن سؤال يلح قائلاً: هل الإسلام في عقائده وتشريعاته شيء صنعه الإنسان، فهو ظاهرة اجتماعية، أم إنه في عقائده، وجملة تشريعاته، وحي تنزل من عند الله سبحانه وتعالى، على رسول كان أميناً في إبلاغ الناس هذا الشرع. وأن لا يقلدوا الغربيين في دراسة إسلامنا هنا، كما درسوا هم حقيقة دينهم هناك، ثم يلحوا على النتيجة بدون أي ارتباط بالمقدمة، فيقولوا رأساً: ينبغي أن نحجم سلطان الإسلام، وأن نقيده، ثم نقيده، حتى نجعل منه قناة دقيقة تسري ما بين الفرد وربه سبحانه وتعالى، وأن نبعد سلطانه عن الأنشطة العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فهذا ظلم شنيع للتقليد قبل كل شيء!..

إنهما خياران اثنان لا ثالث لهما، فيما يدركه كل عاقل:

إما أن نتحرر من التقليد جملة وتفصيلاً، وإما أن نقلد تقليداً كاملاً غير

مشوه!؛ هل في هذا الكلام ما يخالف المنطق!، وهل فيه ما يخالف المنهج السليم في البحث!

إنني أقول: علينا فعلاً أن نفعل كما فعل الغرب، علينا أن نضع المجاهر المكبرة الصافية الموضوعية العلمية أمامنا، وندرس حقيقة الإسلام تحت هذه المجاهر، ندرس جذور الإسلام، تاريخه، حقيقته، من أين جاء ومن الذي فرضه علينا.. أهو من صنع الإنسان أم من صنع خالق الإنسان.. أهو عبارة عن ظاهرة اجتماعية نسجتها الأفكار والفلسفات البشرية مع الزمن، أم إن الإنسان تلقى هذه التعليمات، وليست له أي شركة، أو أي يد في نسجها؟!..

ينبغي أن ندرس ذلك كله. وأنا أقول لكم بحق: إذا تبين لنا أن الإسلام في جذوره وفروعه ليس إلا عبارة عن مجموعة مواضعات بشرية، تماماً كتلك المواضعات التي يتعامل بها رجال الدين في الغرب، وتلك التي انتهت إليها قناعة الغربيين، فإنني لا أكتفي عندئذ باللجوء إلى الحل العلماني، بل لابد أن أقول شيئاً أكثر من ذلك، أقول: يجب في هذه الحالة أن نتحرر من قيود هذا الدين كله!.. ما الذي يلجئنا إلى أن نقيد أنفسنا بأغلال من صنع أجيال سابقة؟ أناس صنعوا أفكاراً أطلقوا عليها اسم الدين، ثم راحوا يلزمون أنفسهم والأجيال الآتية بالخضوع لسلطانها الوهمي؟ لاريب أن بوسعنا أن نصنع أفكاراً أخرى أفضل من تلك التي صنعوها، ومن ثم فلسنا مكلفين بالتقيد بها والجمود عندها.

بل أقول حينئذ كما قال سارتر عندما دعي إلى التمسك بالقيم: إن هذا العالم الذي لا يوجد فيه خالق، لا داعي إلى أن نرتبط فيه بقيم، لأنه لا يوجد من أوجد هذه القيم، والإنسان عندما يحاول أن يتعامل مع القيم يجب أن يعلم أنه هو أمير نفسه، وما ينبغي أن يصنع قيماً يصفد نفسه منها بأغلال.

أجل إذا تبين أن الإسلام عبارة عن مجموعة أفكار نسجتها رؤى البشر من قبلنا، فأنا مع الذين يدعون إلى العلمانية، بل أنا أدعو إلى أكثر من هذا، أقول: ينبغي أن يحرر الإنسان نفسه من دين لم ينسجه إلا أناس مثله.

ولكن ما دام فينا من يحاول أن يتخلص من الإسلام، قبل أن يتعرف عليه، فالمشكلة مستحكمة..

المشكلة عندئذ لا تتمثل في اختيار أو عدم اختيار العلمانية، ولكنها تتمثل في الإصرار على الجهل..

مشكلة هؤلاء الذين لا يريدون أن يقلدوا الغربيين إلا في الشوط الأخير من العملية الواحدة المترابطة؛ أنهم لا يريدون أن يعلموا ما هو الإسلام. ولا شك أن في هذا خيانة للتقليد عند عشاق التقليد، وللعلم عند من يحترمون العلم.

إنها لظاهرة مؤسفة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية أن تجد أكثر المسلمين يجهلون كل شيء عن إسلامهم في عنجهية واعتزاز.!

إذا سألت طبيباً عن مسألة دينية، قال لك باعتزاز: أنا مختص بالطب، ولا أعلم عن الدين شيئاً، وإذا سألت السؤال نفسه لمهندس قال: أنا مهندس ولا علاقة لي بالدين، إذا سألت تاجراً، أو صاحب حرفة، ما أسرع ما يجيبك قائلاً: أنا لست صاحب اختصاص بالدين.

أما في الغرب فكل إنسان مهما كان اختصاصه، لابد أن يجزم بأن معرفة تاريخ الكنيسة والمجامع الكنسية من الثقافة العامة التي لابد أن يعرفها، ومن ثم فإن حكمه للدين أو عليه لا يأتي إلّا عن بينة وأساس.

أكرر وأؤكد أن هناك ظاهرة مؤسفة، أعود فأبينها بشيء من التفصيل:

يقرر الغربيون أن معرفة تاريخ الدين في حياتهم داخلة في الثقافة الأساسية، التي ينبغي أن تكون جامعاً مشتركاً بين سائر الفئات، وبين سائر الاختصاصات،

فما من إنسان مثقف في الغربيين، إلا وهو يعلم تاريخ المسيحية وتطوراتها، وتطور المجامع الكنسية إلى هذا العصر، ثم إما أن يختار لنفسه الالتزام بها، أو يختار لنفسه التحرر منها..

أما في مجتمعاتنا، فالأمر مع الأسف يسير على خلاف ذلك إذا استثنينا الفئة التي نسميها: علماء الشريعة الإسلامية، ويسميها آخرون: رجال الدين الإسلامي.

ومهما خضت غمار المجتمع، بحثاً عن الفئات الأخرى، وأصحاب الاختصاصات المتنوعة، فلسوف تجد أنهم جميعاً لا يعلمون من الإسلام وتاريخ التشريع الإسلامي شيئاً. ولو سألت أحدهم عن شيء من مسائله لقال لك باعتزاز: أنا لست مختصاً بالدين، أو لست رجل دين. كأن اختصاصه الدنيوي يعذره في أن لا يعلم من الدين الذي ينتمي إليه شيئاً.

هذه الظاهرة كلنا نلمسها ولا يشذ عنها إلا قلة يسيرة جداً، وأنا أتصور أن على الذين يحبون التقليد ويركنون إليه أن لا يزيفوا التقليد وأن يعطوه حقه، ولا يلاحقوا الغربيين في تقليدهم بذيول القضايا والأحكام، دون النظر إلى مواقفهم في أصولها وأركانها الأولية، أي فعلى كل منهم أن يعلم من إسلامه الذي ينتمي إليه، ما يعلمه الغربيون من ديانتهم التي ينتمون إليها.

فإذا تكامل لديهم التقليد، وتطابق عمل التابع مع عمل المتبوع تماماً، أي فدرسوا هم أيضاً الإسلام دراسة مستوعبة، فإن عليهم أن يعلنوا عن القرار الذي ينبغي أن ينتهوا إليه: أهو ظاهرة اجتماعية نسجتها عقول سكان الجزيرة العربية ومن جاء بعدهم، أم هو في عقائده وتشريعاته الأساسية وحي منزل من عند الله عز وجل.

وريثما يستجيب هؤلاء الإخوة لمقتضيات التقليد وحقه، فيدرسون الإسلام،

ويعلنون عن قرارهم الذي سينتهون إليه في حقه، لابد أن نقول بدورنا الكلمة التي تتضمن قرارنا الذي انتهينا إليه، بعد دراسة علمية مستوعبة ومتحررة للإسلام: حقيقته وتاريخه ومصدره.

وإننا لنقول بحق: لو أن هذه الدراسة أوصلتنا إلى اليقين بأنه ـ أي الإسلام ـ عبارة عن مواضعات فكرية، وضعها البشر، ووضعتها الأجيال في عصر من العصور، لما اكتفينا بالدعوة إلى العلمانية، بل لدعونا المسلمين جميعاً إلى أن يتحرروا من ربقة أفكار صنعها أناس أمثالهم في عهود غابرة.

وأنا واحد ممن درس حقيقة الإسلام، في تاريخه وكيفية نشأته، ومصادره، مع البحث عن الأدلة العملية على كل ذلك، ولقد انتهيت إلى معرفة حقيقة لابد أن أذكرها هنا إجمالاً، ريثما يأتينا دعاة العلمانية من المسلمين بقراراتهم العلمية المشابهة عن الإسلام:

لقد انتهيت إلى أن الإنسان لم يصنع نفسه، وإنما هو عبارة عن وعاء مليء بالانفعالات القسرية المختلفة، التي لا يعلم كيف انعكست إليه، يفكر ولا يعلم كيف يفكر، ينطق كما أنطق الآن، ولا يعلم كيف تخرج الكلمات من تجاويف فمه، ينعس فيرقد، ولا خيار له في ذلك.. يستيقظ ولا يعلم كيف تحققت له اليقظة، يسير معتدل القامة، ولا يدري كيف وأنى تحقق له هذا التوازن. وإذا ترنح لا يعلم من أين فاجأه هذا الترنح، وإذا كاد يسقط ذات اليمين مد يده اليسرى إلى الشمال دون أن يعلم ما الذي دفعه وأوحى إليه بهذا.. الإنسان وعاء لمجموعة انفعالات.. تسري في حياته دون إرادة منه أو اختيار إلى القوة والشباب، مرحلة إثر مرحلة، ولا يعلم كيف يتم هذا.. حتى إذا وصل إلى أوج الشباب نظر، وإذا هو يعود القهقرى، وإذا بالمشيب يغزو كيانه، وإذا الضعف يتسرب إلى أعضائه بعد قوة، دون أن يعلم كيف تسربت إليه القوة بالأمس، وكيف تقلصت هذه القوة عنه اليوم.

إذن الإنسان وعاء لمجموعة انفعالات، أي: فالإنسان جهاز استقبال، هذا ما يدركه كل إنسان مفكر، أرأيت إلى جهاز الاستقبال هل يمكن أن يتم استقباله للصور والحركات والألوان، إن لم يكن من ورائه أو أمامه جهاز إرسال؟! أليس هذا الإنسان، الذي هو صفحة بيضاء، تنعكس عليه من خارج كيانه صور وأحوال يستقبلها ويتفاعل معها، أليس هذا الإنسان مظهراً إذن لجهاز إرسال يتجه إليه؟! أما ينبغي أن نسأل ما هو جهاز الإرسال هذا؟! وأين يكمن؟!.. وما مصدر سلطانه عليه؟

لو كنت أنا صاحب اختيار في حركة الفكر التي أتمتع بها، في النطق الذي أتمتع به، في السير باعتدال عندما أقوى على ذلك، في الشباب المقبل عندما أتجمل به، والمشيب الذي يغزو كياني عندما أبتلى به، لو كنت أنا الفاعل لذلك كله لما بحثت عن جهاز إرسال، ولكنني منفعل، ولا أدري كيف يتم هذا في كياني نهائياً، إذن لابد أن أبحث، أنا أيها الإنسان عن جهاز الإرسال الذي يعكس عليَّ هذه الصفات، أو هذه الانفعالات كلها.

جهاز الإرسال ـ إن جاز التعبير ـ هو الخالق الذي خلق الإنسان، وأودع فيه هذه الانفعالات التي لا يدري كيف تتم في كيانه إطلاقاً.

إذن الخالق موجود، هذه حقيقة علمية لا شك فيها، وإذا كان هذا الخالق هو الذي خلقني، وهو الذي أودع فيَّ هذه الانفعالات كما يشاء هو، لا كما أشاء أنا، فمعنى ذلك أني أعبده، وأنه القيوم على أمري كله، وأنه الذي يتصرف بي، وأنه الذي يرسل إليَّ هذه الانفعالات المختلفة.

إذا ثبت أنني عبده فينبغي أن تكون حياتي خاضعة لسلطانه، آمراً ناهياً معلماً موصياً. وعندما أصغي أجدني أمام الإسلام، وأجد أن الإسلام في حقيقته ليس إلا مجموعة بيانات وتعليمات أوحى بها هذا الإله الخالق، الذي وجَّه إلي هذه

الانفعالات صوراً وأحوالاً تفاعلت بها، وغداً ستتقلص هذه الصور والأحوال كلها، وسأعود صفحة بيضاء عند الموت.

هذا الإله أرسل إليَّ تعليماته، بعد أن أخبرني عن قصة هذا الكون، في بدئه وفي تسياره وفي نهايته، ثم حدثني عن رسالتي في عمارة الأرض حضارياً ومادياً ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] حدثني عن المنهج الأمثل في إقامة دعائم الاجتماع، ومد جسور الصلة بيني وبين أبناء جنسي، حدثني عن النظم التي ينبغي أن ألجأ إليها لنسج مقومات سعادتي الفردية والاجتماعية، تلك هي خلاصة تعليمات الإسلام.

وأصغيت إلى الجهة التي جاءتني منها هذه التعليمات، وإذا هي شخص محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، درست حياته، ووضعت فرضية أن يكون كاذباً، وافترضت احتمال كونه صاحب نزعة إلى زعامة، أو رغبة في رئاسة، أو أي شيء أخر، ودرست هذه الاحتمالات كلها بموضوعية، وانتهيت اعتماداً على أدلة قاطعة إلى أن الرجل لم يكن كاذباً، لم يكن مفتئتاً على الله، بعد أن كان أميناً خلال أربعين عاماً، مع عباد الله، نعم انتهيت إلى هذا اليقين.

ثم تساءلت عن الكتاب الذي نقله لنا محمد عليه الصلاة والسلام متضمناً أوامر الله ونواهيه، وإذا هو القرآن، وضعت القرآن أيضاً تحت مجهر الدراسة والنظر، لعله من كلام محمد، لعله من تأليف إنسان آخر، لعله كلام فريق من الجان، لعله...؟! فرضت هذا كله، ووضعت هذه الاحتمالات تحت مجهر النظر والبحث، وانتهيت بعد دراسة موضوعية متحررة، إلى أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون كلام بشر، وقفت متدبراً أمام قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤] أي: العرق البارز في العنق ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧] طبعاً أنا أذكر هذه الحقائق باختصار.

انتهيت إلى هذا كله، وعرفت من خلال رحلتي المعرفية أن الإسلام لم يصنعه أحد من البشر، بل هو في عقائده وفي تشريعاته التي نقرأها في القرآن، ليس إلا وحياً تنزل من لدن رب العالمين، على قلب محمد عليه الصلاة والسلام بلسان عربي مبين ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] كما يقول القرآن ذاته.

أنا أتحدث الآن عن ذاتي، وعن كل المسلمين الذين درسوا الإسلام، ولاشك أن هذه هي الحقيقة التي لابد أن ننتهي نحن جميعاً إليها.

والآن، أما وقد انتهينا إلى أن الإنسان لم يصنع شيئاً من الإسلام، وأنه أي الإسلام ليس ركام تصورات وأفكار بشرية، وإنما هو مجموعة بلاغات الله وأحكامه، أنزلها وحياً على عباده عن طريق رسوله محمد ﷺ، بأي منطق إذن أطوي هذا الوحي الرباني من حياتي الفردية أو الاجتماعية وأدعو إخواني وأبناء عمومتي جميعاً إلى أن يستبدلوا بهذه الوصايا والتعليمات الربانية، ما يروق لكل منهم رسمه والأخذ به باسم العلم والعلمانية؟!

إننا، والحالة هذه، نتنكَّب عن جادة العلم ذاته، لأن تجاهل الحقيقة الثابتة المتمثلة في علاقة الإنسان بربه، والمتمثلة في الوحي الذي خاطب الله من خلاله الإنسان، تجاوز للعلم وشرود عن منهجه وقفز فوق حدوده.

ذلك لأن الدين نفسه ـ وإنما نعني به هنا الإسلام ـ مادة لحقيقة علمية ثابتة.. ترى هل بوسعك ـ وأنت رجل علم ـ أن تتجاهل حركة الأفلاك، أو أن تتجاهل جاذبية الأرض ودورانها؟.. من الواضح أنه لا يسعك ذلك، لأنها موضوعات لحقائق علمية مقررة.

فكذلك الدين الحق الذي هو الإسلام، إنه تعبير عن واقع كوني يفرض ذاته، تماماً كحركة الأفلاك، وواقع طبقات الأرض، وطبائع الفصول.. كل ذلك

موضوعات لحقائق علمية ثابتة، يطلب من الإنسان العاقل أن يتبناها ويعرفها ثم ينسجم في واقعه السلوكي معها، وإن اختلاق فوارق الاهتمام فيما بينها - بعد أن درسنا الإسلام، وتبين لنا أنه ينبعث عن مصدر الحقائق الكونية كلها، ألا وهو وجود الصانع والخالق جل جلاله - لمن أسوأ صور التشاكس مع العلم والابتعاد عن قواعده وموازينه.

إن الميزان العلمي يرفض التعامل مع موضوعات العلم بالطريقة الانتقائية طبق ما يعجبنا وما لا يعجبنا، بأن نقرر إبعاد حقائق الإسلام عن ساحة العلم، على الرغم من مخالفة ذلك لحكم العلم وقراره، وبأن نؤثر على حقائقه العلمية الأخذ بما تهواه نفوسنا، وما تحبذه أفكارنا ورغباتنا.. أجل، إن الميزان العلمي يرفض ذلك.

نعم، لو أن دعاة العلمانية بدؤوا قبل كل شيء، فتجرؤوا وبرهنوا على أن الإسلام ليس حقيقة من الحقائق الكونية الثابتة، وأنه في مصدره وأحكامه ليس إلا وهماً من الأوهام، وركاماً من أفكار (رجال الدين) المسلمين شأنه كشأن الركام الذي استيقنه الغربيون عن الكنيسة وتاريخها، أقول: لو أن دعاة العلمانية بدؤوا فبرهنوا على هذه الدعوى، إذن لعلمنا أنهم غيارى على العلم حقاً، ولناقشناهم عندئذ عن حقيقة الإسلام ومصدره: أهو حقاً مواضعات وأفكار بشرية أم هو خطاب الله وحكمه.

كأني ببعض دعاة العلمانية يقولون: نحن لا ننكر الدين، ولكننا نقول: ينبغي أن تكون صلاحية الدين محجمة محصورة في الأمور الروحانية، وفي التربية الوجدانية التي تجعل القلب يفيض حباً لله وخوفاً منه، وهذا يمكن أن يؤدي وظيفة كبرى في حياة الإنسان الفرد مع ذاته، ولا داعي إلى أن نحمِّل الدين مزيداً على ذلك من الأنظمة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

أقول لهم في هذه الحالة: إذا كانت وظيفة الدين محصورة في هذا، فلقد كانت بعثة محمد عليه الصلاة والسلام عبثاً إذن، لأن ما بعث به سيدنا عيسى كاف لهذا كله، فإن المعاني الروحانية، والمشاعر الوجدانية التي نريد أن نجعلها الوظيفة الوحيدة للدين، كفيلةٌ بها بعثةٌ عيسى عليه الصلاة والسلام، أي أن تعاليمه كافية ووافية بذلك، فلماذا بعث محمد عليه الصلاة والسلام بعد ذلك؟

إن ما يتضمنه القرآن يوضح الجواب عن ذلك.. فمحمد ﷺ بعث مؤكداً العقيدة التي بعث بها سائر الرسل والأنبياء من قبله إلى جانب الشرائع التي كلف بإبلاغها، والمتضمنة أحكام العلاقات الاجتماعية والعلاقات الدولية والنظم الاقتصادية والأحوال الشخصية ونظام الدولة الإسلامية. فإذا أصر هؤلاء الناس على أن يحصروا رسالة الدين في المشاعر الروحانية، فمعنى ذلك أنهم يصرون على أن يتجاهلوا بعثة محمد عليه الصلاة والسلام، وما أعتقد أن فينا، أو في الذين يطرحون هذا الحل، من يستطيعون أن يقولوا: إن محمداً لا يوجد في التاريخ أو أن بعثته ليست حقيقية، ذلك أن هؤلاء يقولون مثلنا بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

حسناً إذن؛ ما الفرق بين رسالتَيْ هذين النبيين العظيمين محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام؟

إننا لنعلم أن العقيدة التي بعث بها الرسل والأنبياء واحدة، ألا وهي تذكير البشرية بوجود الصانع، بوجود الخالق سبحانه وتعالى، والتنبيه إلى صفاته التي يتميز بها عن صفات مخلوقاته، وإعلام الناس أنهم مبعوثون من بعد الموت ليوم عظيم يقوم فيه الناس لرب العالمين، وأنهم سيجزون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ونحن نقرأ في هذا قول الله عز وجل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

إذن؛ بماذا اختلفت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام الذي بعث إلى الناس كافة عن رسائل السابقين الذين كان يبعث كل واحد منهم إلى قومه وأمته؟.. اختلفت بالاتساع التشريعي، اختلفت بهذا الاتساع الكبير الذي ضمن أن تقوم الدولة على أسس دينية، وعلى دستور إسلامي، وعلى ضوابط وأحكام وأنظمة إسلامية، وهذا الشيء نعرفه ونراه بارزاً واضحاً في الفترة التي استقر المقام فيها برسول الله ﷺ في المدينة المنورة، كانت له شخصيتان آنذاك، شخصية النبي المبلغ عن الله، وشخصية رئيس الدولة، فكان يسوس الناس من خلال شخصيته الأولى مبلغاً لهم عن الله عز وجل، وكان يسوسهم من خلال شخصيته الثانية بما يسميه الفقهاء أحكام الإمامة والسياسة الشرعية.

الآن وقد علمنا أن الإسلام لم يصنعه البشر، وإنما هو وحي منزل من عند الله، في عقائده وفي تشريعاته الأساسية، إذن فإننا لا نستطيع أن نتبع خُطا الغربيين في العلمانية التي اعتنقوها، لأن مقدمة هذه النتيجة لديهم، تختلف اختلاف النقيض مع النقيض مع مقدمة هذه النتيجة عندنا، الإسلام هنا ليس كالمسيحية هناك. هذه حقيقة ينبغي أن لا نتجاهلها، وإذا كان الأمر كذلك، فإن دعاة العلمانية لا يملكون إلا خيارين اثنين: إما أن يقولوا لنا بكل جرأة: إنهم يريدون أن يتبرؤا من هذه الحقيقة الإسلامية الجاثمة، التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وأنهم يريدون أن يتنكروا لها رغم حقيقتها!.. يريدون أن يقفزوا فوقها رغم أنها حقيقة علمية جاثمة كالطود!، وإما أنهم لا يريدون أن ينكروا حقائق الإسلام وجوهره المتمثل في الوحي الإلهي، وأنهم يذعنون له

حقيقةً علمية ثابتةً. إذن، فلا بد أن يعترفوا بأن الإسلام كل لا يتجزأ، ومن ثم فلا بدَّ أن يكون إليه حل المعضلات السياسية، وأن يكون إليه حل المعضلات العلمية، وحل المعضلات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية على اختلافها.. إذ تلك هي مشيئة رب الإسلام ذاته، وهكذا ينطق كتابه، وبذلك يأمر خطابه.

أعتقد أن هذه محاكمة علمية ومنطقية لا تخضع لأي ريب.. غير أن النقطة الهامة، بل العمود الفقري في هذا الموضوع يتمثل في الإجابة عن السؤال التالي الذي لابد أن نطرحه على الإخوة القائلين بأن العلمانية هي الحل. وهو:

هي الحل لماذا؟

ولابد أن يأتي الجواب: هي الحل لمشكلاتنا. والسؤال الذي يرد عندئذ: ما هي المشكلات التي عجز الإسلام خلال قرونه الطويلة عن حلها؟ ومتى ثبت أن العلمانية هي القادرة على حل تلك المشكلات؟

هذا السؤال مطروح، ولابد من الإجابة عنه، مع يقيننا بأن المشكلات التي تطوف بأذهاننا جميعاً كثيرة ومتنوعة. ولكن ما هي هذه المشكلات، ومتى ثبت عجز الإسلام عن حلها؟ ثم متى ثبت أن حلها موفور وجاهز بيد العلمانية؟



يُغَالِطُونَكَ إذْ يَقُولُونَ :

# ٱلْعِلْمَانِيَّةُ هِيَ ٱلْحَلُّ -٢-

إذن فلنتساءل: ما هي المشكلات التي تُرَشَّحُ العلمانية لحلها اليوم؟.. مع العلم بأن ترشيح العلمانية دون غيرها للنهوض بالحل المطلوب يعني أن هناك مشكلات عويصة في حياتنا الاجتماعية والحضارية اليوم، وأننا جربنا وسائل شتى للتغلب عليها، وللوصول إلى حل سليم لها، فلم نصل إلى الحل الشافي بل إنها جميعاً قد عجزت.. ومن ثم فإن الملجأ الوحيد الذي يُبتَغى عنده الحل هو العلمانية.

أجل.. هذا هو معنى الأطروحة التي يلح عليها دعاة العلمانية اليوم.

بادئ ذي بدء لابد أن نتساءل عن هذه المشكلات التي تُرَشَّح العلمانية، ولا غيرها، لحلها.

كلنا يعلم أن مشكلاتنا المتنوِّعة المختلفة اليوم كثيرة، ولكنها جميعها تتمثل في مشكلات أساسية، يقوم ويقعد بها العالم العربي، بل العالم الإسلامي أجمع، وإن بوسعنا أن نلخصها في مشكلة التجزؤ، التي منيت بها الأمة العربية بعد أن كانت أمة واحدة ومتحدة. ومن ثم مشكلة فلسطين، وضياع الحق العربي والإسلامي فيها، وقد تفرعت هذه الثانية من الأولى.. ومن ثم مشكلة التخلف الحضاري التي تفرعت هي الأخرى من المشكلة الأولى.. وعندما نقول «التخلف الحضاري» تتفرع عن هذه الكلمة صور شتى لمظاهر التخلف..

أستطيع أن أقول إذن إن سائر مشكلاتنا تتجمع في الجذور الثلاثة التالية:

مشكلة التجزؤ، وهي أخطر المشكلات وأساسها وأولها من حيث الزمن.

ثانياً: مشكلة ضياع الحق الفلسطيني، الذي هو ملكٌ لهذه الأمة جمعاء.

ثالثاً: مشكلة التخلف الحضاري، بكل ما في هذه الكلمة من معان جزئية.

فعندما نقول العلمانية هي الحل، فمعنى ذلك: أن العلمانية هي الأداة المرشّحة للقضاء على هذه المشكلات الثلاث.. العلمانية هي التي ستعيد الحق الفلسطيني لأصحابه.. والعلمانية هي التي ستقضي على التجزئة، وتعيد هذه الأمة إلى ماضي وحدتها.. والعلمانية هي التي تنجي هذه الأمة من بؤرة التخلف الحضاري، وترقى بها إلى صعيد التقدم. أجل.. هذا هو معنى قولنا: العلمانية هي الحل.

ولكن.. أصحيح أن العلمانية تحقق كل ذلك، وقد عرفنا معنى العلمانية، ولم ننسَ بعدُ الكلام الذي قلته في الفرق بين الإسلام الذي لم يصنعه الإنسان، وبين مجموعة المواضعات والمقولات الدينية لدى الغربيين.

أحقاً أن المشكلات التي تعاني منها الأمة العربية والإسلامية اليوم، لا يملك أن يحلَّها إلا توجه هذه الأمة إلى العلمانية؟. أقول لكم بحق: إذا ثبت أن الأمر كذلك من خلال النقاش، ومن خلال استحضار الأدلة والبراهين العلمية، فيا مرحباً بالعلمانية عندئذ. وكلنا ينبغي أن يستعمل هذا المفتاح السحري العظيم للقضاء على مشكلاتنا التي نرزح تحتها.

ولكن تعالوا فلنناقش هذه الدعوى العريضة بالأدلة والبراهين:

وسيراً وراء منطق التدرج في القضايا وأسبابها، لابدّ أن نبدأ أولاً فنتساءل: من أين جاءت هذه المشكلات التي هيمنت علينا وترسخت فيما بيننا؟ وكيف، وبأي حماية كنا بعيدين من قبل عنها؟..

مشكلة التجزؤ متى تسربت إلينا، وقد كانت غائبة عنا، فقد كنا أمة واحدة، ومن ثم مشكلة ضياع الحق الفلسطيني، من أين تسربت إلينا، ولقد كانت هذه البقعة المقدسة ملكاً لهذه الأمة، لم تقو أمةٌ، ولم تقوَ صليبية في عهد من العهود، على استمرار استلابها؟.. ومن ثم مشكلة التخلف الحضاري، من أين

تسربت إلينا، وقد كنا فيما مضى مضرب المثل في التقدم الحضاري والعلمي والثقافي، بكل معنى الكلمة.

حقاً.. من أين تسربت هذه المشكلات الثلاث إلينا؟ وكيف كنا ردحاً طويلاً من الزمن من قبلُ متحررين منها؟

عندما نطرح هذا السؤال، ونفتح ملف التاريخ، والتاريخ عقل الدهر كما يقولون، أعتقد أننا جميعاً سندرك الجواب عن هذا السؤال:

الإسلام هو الذي وحد هذه الأمة، ما أعتقد أن فينا من يرتاب في ذلك.. كانت الأمة العربية مجموعة قبائل متنافرة متخاصمة، وكانت الحروب القائمة فيما بينها لا تكاد ترقد حتى تستيقظ مرة أخرى، ولم يكن يُتصور أن هنالك قوة من القوى تستطيع أن تقضي على جيوب هذه الخصومات والحروب، وأن تعيد هذه القبائل فترقى بها إلى صعيد وحدة يضرب بها المثل، لم يكن يُتصور أن هنالك قوة تستطيع أن تفعل ذلك، ولكن الإسلام، الذي جدده الله عز وجل ببعثة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، قضى على تلك التجزئة، وأنبت من وراء تلك وحدةً لا تزال الدهور تخشع لها، ولا تزال الأمم تتحدث عنها، إذن الإسلام هو الذي نقل هذه الأمة من أودية التجزئة والضياع، وارتقى بها إلى صعيد الوحدة.

ووحدة هذه الأمة هي التي فجرت قوتها، وزادت من تماسكها، فتكوّن لها من هذه القوة حصن منيع، حمى ثرواتها، وحرس حقوقها المادية والمعنوية، فاتسعت هذه الأمة في ممتلكاتها، وفي قواها، ولم تستطع يد باغية أن تنتقص شيئاً من حقوقها، أو أن تستلب شبراً من أراضيها، وإنما تم ذلك في ظل الإسلام الذي وحّد، والذي فجر قوة هذه الأمة. إذن الإسلام هو الذي حصّن هذه الأمة، بعد أن وحدّها ضد أطماع الطامعين، وضد بغي المتربصين.

والإسلام هو الذي نقل الأمة العربية من واقع كانت فيه مضرب المثل للجهل والأمية والتخلف، وسما بها إلى صعيد التقدم العلمي والتقني والحضاري في ذلك العصر. وكلكم يعلم أن العصور الوسطى بالنسبة للمجتمع الإسلامي، كانت مضرب المثل في التقدم، وفي الرقي، وفي الحضارة، وفي المدنية، وفي التسارع إلى الاكتشافات العلمية المتنوِّعة بمقدار ما كانت المجتمعات الغربية مضرب المثل، للتخلف والجهل والانحطاط. إذن الإسلام هو الذي وضع سلم الصعود إلى صعيد الحضارة أمام هذه الأمة.

هذه حقيقة مكررة ومحفوظة، ما أظن أن فينا من يجهلها أو يرتاب فيها.

إنها الحقيقة التي يتدارسها الطلاب في مدارسهم، ويدركها سائر المثقفين من تاريخنا المقروء والمسموع.

وخلاصة هذه الحقيقة، تتمثل في أن الإسلام هو الذي أوجد العروبة، وليست العروبة هي التي أوجدت الإسلام[1]. أي إن الإسلام هو الذي أوجد الأمة العربية الواحدة، والإسلام هو الذي فجر قوة هذه الأمة الواحدة، وجعل لها من هذه القوة حصناً يحمي أراضيها ومكتسباتها وأوطانها، والإسلام هو الذي نقل هذه الأمة العربية من فلول من القبائل الجاهلية، التي تخب في ليل دامس من الجهل والضياع، وسما بها إلى التقدم الحضاري.

فإذا كان هذا الكلام بيناً وواضحاً ومحل إجماع، وما إخاله مكان خلاف إطلاقاً. فلنتساءل الآن:

ما الذي جعل هذه المكتسبات تتقلص؟ الإسلام وحَّد هذه الأمة، فما بال هذه الوحدة غابت فيما بعد، ولماذا حلّت التجزئة محلها؟ الإسلام هو الذي

---

(١) قال هذا الكلام وأفاض في بيانه وشرحه السيد الرئيس حافظ الأسد في مأدبة رمضان التي دعا إليها نخبة من كبار علماء سورية ومسؤوليها عام ١٩٩٥.

حصّن حقوق هذه الأمة ضد الاستلاب، فما لكثير من الحقوق استلبت وضاعت؟ وفلسطين واحدة منها وليست كلها.. الإسلام كما قلنا هو الذي ارتفع بهذه الأمة من حضيض الجاهلة والأمية إلى صعيد باسق من الحضارة والعلم والمعرفة، فما لهذه الحضارة قد تراجعت وتقلَّصت؟

هذا السؤال لابد أن يفرض نفسه، ولابد أن نعلم الجواب عنه بشكل موضوعي. وأعتقد أنكم جميعاً ستوافقونني على الجواب الذي سأقوله لكم بعد أن نتأمل فيه بدقة، وبعد أن ننطلق إليه من موضوعية تامة.

هل الإسلام اليوم في حياة المجتمعات العربية مقبلٌ كما كان مقبلاً بالأمس؟

وهل له فاعليته وسلطانه في التربية وأنظمة الحكم الاجتماعية والاقتصادية، كما كان له سلطانه بالأمس؟

كلنا يعلم الجواب، لقد تقلص سلطان الإسلام الذي كان مهيمناً إلى الأمس القريب على أجهزة الحكم، وأنظمته وعلى الأنشطة الاجتماعية المختلفة، تقلص ولا يزال يتقلص كما تعلمون.. حلتَّ القوميات محل الإسلام، أو حاولت لفترات طويلة أن تحل محل الإسلام، ولا داعي إلى أن نفتح ملف هذا الموضوع، ونذكر الأدلة الكثيرة التي تؤيد هذا المعنى. لقد كان هذا عاملاً من العوامل التي جعلت فاعلية الإسلام تتقلص في مجتمعاتنا. حلت مذاهب يسارية ويمينية متطرفة، ولا داعي إلى ذكر التفاصيل، محل الإسلام، ولعل هذا الكلام فيه شيء من المبالغة، لا أقول حلت، بل حاول كثير من المسلمين أن يضيقوا من فاعلية الإسلام، وأن يضيِّقوا من المساحة التي كان الإسلام يتحرك فيها في واقع مجتمعاتنا، لتحل محلها هذه المذاهب اليسارية المتنوعة، واليمينية المتطرفة المتنوعة.

في خِضَمِّ هذا الواقع نظرنا، وإذا بفاعلية الإسلام قد تراجعت كثيراً،

وتقلصت كثيراً، ولا داعي إلى أن نبرهن على هذا المعنى، الحضارة الغربية غزت، ونجحت في مواقع كثيرة من غزوها.

المذاهب الهدامة المتنوعة غزت، ونجحت في كثير من مواقعها.

والأفكار اللادينيّة حاولت أن تغزو هي الأخرى، والقوميات، غزت بخطط أجنبية كلكم يعرفها، وكانت بريطانيا هي الرائد الأول فيها..

هذه العوامل كلها جعلت الإسلام يتقلص في فاعليته، وأبرز مظهر لتقلص فاعلية الإسلام هو الحكم، كاد الحكم في مجتمعاتنا الإسلامية يصبح مظهر ازدواج بالنسبة للإسلام، بوسع أحدنا، أياً كان وفي أي بقعة من البقاع العربية والإسلامية يعيش أن يتبين خطّين يسيران معاً، خطين متوازيين، الخط الإسلامي الذي يكمن في كثير من البيوت والأسر وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض، والخط الآخر البعيد عن الإسلام، الذي يكمن في أنظمة الحكم والتيارات الاجتماعية المتنوعة. ولكي نكون دقيقين في الحكم نقول: لعل بقايا من صلة ما بين الحكم والإسلام، بشكل تقليدي، لا تزال موجودة وسائدة هنا وهناك.

إذن عندما تقلصت فاعلية الإسلام، كان طبيعياً أن نجد أنّ ذلك الخير الكبير الذي أسداه الإسلام إلى مجتمعاتنا، قد تقلَّص هو الآخر.

وأعني بالخير الكبير الوحدة التي حققها الإسلام، أعني بالخير الكبير القوة التي شكلت الحصن، الذي وقى هذه الأمة من أيدي المعتدين والغاصبين، أعني بالخير الكبير الحضارة التي كانت من أجلِّ ثمرات الإسلام. . . . عندما تقلَّص الإسلام تقلَّصت نتائج فاعليته كلها من مجتمعاتنا، أي فكان لابد أن تتقلص معه ثمراته.. كان لابد أن تتقلص معه خيراته.. وبالجملة فقد غاب الحارس، إذن لابد للمتربصين أن يتسللوا، ولم يكن الحارس كما هو معلوم للجميع إلا الإسلام.

هل تخضع هذه الحقيقة للنقاش؟..

لقد قرأت كلاماً كثيراً لأناس أعتقد أنهم بعيدون عن الالتزام الديني، وعن الانتصار الوجداني للإسلام، وأقل ما يمكن أن أقول عنهم: إنهم حياديون فيما يتعلق بالرؤية الإسلامية والرؤى المختلفة الأخرى، ولكنهم مع ذلك متفقون على أن الإسلام هو الذي رفع شأن هذه الأمة ذات يوم، وأن تقلص فاعلية الإسلام هو الذي هبط بهذه الأمة اليوم.

فإذا كان هذا الكلام واضحاً، وكان محل اتفاق من ذوي الثقافات العربية والدراية بالتاريخ العربي والإسلامي، فإن بوسعنا جميعاً أن نعلم الجواب عن السؤال التالي:

ما هو العلاج اليوم لإعادة وحدة هذه الأمة، والقضاء على مشكلة تجزئها؟. ما هو العلاج لاستعادة الحق الفلسطيني، وأمثاله من الحقوق، ولكي تعود هذه الأمة إلى سابق قوتها، ويعود إليها تالد مجدها؟ ما هو الحل الذي يعتق هذه الأمة من سجن التخلف؟

الجواب هو: أن تعود هذه الأمة إلى وضعها السابق الذي كان الإسلام فيه هو الحارس على هذه المكاسب كلها.

ألم ننته الآن إلى وفاق بأن الإسلام هو الدار التي كانت تحمينا من العدو، وأن الإسلام هو المعين الذي كان يمدُّ كياننا بالقوة، وأن الإسلام هو الجامعة التي تزخر بالعلوم والحضارات ومقومات الثقافة والمدنيَّة، إذن ينبغي أن نعود إلى دارنا التي شُرِّدنا منها، ينبغي أن نعود إلى الدار التي أورثتنا كل هذه الحماية، والطمأنينة والأمن، ثم توِّجت حياتنا بتاج التقدُّم والقوة والحضارة.

هل هذه المعادلة تحتاج إلى فكر دقيق، هل في هذا الكلام غموض يحتاج إلى بيان أو فلسفة تخضع لنقاش وجدال؟...

إذا كان في الناس من يكابر فيزعم أنه يرى غبشاً على هذه الحقيقة التي لا أقول إني أوضحتها، بل ذكَّرتُ بها، ويريد مزيداً من الأدلة، إذن تعالوا أضع تحت أبصاركم الحقائق الساطعة التالية:

عندما كانت هذه الأمة تعيش أواخر عهد الخلافة الإسلامية، كانت تمرُّ بأسوأ أوضاعها، وتعاني من أضعف مراحل حياتها، لكنها كانت تتمتع على أقل تقدير بشيء اسمه الوحدة، وكانت هذه الوحدة تحمي (على الرغم من ذلك الضعف كله) حقوقها، كانت الصهيونية العالمية تطوف، وتدور وتدور، حول كيان هذه الأمة فلا تستطيع أن تخترقه إلى مطمعها من فلسطين. أليس هذا مظهراً من مظاهر القوة التي أثمرها الإسلام، إذ أثمر الوحدة وجعلها حقيقة نافذة في حياة المسلمين؟

أزيدكم تذكيراً بهذه الحقيقة: يقول حاييم وايزمن في مذكراته: إننا حاولنا وفكرنا طويلاً في السبيل الذي يوصلنا إلى فلسطين، ولكننا انتهينا أخيراً إلى قناعة تامة بأنّ طوق ـ هذا هو تعبيره ـ بأن طوق الخلافة العثمانية ما دام محيطاً بالعالم العربي، فلن نستطيع أن نخترقه لنصل إلى فلسطين، لابد من القضاء على طوق الخلافة أولاً. هذا ما يقوله حاييم وايزمن في مذكراته، ثم يقول: إننا تحت هذه الضرورة تعاونَّا مع بريطانيا في القضاء على الخلافة.

ثم يتحدَّث عن الخطوات التي حيكت، وتم تنفيذها للقضاء على الخلافة، وبتعبير أكثر حداثة أقول: للقضاء على الوحدة، على وحدة هذه الأمة. إذن العدو الذي كان يتربص بنا، علم أنه لن يستطيع أن يصل إلى شيء من حقوقنا، إلا بعد أن يُجزِّئنا، ولا سبيل له إلى تجزئتنا إلا إذا أبعد فاعلية الدين وسلطانه عنا، ومن أبرز مظاهر فاعلية الدين، أن الأمة التي تستظِلُّ بالإسلام حقاً، لابدّ أن تصبح أمة واحدة، وبطبيعة الحال، لابدَّ أن تصطبغ وحدتها بالصِّبغة الإسلامية، وهذا هو المعنى الديني الذي تحمله كلمة «الخلافة».

وهكذا فإن العدو الصهيوني، متعاوناً مع الكيد البريطاني، لم يقض على ظاهرة الوحدة العربية والإسلامية آنذاك حصراً، أي بحدِّ ذاتها فقط، بل قضى على شرايينها الدينية معها، كي لا تعود فتُستنبت من جديد!.. إذ كان يعلم أن دِعامة تلك الوحدة إنما هو الإسلام، عندما يكون فعالاً في نفوس أصحابه، بمقدار ما كان يعلم أن لا سبيل لوصوله إلى حقوقنا التي كان يخطِّطُ لاستلابها إلا بعد القضاء على هذه الوحدة التي لم يأت بها ولم يرسخها في حياتنا إلا الإسلام.

أفكانت تلك الوحدة إذن ـ وقد كانت مصدر قوتنا وتقدِّمنا ـ ثمرة الحياة العلمانية أم ثمرة الالتزام الصادق بالإسلام؟..

هذا شيء.. الشيء الثاني: أزيحت الخلافة الإسلامية التي كانت التعبير الإسلامي عن وحدة هذه الأمة، ورقص الغرب، ورقصت الصهيونية العالمية، ومن قرأ مذكرات حاييم وايزمن، رأى بل أحسَّ بالإيقاعات الراقصة في كلامه وهو يتحدث عن الأيام التي جاءت بعد أن زالت الخلافة الإسلامية من طريق الصهاينة إلى فلسطين.. ولكن بريطانيا نظرت.. فوجدت أن العالم العربي لا يزال يفيض بتقديس كبير للإسلام، ووجدت أن جذوة الإسلام لا تزال لها فاعليتها الكبرى بين الجوانح، وأنها تحنُّ حنين الثكلى إلى خلافتها التي انهارت. ونظرت فوجدت أن المؤسسات العلمية الإسلامية، كالأزهر وغيرها، لا تزال تفور بالتوجه والتوجيه الإسلامي. الأمر الذي نبَّه بريطانيا إلى أن خطر عودة الوحدة الإسلامية لا يزال جاثماً، وإن ولّت في الظاهر، ولكي تطمئن إلى أن هذه الوحدة التي ولّت، لن تعود، لابد من إطفاء جذوة الإسلام بين الجوانح، ولابد من أن تتحول المؤسسات الإسلامية العلمية، كالأزهر وغيره، إلى مؤسسات تقليدية، فأوحت بريطانيا لمصر (ومن قرأ كلمات اللورد لويد،

وكلمات اللورد كرومر في هذا الصدد، يعلم تفصيل ما أقوله لكم) أوحت بريطانيا عن طريق رسلها إلى القائمين بشأن الأزهر، بعد أن وظَّفت من شاءت أن توظِّفهم، وأبعدت من شاءت أن تبعدهم، أوحت إليهم أنه ليس بين الأمة العربية، التي تعيش عصر التخلُّف بسبب انهيار الخلافة العثمانية، وبين أن تنهض كنهضة أوربا، العلمية التقدمية، إلا شيء واحد، هو أن يطوَّر الإسلام في المجتمعات الإسلامية، كما طوِّرت المسيحية في المجتمعات الغربية، أي فلابد من ثورة إصلاح ديني هنا، كما قامت ثورة الإصلاح الديني هناك في الغرب، ولابدّ من أن يتجاوز المسلمون إيمانهم العتيق بالغيبيات.. وصدَّق من صدّق هذا الكلام، وسار من سار في طريق تنفيذ هذه الخطة، التي وضعها اللورد كرومر واللورد لويد في مصر أيام الاحتلال البريطاني لها(١).

لم تكتف بريطانية بهذه الخطة وحدها، إذ كانت على مستوى إقليم مصر وحده. بل مضت تفكر في ضمانة كبرى على مستوى العالم العربي والإسلامي أجمع، تقضي بها على احتمالات تخثر دم النزيف الإسلامي الذي بدأ مع انهيار الخلافة الإسلامية الجامعة، وتؤكد استمرار نزيفه إلى النهاية.. فأوحت إلى حزب تركيا الفتاة بإحياء القومية الطورانية، وإطلاق شعاراتها والنداء بها، رداً على مشروع الجامعة الإسلامية الذي كان يفكر فيه ويدعو إليه السلطان عبد الحميد، ثم إن بريطانيا التفتت إلى العالم العربي، وقد ظهرت بوادر ردود الفعل فيه، وسرت فيه مشاعر التململ والاستنكار لاعتزاز الأتراك من دون الإسلام بالقومية الطورانية، فأخذت بريطانيا تنفخ في ردود الفعل هذه، وتهيِّج مشاعر القومية العربية بالمقابل في أرجاء العالم العربي، وكان للورانس المقيم بين

---

(١) بوسعك أن تقف على تفاصيل هذه الخطة في كتاب ( Egypt Since Cromer مصر منذ كرومر) تأليف اللورد لويد. وأقرأ في هذا أيضاً مقدمة كتاب المستشرق البريطاني (جيب) whither Islam إلى أين يسير الإسلام.

ظهراني العرب آنذاك دور كبير في استثارة هذه المشاعر، وإحلالها محل شبكة المشاعر الإسلامية الموحدة والمهيمنة على سائر الشعوب الإسلامية آنذاك(١).

وتحقق لبريطانيا هذا الذي أرادته.. فاستيقظت مشاعر القوميات الكثيرة بعد يقظة القوميتّين: العربية والطورانية، لتقطع أوصال الوحدة الإسلامية التي كانت حتى بعد انهيار الخلافة ذات حيوية نابضة وفعالة في مشاعر كل المسلمين، ولتحل محلها القوميات المتصادمة، فالمتخاصمة.. فالمقطعة لرحم الإسلام بين المسلمين.

وسرت من ذلك طمأنينة في العالم الغربي كله إلى أن الوحدة الإسلامية التي انهارت وتفككت روابطها بين المسلمين، قد غابت إلى غير رجعة، وأن نزيف الدم الإسلامي باق ومستمر إلى النهاية!. ومن ثم فإن للطامعين في الحقوق أن يقبلوا فيتقاسموا الغنائم في طمأنينة وأمان.

هذا كله بالإضافة إلى معاهدة لوزان التي أعقبت انهيار الخلافة الإسلامية، وأعقبت الانتصار الذي صنعته بريطانيا لمصطفى كمال في حربه ضد اليونان.. كان ممثل تركيا في تلك المعاهدة مع بريطانيا عصمت إينينو، وكانت المعاهدة تنص على أن ورّاث الخلافة الإسلامية في تركيا عليهم أن يجتثوا جذور الإسلام من مجتمعاتها خلال مرحلة زمنية لا تزيد على ثلاثين عاماً.. وقد سعت الحكومة التركية برئاسة مصطفى كمال بكل ما تملك لإنجاز هذا الذي التزمت به. ولم يكن فرض القبّعة ومنع الأذان وتلاوة القرآن باللغة العربية، والقضاء على تعليم الدين بكل مستوياته، إلا سيراً حثيثاً إلى هذه الغاية التي ألزمت بها.

كل ذلك، من أجل أن لا يعود الإسلام فيجمع الشمل، ويعيد التضامن بأي

---

(١) إقرأ كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» للورانس. مبحث «الاتصال الأول بالعرب» ص ٢٩ فما بعد.

صيغة من صيغه الممكنة، وبذلك تضيع جهود الصهيونية العالمية وحليفتها بريطانيا سدى.

إذن فقد نجحت الخطة، وتقلصت فاعلية الإسلام في ضمائر المسلمين، وخبت الجذوة التي كانت تشتعل في أفئدتهم وقلوبهم، بعد أن تهاوى صرح الخلافة، وعندئذ اطمئن الغرب إلى أن الإسلام، كما يقول المستشرق البريطاني جيب، قد فقد فاعليته، ومن ثم فإن وحدة إسلامية لا يمكن أن تعود مرة ثانية، ومن ثم فبوسع الطامعين أن يقتسموا حظوظهم من العالم العربي والإسلامي كما يشاؤون، وبوسع الصهيونية العالمية أن تدخل هي الأخرى، فتضع يدها على ما كانت تحلم به، من حقوق ومقدسات لهذه الأمة، وهذا ما تم.

بالضرورة، عندما حلَّت التجزئة محل الوحدة، زالت القوة، التي كانت هي الحصن الوحيد لهذه الأمة، ومن ثم استطاع الطامعون أن ينالوا منها ما ابتغوا، وما كانوا يطمعون فيه. وهذا هو الذي يحصل دائماً، عندما تحل التجزئة محل الوحدة، ثم يحل الضعف محل القوة.. ثم إنها لابد أن تتراجع حضارياً أيضاً، ولابد أن تسقط في مهاوي التخلف، بكل أشكاله وأنواعه، وتلك هي الأودية التي تهاوت فيها أمتنا بالضبط.

واليوم إذا أردنا أن نبين، صورة موجزة للواقع، الذي تتحرك فيه أمتنا العربية والإسلامية، نستطيع أن نتبين أنها تتخبط في المواقع التالية:

**أولاً** استيقظت بالأمس على جراحها، وربما كانت في سكرة من هذه الجراح بالأمس، ثم إنها تنبهت إلى النزيف الذي يسري في كيانها، ثم إنها هبت لتصلح أو ترمم.. ولكنها إلى الآن لم تعثر على سبيلها الأوحد إلى الترميم، تحاول أن تسد الثغرات، وتقضي على البؤر، ولكنها لا تجد سبيلاً ناجعة إلى ذلك، كل السبل التي جربتها لم تنته منها إلا إلى إخفاق ذريع.

ولقد استقر على أعقاب هذه التجارب المخفقة، في ذهن سائر المثقفين على اختلاف رؤاهم ومذاهبهم، أن شيئاً من مشكلات هذه الأمة لن يُحل ما دامت مجزءة متدابرة، لابدّ أن تعود إلى سابق وحدتها أولاً، إذ هو الأساس والمنطلق لكل حل، ثم لابدّ لها من الاستقرار النفسي والاجتماعي.

**ثانياً**.. إننا لنعلم جميعاً أن أمتنا العربية والإسلامية، كانت ولا تزال غنية بالعباقرة والعلماء والمبدعين، ولقد كانوا ولا يزالون يتمتعون بقدرات وطموحات عالية.. ولكن أنى لهم أن يحققوا طموحاتهم فيرقوا بأمتهم صعداً في سلم الرقي الحضاري، إن لم يستقر بهم العيش في مناخ آمن مطمئن بعيد عن الاضطرابات والمعكرات؟!..

الاستقرار النفسي والاجتماعي هو رأس المال الأول للتوجه السليم إلى القوة وإلى الحضارة وإلى التقدم العلمي.

لاحظوا ما الذي يجري الآن.. هناك من يحاول أن يستثمر التجزؤ الذي فرض علينا، فيستولد منه أسباب الاضطرابات الدائمة ويبعد عنا فرص الاستقرار، ويحاول أن يزج فئات هذه الأمة وفلولها في خصام دائم، كي تفقدها القدرة على الطمأنينة والاستقرار، ولكي لا تمكنها من الفرصة السانحة التي تسمح لها بالرجوع إلى معالجة مشكلاتها والسير مع الآخرين في طريق التقدم العلمي والحضاري!..

هل تتصورون أن هذه الاضطرابات المختلفة التي تفور بها مجتمعاتنا عفوية غير مفتعلة؟!.. إنها مفتعلة ومطبوخة بأيدي أعداء الله، ومن ثم بأيدي أعدائنا، وهي الثمرة التي يجنيها اليوم أولئك الذين قضوا على وحدتنا الإسلامية بالأمس، ولا تنسوا أنهم لم يستطيعوا أن يقضوا عليها إلا بعد أن قضوا على العروق الإسلامية التي كانت ممتدة في داخلها، كما تمتد قضبان الحديد في بناء الإسمنت المسلح!..

أعود فأذكر بأن سائر مشكلاتنا الكثيرة والمتنوعة إنما تفرعت من أم المشكلات كلها، ألا وهي انهيار الوحدة الإسلامية!. فقد تبعتها مشكلة زوال الحق الفلسطيني وحقوق كثيرة أخرى، كما تبعتها مشكلة التخلف الحضاري التي جرَّت بدورها ذيولاً من المشكلات التي لا تحصى.

وقد علمنا مما ذكرناه آنفاً أن الوحدة التي كانت إلى آخر أيام ضعفها حصننا الأوحد ضد سائر المطامع، إنما كانت قائمة على دعائم الدين، الذي تستمد رسوخها من سلطانه وفعاليته في نفوس المسلمين، ولذا فقد عمد الذين خططوا لنسفها إلى تقطيع شرايين الدين عنها، وإلى إماتة جذوة الإسلام في نفوس المسلمين، كي لا يستبدّ بهم الحنين إليها. وهذا ما أوصى به علانية المستشرق الإنكليزي جب، في مقدمة كتابه: «Whithr Islam» وهذا ما تكلفت به المخططات التي ذكرتها والتي طبقت على عالمنا العربي والإسلامي أدق تطبيق.

والآن.. أفيعقل أن يكون حلّ هذه المشكلة الكبرى، التي تفرعت عنها مشكلات كثيرة شتى، متمثلاً في مزيد من الابتعاد عن الإسلام، واللجوء إلى العلمانية؟!.. بل من الذي يجهل أن الدعوة إلى هذا الحل، ليس إلا ترديداً لقول الشاعر: «فداوني بالتي كانت هي الداء».

ما من عاقل إلا ويعلم أن السعي إلى هذا الحل ترسيخ للمشكلات التي نعاني منها، وليس بحال من الأحوال علاجاً لها.

لقد عرفنا أن هذه المشكلات، لم تتسرب إلينا إلا بعد أن تقلصت فاعلية الإسلام من مجتمعاتنا، وإنها لحقيقة معروفة غدت من الوضوح بمكان. فمن الذي يصدق، (أكان ملتزماً بالإسلام أو غير ملتزم)، بأن الحل العلماني الممعن في البعد عن الإسلام، هو الذي يعيد هذه الأمة إلى سابق وحدتها، من الذي يصدق أن الحل العلماني، هو الذي ينقل هذه الأمة من أودية التخلف إلى صعيد

التقدم الحضاري، من الذي يصدق أن الداء قد أصبح هو الدواء؟ من الذي يصدق هذا الكلام؟!.. من الذي يصدق أن بريطانيا كانت متحرقة على تحقيق مصالحنا، يوم ألزمت تركيا في معاهدة لوزان بالالتزام بالمنهج العلماني بدلاً عن الإسلام؟

ثم إني أسأل: ما هو مشروع المنهج العلماني لإعادة وحدة هذه الأمة؟ ما المحور الذي ستضعه لإعادة الوحدة على أساسها؟!.. إذ من المعلوم أن الوحدة لا تتحقق إلا بعد وضع محور.. أرأيتم إلى الدائرة التي يحققها المهندسون، هل يمكن لخط هذه الدائرة أن يتكامل، إلا إذا وضع أحدهم يده قبل كل شيء على المحور؟!.. ضَعْ ضلع البيكار على المحور أولاً، ثم حرك الضلع الثاني منه، وإذا بالدائرة تحققت.. معنى ذلك أنه لا يمكن لهذه الأمة أن تجتمع إلا على محور جاذب، أين هو هذا المحور الجاذب؟.. إذا غاب المحور الفطري الذي جمع الله عليه أفراد هذه الأمة من قبل والذي ارتضاه الله لها، فأين هو المحور البديل؟.. إذا تقطَّع الحبل الذي قال عنه الله عز وجل: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣] والذي وحدنا بالأمس فعلاً، فما هي الحبال التي ستحل محلها؟.. المطلوب حبل واحد لا حبال متناقضة متصارعة.

إن المحاور الكثيرة تُفرِّق ولا تجمع، تشتت ولا تؤلف، ولقد حلت محلّ الحبل الواحد الذي أمرنا الله أن نعتصم جميعاً به، حبال من مذاهب وأفكار شتى، رسخت في حياتنا التجزؤ والتدابر، وزادت من ضماناته. وعادت الوحدة التي كنا نتمتع بها في ظل الإسلام أمنية تستعصي على التطبيق، ما دمنا شاردين عن ذلك الظل. ولقد خدعتنا بريطانيا يوم فعلت أفاعيلها للقضاء على الخلافة الإسلامية، إذ راحت تهمس في آذان السُذَّج والبسطاء من العرب، مطمئنة بأن عقد الخلافة سينتزع من جيد الأتراك ليُحلَّى به جيد الأمة العربية، فالوحدة الإسلامية لن تغيب من هناك إلا لتشرق هنا!..

هكذا كانت تضحك بريطانيا على العرب، وارجعوا إلى اعترافات لورانس بسخريته وخداعه للعرب في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة»[١].

كانت بريطانيا في الوقت الذي تخدع العرب بانتقال الخلافة (الوحدة الإسلامية إليهم، تلزم الأتراك بعد انهيار الخلافة، من خلال معاهدة لوزان، باتباع المنهج العلماني والتخلص من ضوابط الإسلام وسلطانه خلال مدة لا تزيد على ثلاثين عاماً!.. أي إن بريطانيا كانت أسبق في الدعوة إلى العلمانية، من السادة العرب الذين يدعون بإلحاح إليها اليوم.

لذا فإن هذا الحل مرفوض.. ليس مرفوضاً من قبل شخص أو أشخاص، وإنما هو مرفوض من قبل المنطق والعقل.. ومهما كان الإخوة الذين يتابعون هذا الطرح أعزة علينا، فإن المنطق أعز، وإن مقاييس العلم أسمى وأغلى من كل عزيز وصديق.

ماذا نتصور أن يقول لنا دعاة العلمانية بعد هذا؟.. يمكن أن يقولوا لنا الكلام التالي: إن الحكم الديني الذي يسير في المجتمع، تحت مظلة الوحي الإسلامي والديني، من شأنه أن يفرق بين المسلمين وغير المسلمين، ومن شأنه أن يثير الطائفية، وهذا من أخطر ما يمكن أن يتهدَّد الأمة في وحدتها!.. هذا ما يمكن أن يقوله بعض أصحاب هذا الطرح، وهي معزوفة معروفة، «شنشنة أعرفها من أخزم»، كما يقول المثل العربي.

أصحيح هذا الكلام أيها الإخوة؟

والله أنا مع الوحدة، وإذا تبين أن الدولة الإسلامية القائمة على النهج الإسلامي السليم، تفرق أفراد هذه الأمة، وتثير فيما بين فئاتها مشاعر العداء، بدلاً من مشاعر الحب، فأنا مع الوحدة وضد عوامل التفرق. لكن سلوا التاريخ،

---

(١) اقرأ المقدمة إلى الصفحة ٢٨، واقرأ مبحث «الاتصال الأول بالعرب»: ص٢٩ فما بعد.

هل كان هذا ما قد فعله الإسلام عندما كانت المجتمعات العربية خاضعة لسلطانه؟..

في أي عصر من العصور رأيتم أن الإسلام يتربص سوءاً بمواطنيه غير المسلمين؟

في أي عصر من عصور الإسلام رأيتم أن الإسلام أقام أخاديد الفرقة بين المسلمين وغير المسلمين؟

الذي أعرفه من واقع التاريخ الإسلامي، نقيض ذلك تماماً، تعالوا نفتح ملف موقف الإسلام من غير المسلمين في ظلِّ الدولة الإسلامية، كيف كان؟. هذه الفتوحات الإسلامية، التي انتشرت في الربع الأول من القرن الأول، في عمر الإسلام (طبعاً عمر الإسلام يبدأ من عصر سيدنا آدم، لكن تجديد الإسلام هو الذي تم ببعثة سيدنا رسول الله ﷺ) أقول: هذه الفتوحات التي تمت، كيف كانت علاقات المسلمين بغير المسلمين في ظلها؟

كان الإسلام أقوى عامل لترسيخ التلاقي والتعاون والترابط والتآلف، بين المسلمين والكتابيين ضد أي معنى من معاني التجزئة والشقاق.

تعلمون أن الفتح الإسلامي تم في عهد الخلافة الراشدة بالنسبة لبلاد الشام كلها.. فهل كان معنى ذلك أن الإسلام الذي انتشر في تلك البقاع، لاحق المسيحيين وغير المسيحيين من اليهود، وقضى عليهم؟!.. معاذ الله، إن الواقع نقيض ذلك تماماً، بقي عدد المسيحيين في بلاد الشام، التي كانت تستظل بظل الحكم الإسلامي، يناهز عدد المسلمين، إلى أن كانت الحروب الصليبية، كان المسيحيون خلال تلك القرون يعيشون حياة لم يجدوا أنفسهم أسعد منها في وقت من الأوقات، وعندما داهمتهم الحملات الصليبية، أرسل قادة الصليبيين إلى المسيحيين في بلاد الشام، يسألونهم عن قرارهم الذي اتخذوه: الوقوف مع بني دينهم القادمين أم مع بني قومهم المسلمين؟

فماذا كان جواب المسيحيين؟.. كان جوابهم: بل نقف إلى جانب أبناء قومنا!.. واتخذ المسيحيون مواقفهم في خندق واحد إلى جانب المسلمين في الدفاع عن القيم والأرض، والدفاع عن الجامع المشترك فيما بينهم، هكذا كان الإسلام في تعامله مع الكتابيين، ومن ثم فهكذا كان المسيحيون في تعاملهم مع الإسلام والمسلمين. وهكذا كان نسيج الوحدة بينهما في ظل الحكم الإسلامي.

وأنا أنقل هذا الكلام من مصادر تاريخية كثيرة معروفة، ولكن يطيب لي أن لا أنقله إلا عن فكتور سحاب، من كتابه (من يحمي المسيحيين العرب).

ترى من أين جاء إذن هذا الخيال الوهمي المختلق؟!.. وأين مصداقه في التاريخ الإسلامي كله؟.. خيال أن الحكم الإسلامي من شأنه أن يثير المشكلات الطائفية بين المسلمين وغيرهم؟!..

ما قام شيء كهذا لا في عهد رسول الله ﷺ ولا في عهد الخلفاء الراشدين، ولا ظهر أثر له في مصر، بعد الفتح. وكيف يظهر شيء من ذلك وقد أوصى رسول الله ﷺ بالأقباط خيراً، وما ظهر في بلاد العراق وبلاد الرافدين، وما ظهر شيء منه في بلاد الشام، ولم يعرف شيء من ذلك في الدولة الإسلامية في الأندلس.

أروني صورة واحدة لحكم إسلامي صحيح قامت في ظله علاقات سيئة سلبية بين المسلمين وغيرهم من الكتابيين.

إذن هذا التخوف الوهمي المختلق غير وارد، وكيف يكون وارداً والتعاليم الإسلامية تقول على لسان أبي بكر وعمر: «ألا لا يفتننَّ نصراني عن نصرانيته ولا يهودي عن يهوديته».

كان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب غلام يخدمه، وكان نصرانياً، وكانت العلاقة بينه وبين هذا الغلام على أفضل ما ينبغي أن تكون العلاقة، ولا تنسوا أن عمر كان يمثل القرار الإسلامي في حق نفسه، وفي حق المسلمين كلهم آنذاك.

ما الذي بقي بعد هذا؟..

بقي أن أقول: إنني عندما أناقش هذه الأطروحة، لا أحب أن أناقشها بشعور عصبي، ولا بخلفيات متحيزة، لذا فإني أحب أيضاً للذين يدافعون عن هذه الأطروحة، أن لا ينطلقوا في دفاعهم عنها من عصبية، ولا من خلفيات متحيِّزة، وأعتقد أننا إذا التزمنا جميعاً بهذا واتفقنا على أن يكون الجامع المشترك بيننا هو المنطق، والواقع التاريخي، فلا مناص من أن ننتهي إلى هذا القرار الذي انتهينا إليه.

وأخيراً لابد أن نختم نقاشنا هذا بالتذكير بالأمر التالي:

قلت لكم من قبل، وأعود فأقول الآن: هل الإسلام شيء صنعناه نحن أم هو حقيقة خارجة عن سلطان الإنسان، لا قبل لنا بجلبها إلينا ولا بدفعها عنا؟.. إن كان الإسلام فيما انتهت إليه دراستنا العلمية والموضوعية، شيئاً نحن صنعناه، أي صنعته أجيال الناس من قبل، فأنا أغمض العين، وأتجاوز الإسلام كله؛ لأننا أبناءُ هذا العصر، ولأننا لا نريد أن نكون تبعاً لآباء وأجداد، عاشوا في عصور أخرى، وفي ظروف أخرى.

ولكن إذا كنا قد انتهينا من دراستنا للإسلام - وقد درسناه آنفاً - إلى أنه حقيقة كونية خارجة عن صنعنا، خارجة عن ذاتنا وإلى أنه ثمرة وجود الخالق، والخالق موجود، والصانع موجود، وإلى أنه شاء أن يخاطب عباده من خلاله قائلاً: أريد أن أعلمكم قصة وجودكم فوق هذه الأرض، والنهاية التي أنتم سائرون إليها.. أريد أن أعلمكم علاقتكم بهذا الكون، الذي سخرته لكم ولمصالحكم.. أريد أن أعلمكم بالمنهج الأمثل الذي يحقق لكم ذلك كله وينظّم علاقات ما بينكم، أفراداً وجماعات وشعوباً، والذي يضمن لكم سعادة العاجلة والعقبى. لقد رضيت لكم هذا المنهج، فلتسيروا عليه، وإلا عرضتم أنفسكم للشقاء في عاجل أمركم وآجله.

إذا ثبت أن الإسلام هو هذه الحقيقة الكونية الكبرى، فهل بوسعنا علمياً، أن نتجاهلها؟.. وما الحجة التي نعتمد عليها في ذلك؟!.. وكيف نوفق بين ذلك وبين دعوى أننا علمانيون؟!..

إن إعراضنا عن الإسلام الذي لم نصنعه نحن، وإنما هو خطاب الخالق الذي ثبت وجوده وثبت أنه حقيقة الحقائق الكونية، يساوي إعراضنا عن حقيقة هذه الأرض وقوانينها.. يساوي إعراضنا عن قانون الجاذبية.. يساوي إعراضنا عن حقيقة هذه الشمس التي تضيء عالمنا، وتؤدي وظيفتها في خدمتنا، يساوي إعراضنا عن القوانين الفيزيائية، في عالم البحار، وفي عالم الهواء، وفي عالم الكهرباء، لأن هذا الدين حقيقة من هذه الحقائق الكونية ذاتها ما دمنا لسنا نحن الذين صنعناه وأبدعناه. فليقل لي دعاة العلمانية كيف، وبأي منطق أتجاوز حقيقة كونية قائمة وأتجاهلها باسم العلم ذاته؟!..

ثم إني أقول لهؤلاء الناس (وأنا الفرد المتكرر، في هذا المجتمع المسلم) اضمنوا لي إذا رحلت عن هذه الدنيا، أن لا أقع بين براثن الشقاء من جراء تجاهلي لهذه الحقيقة القائمة، وأنا معكم في كل ما تقولون، حتى لو شقيت في هذه الحياة القصيرة.

هل تستطيعون أن تسيروا معي إلى الحياة البرزخية، التي أنا على ميعاد معها، ربما بعد أيام، ربما بعد سنوات، وأن تكونوا معي وعوناً لي، فتحجزوا عني وعيد الله سبحانه وتعالى الذي أسمعه من كتاب الله كل يوم؟..

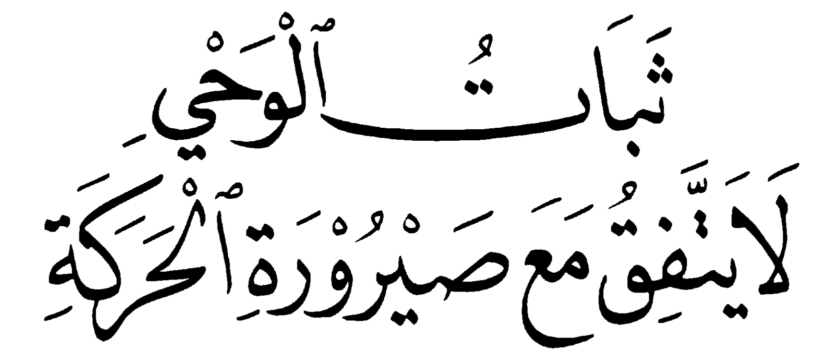
هل تستطيعون أن تضمنوا لي، إذا قام الناس لرب العالمين، ووقفوا بين يدي الله عز وجل، وسألهم: لماذا تنكرتم لحقيقة لم يتأت لعقولكم إنكارها؟ هل يضمن دعاة العلمانية أن يحصنوني ضد مقت الله آنذاك؟..

أنا أعتقد، ولعلكم جميعاً تعتقدون، أنهم لا يملكون أي ضمانة لذلك.. فإذا

كان الأمر كذلك، فتعالوا نخضع لديَّان السماوات والأرض، تعالوا نصغ إلى وصايا الله وتعليماته، تعالوا نحاول أن نجتث مشكلات عالمنا اليوم، بالرجوع إلى ما كان عليه العالم الإسلامي بالأمس حينما حلَّ له الإسلام ما هو أعتى من هذه المشكلات. أقول قولي هذا، وموعدنا معكم في الحلقة الآتية، في موضوع آخر، مما تجري فيه المغالطات.



يُغَالِطُونَكَ إِذْ يَقُولُونَ :



دعونا نبدأ مناقشة مقولة جديدة، يرددها ويثيرها بعض المتفلسفين الذين يضيقون ذرعاً بالإسلام، وبشرائعه، يقولون: إن الوحي ثابت، وثباته لا يتفق مع صيرورة الحركة الكونية. إذاً فالشريعة الإسلامية لا يمكن أن تساير طبيعة هذا الكون الذي نعيش فيه.

تلك هي المقولة، التي يرددها طائفة من الناس، يعبرون بها عن شكوكهم في صلاحية الإسلام، لمتابعة حركة الكون وتطوره.

فما معنى الصيرورة؟.. وما معنى ثبات الوحي؟.. وما هي المشكلة الكامنة في هذا الأمر؟.. وما هو مستوى هذه المقولة من العلم وموازينه؟.. أهي مقولة علمية صحيحة، كما تبدو من صياغتها، أم فيها قدر كبير من المغالطة؟.. هذا ما سيتبين لنا ـ إن شاء الله تعالى ـ من خلال النقاش الذي نأخذ أنفسنا به طبق المنهج العلمي الذي يجب أن نسير عليه.

مصطلح الصيرورة يعني أن أشياء الطبيعة كلها، تؤول دائماً من حال إلى حال، ولا تستقر عند وضع معين بشكل من الأشكال، فكل ما يمكن أن تراه أعيننا، دقَّ وصغُر، أو كبر وعظم، يتحركُ دائماً، ومن ثَمَّ يتغير دائماً..

نسيج هذا الجسم المؤلف من خلايا ـ كما تعرفون ـ يتبدل دائماً، تذهب طائفة من هذه الخلايا، لتحِلَّ محلها طائفة أخرى، ومن ثم فالحركة دائمة، وجسم الإنسان اليوم غير جسمه بعد حين من الزمن، التراب الذي تراه أعيننا في تبدل وتطور دائمين، كثيرة هي أنواع التراب التي تتحجر، ثم تتكدَّن، وبعد حين تترخَّم، وبعد حين تتحول إلى حال أخرى، النباتات، الأشجار، الأتربة،

الإنسان، جسم الإنسان، كل الخلايا، كل هذه الأشياء، تراها أعيننا وكأنها جامدة ثابتة، ولكنها في الواقع تتطور بدافع داخلي يكمن في ذات المادة، كما يقول العلماء.

وهذه في الواقع حقيقة علمية قالها قدماء الفلاسفة من أمثال: هيروقليط، الذي كان يعيش قبل الميلاد بستة قرون، كان يعبر عن هذا القانون العلمي قائلاً: نحن لا نستحم في النهر الواحد مرتين، بل إن مياهاً جديدة تجري من حولنا دائماً. لأننا في كل لحظة نستقبل موجة جديدة من الماء، فأمور الكون كلها هكذا.

إذاً فقد أدركنا معنى كلمة الصيرورة أو السيرورة. معناها أن أشياء الكون المادية، وإن رأتها أعيننا ثابتةً جامدةً، فإنها في واقع الأمر تتحرك دائماً.. ولو نظرنا إليها من خلال المجاهر المكبرة، لرأينا كيف أن هذه الإلكترونات لا تفتر عن الحركة الدائبة، والحركة تبعث على التغير، إذن فهي تظل تتغير من حال إلى آخر.

ما المشكلة إذن؟..

المشكلة التي يطرحها هؤلاء الناس هي: أن الوحي الإلهي إنما تنزل من أجل التعامل مع هذه المكونات، بواسطة ما جاءنا به من شرائع وقوانين وأحكام ثابتة، في حين أن هذه المُكَوَّنات التي يراد منا إخضاعها لتعاليم هذا الوحي الثابت، متطورة متبدلة، تتحول دائماً من وضع إلى وضع آخر.. فهي في صيرورة أو سيرورة دائمة. إذاً فهذه الشريعة الثابتة لا تتفق مع هذا الكون المتحرك والمتطور دائماً من حال إلى حال، ذلك لأن الثابت لا يمكن أن ينسجم مع المتطور.

أعتقد أنني بهذا الذي أوضحته، أبرزت المعنى الذي يريده هؤلاء الإخوة، بمقولتهم التي يطرحونها، وأعتقد أن أياً منهم لو أراد أن يوضحها ويقربها إلى الأذهان، لن يستطيع أن يقربها بأكثر من الألفاظ التي ذكرتها الآن.

والنتيجة التي يهدف هؤلاء المستشكلون الوصول إليها، هي أن الشريعة الإسلامية، التي لها من العمر ما يزيد على أربعة عشر قرناً، ثابتةٌ جامدةٌ على حال واحدة، فهي لا تتناسق ولا تنسجم مع هذا الكون الذي يظل متقلباً، ويظل متطوراً من حال إلى حال.

والآن، حان أن نتساءل: أهذه المقولة صحيحة علمياً أم أنها تنطوي على أخطاء ومغالطات؟

هذا ما سيكشف عنه البحث العلمي الموضوعي.

أولاً، وقبل كل شيء، تعالوا نعمِّق معنى كلمة الصيرورة، فيما يقصد إليه الفلاسفة القدماء، وفيما يقصد إليه العلماء في هذا العصر أيضاً. كلمة الصيرورة هذه، إنما يتحدث بها الفلاسفة والعلماء عن المادة، لا عن الأنظمة الكونية.

مادة الكون: ترابه، حجارته، الماء، الهواء، نسيج الجسم الذي يتألف من الخلايا، هي التي فعلاً تخضع لمقولة الصيرورة والتطور..

غير أن مادة الكون شيء، والنظام الكوني شيء آخر، صحيح أن مادة الكون متحركة متغيرة، ولكن النظام الكوني في مجموعه الكلي ثابت.

وما هو نظام الكون؟

هو: تَقَلُّبُ، أو انقسامُ الوحدة الزمنية إلى سنوات، وانقسام السنة إلى أشهر، وانقسام الشهر إلى أيام وليال.. وحركةُ الأفلاك.. دورانُ الأرض.. هذا الدوران الذي ينبثق عنه انقسامُ الزمن إلى نهار مضيء وليل مظلم.. النظام القائم ما بين قطر السماء الذي يهمي مطراً، وبين تفاعل التربة مع الماء.. القوانينُ الفيزيائيةُ على اختلافها.. علاقةُ الإنسان بالكون الذي من حوله.. تعامل الإنسان مع الهواء عن طريق الشهيق والزفير.. تعامل الإنسان مع الطعام الذي يحتاج إليه، أنواع الأطعمة التي تفيده، والتي تضره.. انقسام الأزمنة إلى صَيف وشتاء

وربيع وخريف.. العلاقةُ الساريةُ ما بين جسم الإنسان وصيف الأزمان، والعلاقة السارية ما بين جسم الإنسان والشتاء، والعلاقةُ الساريةُ ما بين جسم الإنسان والربيع.. نباتاتُ الأرض وما فيها من خصائص.. مصادر الأمراض وأسبابُها.. العافيةُ ومُقَوِّماتها.. العلاقات التي تحكم صلة ما بين الإنسان وأخيه الإنسان.. العدالةُ وموازينُها.. الظلمُ وآثارهُ وأضرارهُ إلخ...

هذه الأنظمة شيءٌ، والمادة الكونية شيء آخر، الصيرورة إنما تتحكم في مادة الكون: ذرات التراب، ذرات الحجارة، الماء، النبات، إلخ.. أما الأنظمة الساريةُ بين الأشياء بعضها مع بعض، والتي ضربت المثل الآن ببعضها فمن هو الذي قال إنها تبدلت في يوم من الأيام؟.. هل تبدل نظام الشمس التي تشرق على الأرض طبق قانون معين؟ هل تبدلت حركة الأرض ودورانها؟ هل تبدل قانون الجاذبية الذي به تنسجم حركة الإنسان فوق الأرض؟ هل تبدل نظام الغلاف الجوي وما فيه من غازات تعين الإنسان على استمرار الحياة؟ هل تبدل النظام الذي يملأ جو السماء من وراء الغلاف الجوي؟ هل تبدل قانون التفاعل بين قطر السماء ونبات الأرض؟ هل تبدل شيء من النظام الذي يتعلق بالسحب، إذ تعلو الأبخرة من البحار، فَتَتَعقَّدُ، فتتحول إلى سحب، فتهبط السُّحُبُ إلى مستوى معين، فتنتضم إليها رطوبة معينةٌ، فتصبح أمطاراً تهمي، هل تغير شيء من هذا؟

هل امتد قانون الصيرورة إلى شيء من هذا؟

الجواب بيِّنٌ مشاهد ومعروف، وقد قرأنا في الجواب عن هذا قول الله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، إذا عرفنا هذا فلتعُد إلى الوَحْي الذي تَضمَّنَ التشريع الإسلامي الذي خاطبنا به الله عز وجل. أفيتعلق هذا التشريع بمادة الكون، أم بنظامه؟

فكروا أيها الإخوة وأجيبوني، إن هذا التشريع الآمر الناهي، الضابط المُنَظِّمُ، الذي يخاطب الله به عباده، لا يتعلق شيء منه بتراب الأرض أو هوائها ولا بحجارتها ونباتها، ولا بالنواة التي تكون في باطن الأرض ثم تتفجر نباتاً على ظاهرها، وإنما يرسم النظام الذي ينبغي أن تنهض عليه علاقة الإنسان بالإنسان، من حيث ضرورة التزام الأسرة الإنسانية بقانون العدالة التي تحتاج إليها في كل عصر وزمان ومكان، الشريعة الإسلامية جاءت بالقوانين التي تنظم علاقة الإنسان بذخر الأرض الداخلية، وخيراتها النابعة من ظاهرها. الشريعة الإسلامية جاءت لتنظيم علاقة الإنسان مع النظام الكوني الثابت، لا مع مادته المتحركة المتغيرة.

ولابدّ هنا أن نلفت النظر إلى أن في عالمنا الذي نعيش فيه نظامين اثنين: نظاماً تكوينياً ونظاماً تشريعياً، وإنه لمهم جداً أن نعلم الفرق بينهما.

النظام التكويني: هو هذا النظام الذي حدثتكم عنه، نظام الأفلاك، نظام دوران الأرض، جاذبية الأرض، الغلاف الجوي، الفطرة التي فطر الله عز وجل الإنسان عليها، حاجات الإنسان المتنوعة: حاجته إلى الرقاد، إلى اليقظة، إلى الطعام، إلى الشراب، إلى مقومات العافية، إلى تجنب أسباب الأمراض، طبيعته مع إخوانه وجيرانه في حالات الود، وفي حالات العداوة. إلخ.. فهذا هو الذي يسمى بالنظام التكويني. وهي التي يسميها البيان القرآني: السنن.

أما النظام التشريعي: فهو تلك التعليمات التي جاءت غطاء لهذا النظام الكوني وتنسيقاً للعلاقة معه. يقول لي الله سبحانه وتعالى: أرأيت إلى هذا النظام الكوني، تعامل مع الكون بالنهج الذي سأحدثك عنه، وأعلمك إيّاه.

وإذا تأملت في الأحكام الشرعية على اختلافها وتنوعها، فستجدها قائمة على هدف واحد لا تتعداه، هو أن يتعامل الإنسان مع النظام التكويني الثابت

والصارم، بطريقة تسعده ولا تشقيه، بطريقة تعينه على أداء المهمة التي وكلت إليه في عمارة المجتمع الإنساني مادياً ومعنوياً على النحو الأمثل.

ربما قال أصحاب هذه الشبهة: بل إن ظروفاً طارئة قد تعرض، فتدعو إلى تطوير النظام الكوني ذاته، ومن ثم فإن ذلك يستدعي تطور ما يقابله من النظام التشريعي، وهذا ما لا يساعد عليه التشريع الإسلامي. وربما ضربوا الأمثلة على هذا بالنظام الاقتصادي، وقانون العقوبات... الخ.

فما الجواب؟.!!

قبل أن أوضح الجواب، ينبغي أن ألفت النظر إلى مشكلة لابدّ أن نتبينها دائماً، لاسيما عندما ندخل في ساحة النقاش مع إخوة لنا حول أي مسألة من المسائل.

هذه المشكلة هي أن كثيراً من الذين يتناقشون ويتجادلون.. لا ينتبهون إلى شرط أساسي في منهج البحث والنقاش، ألا وهو ضرورةُ تَحرير مَحلِّ البحث، وبتعبير آخر: ضرورة تحرير محل النزاع.

إننا إذا لم نتفق في نقاشنا على نقطة معينة، يلتقي عليها الطرفان، فالنقاش لا يمكن أن ينتهي إلى وفاق أبداً، ولأضرب على ذلك مثلاً: إذا تناقش طرفان في الأرض وطبيعتها، وما يمكن أن يستنبت منها. وكان أحد الطرفين يتخيل في ذهنه أرضاً طينية معطاءة، قابلة للنبات، والآخر يتخيل أرضاً جيرية، أو رملية لا تصلح لشيء من الاستنبات، تصوروا لو أن هذين الطرفين تناقشا وطال بهما النقاش حول مدى صلاحية الأرض للزراعة والاستنبات مدّة طويلة من الزمن، فإنه لا يمكن أن ينتهي نقاشهما إلى وفاق أبداً، لأن نقاشهما أشبه ما يكون بخطين متوازيين، والخطان المتوازيان لا يلتقيان، مهما طال الزمن.

مثال آخر: اثنان يتناقشان في أمر ضابط كبير، ذي رتبة عالية، وذي اختصاص فريد، أحدهما يعرف هويته، ويعرف اختصاصاته، والآخر لا يعرفه، بل يظن أنه جندي، نظراً إلى أنه رآه في ثياب العمل، وطال بهما النقاش في أمر هذا الإنسان، هل يمكن أن ينتهي بهما النقاش إلى وفاق في شأنه؟.. لا يمكن.. لماذا؟ لأن محل البحث لم يتحرر بعد. إذن فمن الشروط الأساسية للنقاش في مسألة ما أن نحرر محل البحث.

فإذا كان الإسلام، الذي سأتحدث عنه الآن، في يقيني وقناعتي وإدراكي العلميِّ، ذلك الوحي المنزل إلى الناس من لدن رب العالمين، خالق هذا الكون، خالق هذا النظام الكوني، خالق الصيرورة في أشياء المادة والطبيعة، وكان الإسلام لدى الطرف الآخر، هو عبارة عن مجموعة نظم وقوانين وتشريعات اخترعها إنسان مثلنا في عهد من العهود، أو اخترعتها مجموعة من الناس في عصر من العصور، ولم تتنزَّل من عند الله، ولا جاءت وحياً من لدنه، بل لعله لا يؤمن بوجود هذا الإله الذي من شأنه أن يوحي وأن يعلم عباده، فما جدوى النقاش عندئذ في موضوع كل من المتناقشين يدركه على نحو يناقض إدراك الآخر؟!.. وما الداعي إلى أن نضيع الوقت في هذا الجدل؟

بل أنا أقول للإنسان الذي يناقش من يتحدث عن الإسلام، والإسلام عنده عبارة عن مجموعة مواضعات فكرية إنسانية، أي: مجموعة قوانين وضعية كهذه القوانين المختلفة، أقول للمسلم الذي يناقشه: لا تناقشه، بل قل له: أنا متفق معك فيما تريد أن تقول لي، بالنسبة للإسلام الذي في ذهنك، ولكن معذرةً، فإن الإسلام الذي هو في ذهني، غير هذا الإسلام الذي تتحدث عنه أنت، وإذا أردت أن نُمَحِّصَ هذا الموضوع، فينبغي أن نرجع القهقرى، فنتناقش في جوهر الإسلام بادئ ذي بدء، ما هو هذا الإسلام؟ الذي نريد أن نتناقش في صلاحيته أو عدم صلاحيته؟.

هذه النقطة مهمة جداً ومع ذلك فهي تغيب حتى عن بال كثير ممن يدرسون الفلسفة ويتعاملون مع نظرياتها ومصطلحاتها.

ولكي نراعي هذه الشروط ونحرر محل البحث والنزاع، مع الإخوة الذين يطرحون حديث الصيرورة هذا ويزعمون تناقضه مع التشريع، ينبغي أن نبدأ فنسأل أحدهم: ما هو الإسلام الذي تحدثني عنه في ذهنك؟ إن كان الإسلام الذي في ذهنك اختراعاً اخترعه محمد بن عبد الله، أو اخترعه الفقهاء من عندهم، كما يقول شاخت مثلاً، فأنا أقول لك سلفاً: مقولتك صحيحة بالنسبة لهذا الإسلام الذي في ذهنك. غير أن الإسلام الذي أحدثك عنه ليس هذا الذي في ذهنك.. الإسلام الذي أنا مؤمن به، ومقتنع به، بناء على دلائل علمية قاطعة، عبارة عن وحي ربَّانيّ، تنزَّل على قلب محمد بن عبد الله، عن طريق ملك اسمه جبريل، هذا الوحي يحوي قواعد اعتقادية أولاً، تتضمن التعريف بهذا الكون وقصة وجوده، ثم إنه يتضمن بعد ذلك أحكاماً تشريعية، تتعلق بسلوك الإنسان مع نفسه وربِّه، وتتعلق بسلوك الإنسان مع بني جنسه، مع إخوانه، وتتعلق ببنية النظام الاجتماعي كله، هذا الإسلام الذي يمكن أن أناقشك بشأنه، وما يتعلق بانسجامه أو عدم انسجامه مع الصيرورة، ليس إسلاماً اخترعه زيد من الناس، في عصر من العصور، وإنما هو شِرعةُ من خَلَقَ الإنسان، لك أن توقن بهذا، ولك أن لا توقن. لكن لا تناقشني في إسلامي الذي أؤمن به، من منطلق إسلامك الذي أنت وحدك تؤمن به، لأن هذه الطريقة في المناقشة ليست طريقة علمية، المنهج العلمي يشمئز من هذا الطريق، وينأى عنه بكل معنى الكلمة.

فإذا قال لنا هذا الأخ الذي يضعنا أمام مشكلة الصيرورة وعلاقتها بثبات الوحي: بل أنا أؤمن بأن الإسلام شرعةٌ منزلةٌ من عند الله، وأؤمن بأنه وحي آت

من عند الله عز وجل نقول: أأنت موقن بيقينك هذا؟.. أحقاً أنت موقن بأن الإسلام وحي نازل من عند خالق هذا الكون، خالق نظام الصيرورة في مادة المكوَّنات، وخالق الأنظمة الكونية في علاقة ما بين الناس والمكوَّنات، وعلاقة المكونات بعضها مع بعض؟

إن كنت فعلاً توقن بأن هذا هو الإسلام. فدعني أقل لك إذاً: إن الإله الذي تؤمن به، لا يمكن أن يكون إلا حكيماً، ولا يمكن إلا أن يكون عليماً، ومن ثَمَّ فلا يمكن إلا أن يكون تشريعه الذي يخاطبنا به، منسجماً مع الأنظمة الكونية كلها التي جاء التشريع الإسلامي ثوباً سابغاً لها، ينبغي أن تعلم هذه الحقيقة، لا تقس شرع الله الذي يعلم السر وأخفى، والذي يستوي في علمه الماضي والحاضر والمستقبل كله، على شرائع الناس المحصورة في رؤى زمانية قصيرة ضيقة. ذلك لأن الله يعلم كيف ستتطور الكائنات، وكيف سيتطور حال الإنسان، ويعلم الأنظمة الثابتة التي لا تتبدل مع الزمن، والتي تخضع للتبدل والتطور، ومن ثم فهو يعلم مصالح الإنسان والسبيل إلى بلوغها. ولذا فإن في شرائعه ما هو ثابت لا يتبدل، وفيه ما هو مرن خاضع للتطور والتبدل. وإنما أساس ذلك كله المصالح الحقيقية للإنسان، والتي لابدّ أن تكون منسجمة مع سنن الكون وأنظمته.

هذا إن كنت تؤمن حقاً بأن الإسلام حكم الله وقانونه، أما إن كنت تصانع وتجامل في هذا، فلسوف تلجأ إلى منطق المشاكسة والاضطراب بين الأصول الاعتقادية ونتائجها التطبيقية والسلوكية. والعلماء أبعد ما يكونون عن هذه الاضطرابات التائهة.

إذن، فإن كان أصحاب هذا الاستشكال ممن يؤمنون معنا بأن الإسلام الذي نتحدث عنه، هو ذاك الذي خاطب الله عز وجل به عباده قائلاً: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ

لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣]، فإن الخلاف يذوب بتسليم الأمر لعلام الغيوب جل جلاله مع اليقين ببالغ رحمته وحكمته، وأما إن كانوا ممن يصرُّ على أن الإسلام إنما هو صياغة إنسان من البشر، وأن شرائع الله إنما هي اختراعات الفقهاء، فالواقع أنهم منسجمون مع أنفسهم في تصوير هذا الإشكال، لكنهم ليسوا منسجمين معنا نحن، لأن الإسلام الذي نتحدث عنه غير الإسلام الذي في أذهانهم، ومن ثم لابد أن نجتمع على كلمة سواء في فهم حقيقة الإسلام أولاً.

فإذا قال لنا قائل بل: نحن متفقون معكم في أن الإسلام شرعة نازلة من عند الله، لكن الإشكال يظل قائماً، إذ لابد للتشريع أن يكون منسجماً مع نظام المكونات، ونظام المكونات فيه ما هو خاضع للصيرورة، فما الجواب؟

أقول في الجواب: عندما يكون صاحب النظام بشراً مثلي، أو مثل أي واحد من الناس، فإن قانونه لا يمكن أن يصلح إلا لعشر سنوات، أو عشرين، أو مائة سنة، ولابد أن يتقادم ومن ثم يحتاج إلى تغيير.

لكن عندما يكون واضع هذا النظام خالق هذا الكون، الذي يعلم بتطورات المصالح، والذي يعلم بحركة الإنسان وتطوره من حال إلى حال، إذن لابدّ أن نعلم بموجب إيماننا بأن المشرِّع إله، عالم وحكيم، وأن هذا التشريع المنزَّل من عنده، متفق مع مصالح الإنسان الثابتة والمتطورة ومنسجم مع الأنظمة الكونية التي من حوله.

من المعلوم أن في حياتنا التي نعيشها مع المكونات، أنظمة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، وفيها متحركات متغيرات مع الظروف وتبدل الأحوال.

وإذا تأملت، وجدت الشريعة الإسلامية ثابتة بالنسبة للأنظمة الثابتة، ومتطورة بالنسبة للأنظمة المتطورة، ولو فتحنا ملف الحديث عن هاتين الفئتين

من أحكام الشريعة الإسلامية لنبرز البرهان الساطع على هذه الحقيقة لضاق بنا الوقت عن ذلك، ولخرجنا عما نحن بصدده.

لكن أعود بكم إلى التاريخ، تاريخ المجتمعات الإنسانية التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية كما يجب أن تُطبَّق متسائلاً، عن مدى مواكبة تلك الأحكام لمصالح الناس، وعن مدى فتحها لآفاق التطور في حياتهم؟

أكتفي بأن أضعكم أمام نموذج يتمثل في ثلاثة قرون هي القرون التي تلت بعثة سيدنا محمد ﷺ أفكان الإسلام الذي طبقه الصحابة، ثم التابعون، ثم من بعدهم، ثم من بعدهم، كأدق ما يكون التطبيق، غلاً صفّدهم وحبسهم عن التطور والتقدم، بينما أندادهم من الناس يتطورون ويتبدّلون؟ الواقع الذي شهد به التاريخ عكس ذلك تماماً. بل إن التطور الذي تطوره المسلمون في هذه العصور الثلاثة في شتى أمور الحياة الدنيوية، أكثر من التطور الذي تطوره الناس من القرن الرابع إلى يومنا هذا، وإنكم لتعلمون أن أفضل القرون التي كان الإسلام يهيمن فيها على المجتمعات، هي هذه القرون الثلاثة...

لاحظوا كيف كانت حياة المسلمين في مكة فيما يتعلق بملابسهم، بمسكنهم، بأطعمتهم، علاقة ما بينهم، تجارتهم، ثم كيف تطورت تطوراً سريعاً عندما هاجروا إلى المدينة المنورة، لاحظوا كيف تطور نظام الألبسة والأطعمة، والأشربة، والبيوت، ثم انظروا كيف ازدادت حياتهم تطوراً بعد وفاة الرسول ﷺ.

وفي عصر الخلافة الراشدة لاحظوا كيف انتشرت الصناعات ولم تكن موجودة، تنوعت التجارة وكانت التجارة محدودة بقافلة تجارية واحدة في كل صيف وشتاء، تطورت الصناعات تطوراً كبيراً، تطورت الأبنية، تطورت العلاقات الاجتماعية، تجلت مظاهر التمتع بالمال والغنى، ظهرت الكؤوس الزجاجية وأتقن العرب صناعتها في حياة الناس، بعد أن لم يكونوا يعرفونها،

انتشرت فيما بينهم صناعة الأواني المتنوعة التي تعبر عن حضارة باذخة.

تم كله ذا دون أن يحتاجوا إلى تطوير شيء من أحكام دينهم!!.

وحسبكم أن تعلموا أننا لو اتبعنا التطور السريع الذي تطوره المسلمين بدءاً من بعثة رسول الله ﷺ إلى أوائل القرن الخامس، فلسوف نجد أن المسلمين تطوروا تحت مظلة الحكم الإسلامي الثابت والشريعة الإسلامية الراسخة في تلك الحقبة أكثر مما تطوره المسلمون بعدها إلى يومنا هذا. بل ليت أن المسلمين اليوم، وهم بعيدون عن إسلامهم، يتطورون معشار لك التطور الصالح الذي تطوره السلف تحت مظلة الإسلام وحكمه[١].

إذن هذه المشكلة غير قائمة، ودليلنا على ذلك التجربة والمشاهدة كما رأينا .

ودعوني ألفت نظركم إلى دستور هذه الظاهرة في الإسلام. إن من شأن الإسلام أنه يبعث على التطور، دون أن يتطور هو بحدِّ ذاته، أي: بمقدار ما يكون المسلمون أمناء على مبادئ الإسلام وأحكامه، لا يعبثون بها ولا يغيرون منها، فإنه يدفع بهم إلى مراقي التقدم والتطور، وبمقدار ما يتلاعبون به ويبدلون ويغيرون من شرائعه وأحكامه، تنبعث فيهم عوامل التخلُّف والركود!..

ألا فليعلم الناس كلهم هذه الحقيقة التي تكفَّل لهم بها الله عز وجل، وهي:

أن تلاعب المسلمين بالإسلام هو الذي يبعث على الركود ويصُدُّ عن التطور، والمحافظة على مبادئه وأحكامه هو الذي يبعث فيهم عوامل التقدم والتطور.

وآية ذلك أن المسلمين في القرن الأول، عندما تطوروا هذا التطور السريع، لم يغيِّروا شيئاً من أحكام الله في قرآنه، ولا شيئاً من أحكام الله سبحانه وتعالى

---

(١) للوقوف على تفصيل التطورات الحضارية السريعة في صدر الإسلام وبفضله؛ ارجع إلى كتاب «التراتيب الإدارية» للشيخ عبد الحي الكتاني الجزء الثاني من الصفحة ٣ فما بعد.

في سنة نبيه ﷺ. كذلكم الحال في القرن الثاني، الذي ازداد فيه الرقي والتطور وتلاقحوا مع مدارك الأمم التي جاورتهم وانضمت إليهم على أعقاب الفتوحات الإسلامية الواسعة.

أفأحوجهم ذلك التطور الواسع الكبير إلى أن يطوروا الإسلام ذاته؟ أبداً، بل كانت حراستهم لمبادئ الإسلام وأحكامه أن لا يسري إليها أي تبديل وتغير، هي عربون وثمن تطورهم.

ولعلي أستطيع أن أضرب لكم مثلاً على هذه الحقيقة التي يجب أن نتبينها:

السيارة التي تحاول أن تنتقل بها إلى بلدة ما.. بمقدار ما تكون ثابتة في أجهزتها ودخائلها وتكون دقيقاً في المحافظة عليها، تنقلك وتتسم بالسرعة التي تطلبها أنت، ولكن عندما تستبد بك الرعونة والفكر السطحي، فتعمد إلى دخائل السيارة تعبث بها أملاً في أن تطورها لتصبح بذلك أكثر سرعة وتجاوباً معك، فإنها على العكس مما تتوقعه، لابدّ أن تخيِّب أملك وتتركك في مكانك، وربما تعطلت كلياً عن التسيار، ومن ثم فلن تقطع بك أرضاً، ولن توصلك إلى غاية.

أرأيت إلى هذه السيارة التي تنقلك وبالسرعة التي تتطلبها، أرأيت إلى الشرط الذي لابد منه، وهو أن تبقى هذه السيارة على وضعها، وأن تحافظ على نظامها دون تغيير وتبديل، كذلكم الإسلام، إنه المركبة التي تنقلك بأمر من الله من طور إلى طور أفضل منه، على مستوى الفرد والمجتمع، ولكن الشرط الوحيد، أن تظل صالحة لذلك، ولكي تبقى صالحة لذلك يجب أن تظل على النهج الذي أقامها صانعها عليه، وإنما صانع مركبة الإسلام الله عز وجل لا غيره.. فمن أبى إلا التدخل في حكم الله وأمره فيما صنع وأحكم، فقد أعطب المركبة، وقضى على نفسه من حيث يدري أو لا يدري بالتخلف والجمود.

وإذا كان هذا الكلام واضحاً، وأعتقد أنه لا يخفى على عاقل فما أغرب

حال الذين يتصورون، أن المسلمين لكي يتطوروا نحو الأفضل، ولكي يسايروا الأمم المتقدمة، ينبغي أن يقفزوا فوق إسلامهم، أو في أحسن الأحوال، ينبغي أن يطوِّروا إسلامهم ذاته!!..

والحقيقة أنهم إن طوروا الإسلام عَطُب وخَرِب.. وإذا عطب الإسلام لم تبق لهم مركبة، ومن ثم فإنهم سيعودون إلى حياة الصحراء التي انطلقوا منها، لا يضبطهم فيها ضابط، ولا يحقق رغباتهم أي أمل.. وهذا ما عناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم قال: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما طلبنا العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله».

بقي أن نلفت النظر إلى أننا عندما نتحدث عن مصالحنا التي يجب أن تحملنا على التطور، معتمدين في ذلك على اجتهاداتنا وقناعاتنا الشخصية في فهم هذه المصالح، فإننا كثيراً ما نقع في خضم مائج من اللبس بين المصالح الحقيقة والأهواء بل الرعونات الزائفة، وما قامت وتقوم الحروب بين فئات الناس إلا لتصادم هذه الأهواء فيما بينها باسم المصالح، حيث يفوز القوي أخيراً بأهوائه التي يطمح إليها، وتنهار آمال الضعيف وتذهب ضحية ضعفه.

ولكن هل بوسعنا أن نفرز المصالح الإنسانية الحقيقية المتفقة مع حاجاتنا عن المصالح المزيفة التي هي في الواقع مفاسد؟!

أعتقد إننا نحن البشر لا نستطيع إلى ذلك سبيلاً، والتاريخ القاصي والداني خير شاهد على ذلك.

إذ إننا عندما نريد أن نجتمع لنجدد مصالحنا فلسوف تتدخل أهواؤنا وغرائزنا وشهواتنا وأنانيّاتنا، متسابقة لتحديد هذه المصالح، ومن ثم لا يمكن إلا أن نختلف، لأن الأهواء مختلفة. ولأن العصبيات متنوعة، ولأن القوى متفاوتة.

وقديماً جرب كثير من الباحثين الغربيين أن يضعوا قانوناً عاماً للمصالح،

وأن يدعوا شعوبهم للسير عليه، فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً، ومن أبرزهم العالم والفيلسوف البريطاني (بنتام) فقد حاول ذلك في كتابه الكبير: (أصول الشرائع) وتأمل أن ينجح في وضع قانون ثابت عام للمصالح المرعية، التي ينبغي للبشرية كلها أن تسير عليها، وللمفاسد التي ينبغي أن تنأى عنها، ولكنه اعترف في آخر كتابه بأنه لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً.

ولقد تبعه في هذه المحاولة العالم البريطاني ستوارت ميل، فانتهى إلى مثل ما انتهى إليه سلفه من العجز.

إذن كان لابد لمعرفة مصالحنا العامة وما يقابلها من المفاسد أن نتلقى نبأ ذلك وبيانه من عند من خلق الإنسان، وأودع فيه حاجاته وأشواقه وآماله وآلامه.

أجل.. إذا كنا مؤمنين بوجود هذا الإله، فلابدَّ أن نؤمن بأن خير من يضعنا أمام كل من قائمتي المصالح والمفاسد العامة في حياة الإنسان، هو هذا الإله الذي صنَعَنا بيده وأودع بين جوانحنا حاجاتنا ورغباتنا، وفطرنا على ما فطرنا عليه من الأشواق والآمال والآلام.

وربما جاء من يقول: إن هذا العصر الذي نعيش فيه يقتضي أن نعطي للناس الحرية في أن يفعلوا ما يشاؤون استجابة لغرائزهم، واستجابة لما تقتضيه رغائبهم من علاقة الجنس وغيرها، وربما برر ذلك بأن المصالح الجديدة للمجتمعات الإنسانية تتطلب ذلك.

أنا أعلم أن كثيرين، لاسيما في بقاع الغرب ينادون بهذه الدعوة، ولكن هل هذه الدعوة تنطوي على مصلحة حقيقية للأسرة أو الفئات والجماعات الإنسانية، أينما وجدت؟..

أعتقد إن الذي يقول هذا الكلام إنما يستجيب لنداء غرائزه، ولا يستجيب لنداء عقله.

وعلى سبيل المثال فإن هنالك من يقول: إن المصالح الاقتصادية المتطورة تحوجنا إلى أن نقول بإباحة الربا، لأن عجلة الاقتصاد لا يمكن أن تدور إلا إذا غضضنا الطرف عن هذا الأمر، الذي كان إلى هذا اليوم محرماً.

غير أن هذا التصوُّرَ وهمٌ باطل، لأن دعوى صحته يستلزم القول بأن الله لم يكن دقيقاً في تحريمه الربا وتحذير الناس منه في كل زمان ومكان، وأن عباده البشر أعرف بحقيقة ما ينطوي عليها الربا من خير أو شر!.. ولا شك أنه لا يوجد عاقل يؤمن حقاً بالله عز وجل، ثم يحتضن عقله هذا التصور الأخرق..

إذن فالعمل على تبرير الربا والتهوين من أخطاره ليس إلا استجابة لنزوة النفس، وانخداعاً بعاجل الفائدة عن آجل عواقبها الوخيمة.

وآية ذلك ما يقوله سائر علماء الاقتصاد قديماً وحديثاً، عن الأضرار الاجتماعية الخطيرة الكامنة في الاستسلام لشبكة المعاملات الربوية. ولقد كنا ولا نزال نقرأ كلامهم المكرر المعاد: إن المال لا يمكن أن يلد المال، القيمة إنما تتولد من المنفعة. إذ المنفعة أصل، والقيمة ظل لها، تتنامى المنفعة فتتنامى معها القيمة. أما أن تنفصل القيمة عن المنفعة فتُنمَّى القيمةُ وحدها دون أن يتنامى معها الإنتاج، فهذا من الخطر بمكان، وهل الربا إلا هذا؟

هذا مثال أذكره أضرب به المثل، والمقصود أن نعلم أن الإله الذي فطرنا هو أدرى بمصالحنا، إن وجدنا مشاعرنا تختلف مع كلام الله سبحانه وتعالى الذي يحذر من الفواحش، والذي يحذر من كثير من المعاصي، وعدنا إلى غرائزنا فوجدنا أنها تهفو إليها، ينبغي أن نتهم أنفسنا، ولا نتهم مولانا وخالقنا سبحانه وتعالى، ذلك لأننا نعلم بالبداهة أن الله هو أعلم بحاجاتنا ومصالحنا التي تسعدنا وبالمفاسد التي يمكن أن تشقينا.

إذا تبيّن لنا ذلك، فلابد أن نلجأ إلى الشِّرعة التي شرعها الله سبحانه وتعالى سواء عرفنا حكمته فيما شرع، أم لم نعرفها.

إذن، فقد تبين مما أوضحناه أن مقولة: «ثبات الوحي يتناقض مع حركة الصيرورة في الكون» كلام سوفسطائي يعوزه المضمون العلمي.

ذلك لأن الله سبحانه وتعالى إنما أنزل من خلال الوحي شرعة صالحة لكل زمان ومكان، وشرعة الله ليست ثوباً للمادة وأجزاء المادة الخاضعة للصيرورة، ولكنها ثوب للعلاقات الاجتماعية، وعلاقات الناس بعضهم مع بعض. وعلاقاتهم مع المسخرات الكونية.

وقد كانت هذه العلاقات ولا تزال قائمة على نهج واحد: المسكر ضار في كل عصر وفي كل زمان ومكان، إذن ينبغي أن يبقى تحريمه مستمراً، الربا يتعارض مع طبيعة النظام الاقتصادي السليم، إذن ينبغي أن يظل تحريمه مستمراً، الانحراف إلى الفاحشة يمزق الأسرة، والمجتمع لا يمكن أن ينهض سوياً إلا على مجموعات من الأسر المتماسكة، لأن نسيجه يتكون من سدى ولحمة الأسرة، إذن ينبغي أن تكون حرمة الفاحشة مستمرة.. الظلم يدمر حقوق الإنسان ويقضي على كرامته، إذن يجب أن يبقى الظلم محرماً، وأن يلجأ الناس منه إلى حصن العدل.

أما الحاجات الإنسانية الحديثة المنبثقة عن المصالح الحقيقية للإنسان، فلا أعلم أن الشريعة الإسلامية وقفت أمامها أو أمام واحدة منها موقف المتجاهل أو المستنكر. ولقد تعاقبت القرون الإسلامية الغابرة، وتسلسلت أجيال المسلمين وترقَّت في سلَّم الحضارة والمدنية، في ظل الحكم الإسلامي وشرعته، دون أن نسمع من أحدهم هذه الشكوى، بل دون أن نشم من كلماتهم ومواقفهم أي رائحة لها.

لماذا مرت تلك الأجيال كلها ساكتة عن هذه المقولة؟.. لماذا كانت تعيش حالة انسجام مستمر بين إسلامها الثابت وحياتها المتطورة على هديه الصاعدة

بقيادته، ثم لم تولد (أي هذه المقولة) إلا في هذا العصر، بل إلا في هذه السنوات الأخيرة؟!..

لعل الإخوة الذين يلهجون بهذه المقولة، يلتفتون إلى الشريعة الإسلامية فيدرسون شيئاً من دخائلها وأحكامها ـ بعد يقينهم بأنها شريعة الله عز وجل ـ إذن: سيجدون أنفسهم أمام مصداق ما قاله سلطان العلماء العز بن عبد السلام في مقدمة كتابه «قواعد الأحكام في مصالح الأنام»: (اعلم أن عليك كلما سمعت نداء الله عز وجل قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ..﴾ أن تصغي السمع إلى ما يأتي بعد هذا النداء، فإنك لن تجد إلا أمراً بما هو خير لك، أو نهياً عما هو شرٌ لك).



يُغَالِطُونَكَ إذْ يَقُولُونَ:

# ٱلتَّقْدِيسُ
# يَعُوقُ عَنِ ٱلْبَحْثِ وَعَنْ حُرِّيَّةِ ٱلنَّظَرِ

أما الآن فسنعالج أطروحة جديدة، لعلكم جميعكم سمعتم بها أو قرأتم الكثير عنها، لنستبين مدى أهميتها ومدى اتفاقها مع المنطق والعلم، فإذا عرفنا بعد البحث والنظر أنها قائمة على سند من المنطق والعلم والموضوعية، أخذنا بها وعملنا بمقتضاها.. وإن رأينا أنها لا تتفق مع المنطق، وقواعد العلم والنظر، فينبغي أن نصنفها في قائمة الأغلوطات، التي تطرح باسم العلم والمنطق..

إنها قول أحدهم: إن التقديس يعوق عن البحث وحرية النظر، وهي دعوة ملحَّة من فئة من الناس، إلى نبذ مبدأ التقديس للآخرين أياً كانوا. وللأشياء أياً كانت.

ومبدأنا الذي نلزم به أنفسنا هو أن نتحلى بالصبر والتعقل أمام هذه الأطروحة وأمثالها من أي جهة أقبلت، وأن نضعها في ميزان البحث العلمي بطريقة موضوعية، فإن رأينا أنها متفقة مع منطق العلم فلا مناص من الأخذ بها، بل ينبغي أن نكون سنداً لمن يقول بها ويدعو إليها.

ما هو التقديس؟

بادئ ذي بدء ينبغي أن نتبين معنى هذه الكلمة، وأن نكون على بينة من وحدة معناها في أذهان كل من الطرفين.

التقديس في اللغة العربية هو: تنزيهك الشيء عن النقائص والأدران.

كل شيء نزهته عن النقائص وعن الأدران فقد نظرت إليه نظرة تقديس. والشيء الذي يتصف بهذا الوصف يسمى مقدَّساً أو قدوساً، يقول أحدنا: فلان قدوس أو قديس على التعبير الحديث، أي: إنه مبرأ من سائر النقائص، متسام فوق سائر الأدران، ومن هنا كانت كلمة القدوس اسماً من أسماء الله الحسنى.

إذن هذا هو المعنى اللغوي لكلمة التقديس، ومنه تم اشتقاق القدوس والقديس حسب التعبير الحديث.

غير أنّ كلمة التقديس تعني، عند هؤلاء الذين يقولون: التقديس يعوق عن البحث وحرية النظر، التعظيم والإجلال والمهابة تجاه الشيء المجهول..

فإذا وقف الإنسان أمام أمر أو كائن لا يعلم حقيقته ولا يعلم كنهه، ثم وضعه لسبب ما من خياله وفكره في إطار من التعظيم والتبجيل، دون أن يعلم مصدر ذلك وسببه فذلك هو التقديس عندهم.. أجل هذا هو معنى التقديس عند أصحاب هذه الأطروحة فيما نعلم.

غير أن علينا بادئ ذي بدء أن نحرر محل البحث كما قلنا في مناقشة الأغلوطة السابقة فنقول:

نحن لا نتعامل مع هذا اللون من التقديس أبداً... لم يُرَبِّنا الإسلام ولا المنطق ولا العلم على أن نعظِّم شيئاً مجهولاً، أو أن نخاف من شيء مجهول، بل لا ينبغي أن نقدِّس الشيء إلا بعد أن نتبين ـ بدقة وعن طريق ميزان المنطق والعلم والعقل ـ أنه أهل للتقديس، أي: ما ينبغي أن ننسبَ الشيء إلى الطهارة من الأدران، وإلى السُّمُوِّ فوق النقائص، إلا إذا ثبت بالدليل العلمي أنه فعلاً كذلك.

أما هذا المعنى الآخر الذي ينبثق من عواطف دينية غامضة في كثير من الأحيان وعند كثير من الناس، فالإسلام لا يتعامل معه.. إذن فليس هناك تلاقٍ على المعنى المراد بكلمة «التقديس». بيننا وبين الداعين إلى نبذ مبدأ التقديس. ومن ثم فإن حججهم لا تلزمنا.

لماذا يلح أصحاب هذه المقولة على مقولتهم هذه، لماذا يلحون على دعواهم بأن التقديس من شأنه أن يعوق عن البحث وحرية النظر، ومن ثم لماذا

يلحون على إقناعنا بأن نُخرِج الإسلام عن دائرة التقديس وحسّه؟.. ما الدافع لهم إلى هذا؟..

الدافع: هو أن يجدوا أنفسهم أمام قدرة تامة، دون أي عائق، على أن يتجهوا بما يشاؤون من النقد والتجريح إلى الإسلام بكل مصادره وأن يتمكنوا من إلحاق أنواع العيوب والثغرات به كما يرغبون.. ونظراً إلى أن الإسلام مغموس في هالة من التقديس والتبجيل، فإنهم يشعرون بحرج كبير إن هم اتجهوا إلى عملية النقد هذه.. سيلفتون الأنظار كلها إليهم بالاستنكار.. ولسوف يكون تصرفهم تصرفاً شاذاً مستنكراً.

فكيف السبيل إلى ما يبتغون من نقده وتجريحه والاستخفاف به وبمصدره؟..

السبيل هو أن يقنعوا المسلمين الذين انتهوا إلى قناعة بأن الإسلام شيء مقدَّس، وأن مصادر الإسلام أيضاً مقدسة، بضرورة التحرر من هذا التقديس، وضرورة النظر إليه على أنه كأي شيء آخر، يخضع للنقد، يخضع للنقاش، يخضع للبحث.

ولو تساءلنا: لماذا لا نشعر نحن أيضاً بما يشعر به هؤلاء من هذه الرغبة؟ فالجواب: هو أنني باعتباري إنساناً مسلماً عرفت حقيقة الإسلام ومصدره، لا أستطيع إلا أن أقدس هذه الحقيقة التي اعتنقتها بعد أن وعيتها.

حسناً، فلماذا لا يكون هؤلاء أمثالنا؟.. لماذا لا يشعرون هم أيضاً بالتقديس الذي نشعر به لمصادر الإسلام، أي للقرآن، للسنة، لوجود الله سبحانه وتعالى، لظاهرة الوحي؟!..

الجواب، وأرجو أن أكون مخطئاً، هو أن أصحاب هذه الأطروحة ينظرون إلى الإسلام على أنه تراث الآباء والأجداد.. حصيلة ورثناها عمن قبلنا جيلاً عن جيل!.. فإذا كان الأمر كذلك، ففيم يضعون هذا الميراث من حياتهم موضع

التقديس والتبجيل؟!... ينبغي أن ينظروا إليه كما ينظرون إلى أي تراث وصلهم عن الآباء والأجداد، ينخلونه.. ينقدونه.. ثم بعد ذلك يحكمون له أو عليه. هذا هو الدافع الذي يحمل هذه الفئة من الناس على أن نخرج الإسلام من دائرة التقديس وحصنه وأن يُترَك هكذا في العراء بحيث يتسنى لكل من أراد، أن يتجه إليه بالنقد والاستخفاف.. وأن لا يشعر بأي حرج في ذلك.

الآن، وقد تبين لنا أن كلاً من الطرفين يفهم الإسلام على خلاف ما يفهمه الآخر، ومن ثم فإن كلاً منهما يفهم التقديس على خلاف ما يفهمه الآخر أيضاً، يحين لنا أن نتساءل: ما موقفنا نحن من هذه الأطروحة، أي: ما موقفنا نحن المسلمين الذين نقدس الإسلام تقديساً كبيراً، ونقدس مصادره بدءاً من ظاهرة الوحي إلى القرآن إلى ظاهرة النبوة في شخص محمد ﷺ، إلى اليقين بوجود الله عز وجل.. ما موقفنا من هذه الأطروحة؟.. ما هو الموقف الذي يتفق مع العلم، والذي ينأى عن العصبية، وينأى عن الانتصار للانتماء؟.. أجل.. ما هو الموقف الذي ينبغي أن نتخذه بناء على ذلك كله؟..

موقفنا هو التالي: إن تقديسنا للإسلام ومصادره يأتي بعد مرحلة طويلة وطويلة جداً من النقد والمعارضة والبحث وإخضاع الإسلام بكل مصادره للاحتمالات المختلفة والمتنوعة، أي: فنحن مررنا بالمرحلة التي نُدعى اليوم إليها.. قبل أن نعتنق هذا الدين ونعطيه منّا كل معاني القداسة.

ولقد محصناه وأخضعناه لكل ما يريد هؤلاء الناس أن نخضعه له، بل بالغنا في ذلك أكثر مما يريدون: اتهمنا... وفرضنا أن الاتهام صحيح، تخيلنا نقائص كثيرة في الإسلام، وافترضنا أن النقائص صحيحة وموجودة، تخيلنا أن القرآن كلام البشر، وافترضنا أن هذا التخيل صحيح، ولكننا ونحن نبحث لم نحبس أنفسنا في هذه المرحلة، ولم نراوح في مكاننا، درسنا وبحثنا وأمعنا، كما درس من قبلنا، من الصحابة ومن بعدهم، ثم إن البحث العلمي النزيه عن العصبية،

والبعيد عن الخلفيات، دلنا على أن هذا الإسلام حق وأن ظاهرة الوحي حقيقة لا شك فيها ولا ريب، وأن الوحي الذي تحدث عنه رسول الله ﷺ حقيقة خارجة عن كيانه، تمثلت في جبريل، جاء ليبلغه خبراً عن الله ليس له اختيار في جذب هذه الحقيقة إليه ولا في إبعادها عنه.. درسنا القرآن وهو المصدر الأول من مصادر الإسلام، ووضعناه تحت مجهر النقد والبحث.

وأنا واحد ممن فعل هذا وقام بهذا الواجب فعلاً، افترضت ذات يوم أن القرآن قد يكون كلام بشر، وأمعنت فيه ودققت النظر، وأمضيت مدة طويلة وأنا أدرس هذه الاحتمالات في كتاب الله سبحانه وتعالى، ثم انتهيت بعد البحث الموضوعي المتحرر من سائر الأسبقيات، إلى أن هذا الكلام لا يمكن أن يكون كلام غير الله عز وجل، والأسباب التي جعلتني أستيقن هذا، يطول ذكرها، وفتح الملف عنها ينقلنا إلى موضوع آخر، يتعلق بالقرآن وهويته، ومظاهر الإعجاز فيه.. المهم أنني انتهيت من الدراسة النقدية لكتاب الله عز وجل، ولم يكن ثمة تقديس يحول آنذاك بيني وبين هذا الواجب أبداً.. ثم انتهيت إلى يقين قاطع بأن هذا القرآن كلام الله سبحانه وتعالى، وانتهيت أيضاً إلى يقين قاطع بأن محمداً عليه الصلاة والسلام كان رسولاً فعلاً، بعد أن درست حياته من أولها إلى آخرها، وبعد أن تبينت دخائل حياته ومواقفه المختلفة، بل درست نفسية محمد عليه الصلاة والسلام. كنت أفترض هذا الذي يتصوره الذين يريدون أن نبعد القداسة مما بيننا وبين الإسلام.. ولكني انتهيت بعد هذه الجولة العلمية إلى أن محمداً رسول الله فعلاً.

فأنا بعد أن انتهيت إلى هذه الحقيقة، وعرفت أن الإسلام حق، بوحيه وقرآنه ونبوة رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، من ذا الذي يملك أن ينتقد تقديسي للحق؟!..

هل فينا عاقل لا يقدس الحق؟! وهل هنالك شيء أولى بالتقديس من الحق؟!

أنا بكل بساطة إن لم أقدس الحق لابد أن أقدس الباطل، لأن الحق والباطل نقيضان، فإن لم أقدس الحق فمعنى ذلك أنني أقدس نقيضه، وإن لم أقدس الباطل لأنه باطل فلابدّ أن يكون الوجه الآخر لمعنى ذلك أنني أقدس الحق.

ولقد قلت: إن التقديس ليس عبارة عما يفهمه بعض أتباع الديانات الأخرى من أنه ذلك التعظيم والتبجيل الغامضان تجاه المجهول!.. نحن لا نتعامل مع المجهول أبداً، وأول ما يمنعنا من هذا اللون من التعامل هو الإسلام، لأن كتاب الإسلام الأول يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

تقديسي للإسلام الذي انتهيت إليه بعد مرحلة طويلة من المعارضة.. من النقد.. من البحث الحر في إمكانية أن يكون حقاً أو أن يكون باطلاً..

أقول: تقديسي له يعني أنني أبرئه من النقائص، وأبرئه من الأدران.. مع العلم بأنني لم أبرِّئه إلا بعد أن بحثت ونظرت ونقدت..

فهذا هو جوابنا لمن يدعونا إلى أن نبتعد عن التقديس، بحجَّة أن التقديس يعوقنا عن البحث.. نعم التقديس يعوقنا عن البحث إذا هيمن على النفس قبل البحث والنظر.. ولذلك فإنا لم نقدِّس إسلامنا هذا قبل أن ندرسه ونفهمه ونمحص النظر فيه، ومن ثم لم يكن هنالك ما يعوقنا عن البحث والنقد، بحثنا ونقدنا، ولكنا لم نحبس أنفسنا في سجن ذلك البحث والنقد آنذاك.. أي: فقد كان البحث والنقد في حياتنا طريقاً إلى غاية، ولم يكن غاية بحد ذاتها كما تريدون أنتم الآن.

وأزيد هذا الكلام تفصيلاً ليستبين الأمر على حقيقته: هل نحن فقط الذين بنينا تقديسنا للإسلام على مرحلة البحث والنظر والنقد؟

لا، أصحاب رسول الله محمد ﷺ كانوا أسبق منا إلى ذلك.. ما من واحد منهم فاض في قلبه التقديس العظيم للإسلام إلا وكان في ماضيه من أشد المعارضين له.. انظر إلى عمر بن الخطاب.. انظر إلى عكرمة بن أبي جهل.. انظر إلى خالد بن الوليد.. انظر إلى أبي سفيان.. انظر إلى مصعب بن عمير.. انظر إلى القعقاع.. انظر إلى كل الناس الذين أصبحوا صحابة لرسول الله ﷺ، هل تفجر التقديس للإسلام لديهم إلا من ظلمات المعارضة والنقد الذي اتجه بهم إلى قتل رسول الله ﷺ؟.. وعكرمة وخالد بن الوليد وأبو سفيان وغيرهم ممن تعلمون، أليسوا جميعاً كانوا يعيشون في ظلمات النقد، وإلحاق النقائص برسول الله.. وتصور أن الإسلام خرافة؟..

بحثوا.. لكنهم لم يسجنوا أنفسهم في دائرة ذلك الاتهام، أو في دائرة تلك المعارضة، بل جعلوا من معارضتهم منهجاً للوصول إلى الحقيقة، فلما استبان لهم أن محمداً ﷺ رسول الله انتهوا من منهجهم النقدي ذاك إلى غاية الإيمان بالحق، فالتقديسِ له..

وهذا ما قاله عمرو بن العاص لخالد بن الوليد، وقد كان كل منهما يتجه إلى المدينة المنورة ليسلم على انفراد، فلما تلاقيا في الطريق قال أحدهما للآخر: إلى أين؟ قال: والله لأسلم فحتى متى، لقد عرفت وتبينت أن محمداً رسول الله، قال: والله وأنا أيضاً، خرجت لأسلم ..

وهكذا نلاحظ أن التقديس لم يأت بادئ ذي بدء بشكل تقليدي، أي: لم يكن كما يتوهم هؤلاء: تعظيماً ومهابة لمجهول، وإنما جاء ثمرة لمرحلة طويلة من النظر والنقد وإخضاع المسألة لكل الاحتمالات.

وأضعكم أمام نموذج مفصل في هذا الموضوع، يوضح بشكل جلي ويجسد هذه الحقيقة التي نقولها:

عدي بن حاتم الطائي المعروف بكرمه يتحدث عن مدى بغضه لرسول الله ﷺ عندما هاجر رسول الله إلى المدينة، ويقول: إن بغضه لرسول الله دفعه إلى أن يترك المدينة ويلتحق بالشام، ويقول: ثم إني كرهت مقامي في الشام أكثر من كراهيتي لرسول الله ﷺ، (تأملوا مرحلة المعارضة، مرحلة النقد، مرحلة الابتعاد عن التقديس)، وقلت في نفسي: فلأعد إلى المدينة ولأنظر إلى هذا الرجل، فإن كان ملكاً لن يخفى عليَّ أمره، وإن كان نبياً لن يخفى علي أمره أيضاً. يقول: فجئت إلى المدينة ودخلت المسجد فسلمت عليه، فقال: من الرجل؟ قلت: عدي بن حاتم، فعمد بي إلى داره، فما هو إلا أن استوقفته امرأة كبيرة مسنة في الطريق فوقف لها ملياً، قلت في نفسي: والله ما هذا بشأن ملك.. ثم مضى بي إلى داره فقذف إليّ حُشَّية من ليف ـ يعني: بوسادة محشوة ليفاً ـ قذفها إلي وقال: اجلس عليها. وجلس هو على الأرض، قلت في نفسي: لا والله ما هذا بشأن ملك.. ثم قال: إيه يا عدي لعل الذي يمنعك في الدخول في الإسلام ما ترى من فقر أهله أو حاجة أهله، فوالله ليوشكن أن يفيض المال فيهم حتى لا تجد من يأخذه، ولعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما تراه من كثرة عدوهم وقلة عددهم، والله ليوشكن أن تخرج المرأة من القادسية على بعيرها تزور هذا البيت لا تخاف، ولعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من أن الملك والسلطان في غيره، والله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض في بابل وقد فتحت على المسلمين.. يقول عدي بن حاتم: فعرفت أنه نبي وأسلمت[(١)].

---

(١) رواه ابن اسحاق والإمام أحمد، والبغوي في معجمه بألفاظ متقاربة. وانظر الإصابة للحافظ ابن حجر.

هذا هو المنهج الذي سلكه أصحاب رسول الله ﷺ، بل السلف الصالح كله، وهو ذاته المنهج الذي نسلكه نحن.. فما هو مكان النقد على واحد مثل عدي بن حاتم؟؟ وما الذي يعيب وضع عدي بن حاتم بنظر أصحاب هذه الأطروحة؟ ما الذي يعيب وضع عدي بن حاتم بنظرهم؟ غمس الرجل نفسه غمساً في موقف الناقد وموقف المتَّهِم..

ولكن هل البحث العلمي يقتضي أن يعانق الرجل هذا الموقف حتى الممات؟!

هل موقف الاتهام مطلوب لذاته؟ إذن على القاضي عندما يقف ويجد أمامه وثيقة اتهام، أن يكرر هذه الوثيقة ويجعل منها ورده الدائم، وأن لا يتجاوزها إلى أي تحقيق من أجل أن يصل إما إلى تجريم المتهم أو إلى تبرئته!!..

هل سمعتم بقاض وجد أمامه وثيقة اتهام فسعد بهذه الوثيقة وعانقها، وأخذ يرى السعادة القصوى في أن يظل مرتبطاً بها واقفاً عندها؟!..

لا يمكن لعاقل أن يتخذ هذا الموقف.. لابد للقاضي أن يتعامل مع وثيقة الاتهام وأن يتجاوزها إلى التحقيق.. إن هذا الموضوع ذاته يرد هنا، فلنفرض أن الإسلام متهم، وأن محمداً عليه الصلاة والسلام متهم، ولكن ما الذي يجب علينا أن نفعل في هذه الحال؟ يجب علينا أن نبحث ثم نبحث، إلى أن نتجاوز نقطة الاتهام، فإما أن نجد أن هذا الإسلام ليس حقاً وعندئذ نتجاوزه ونشيح بأبصارنا عنه، وإما أن نجد أنه حق، وعندئذ لابدّ من أن نقدس الحق.

هذه حقيقة لا شك فيها، ولكن بقي علينا أن نتساءل، كيف تجاوزنا النقد إلى الإيمان والتقديس؟

لعل فينا من يريد أن يقول: فأنا أريد أن أسير من مرحلة الاتهام إلى مرحلة التقديس. ما السبيل المنهجي الذي يجب أن أسلكه إلى ذلك؟

أقول في الجواب عن هذا السؤال:

سأجعل من نفسي وسيلة الإيضاح لإبراز الجواب الشافي عنه.. في فترة من الزمن ماضية، كانت تطوف بذهني افتراضات كثيرة حول حقيقة هذا القرآن الذي نقرأه، والذي سمعنا أنه كلام الله عز وجل. لم أغمض العين لأوقن بشيء لم يستيقنه عقلي، ولكني أيضاً لم أغمض العين لأنكر شيئاً لم أتبين أسباب استنكاره، فكان أن وضعت كتاب الله تحت مجهر البحث، تماماً كما يطلب منا أصحاب هذه الأطروحة، فرأيت ـ بعد بحث طويل ونظر ـ أن كل آية في هذا الكتاب تتبرأ من اتهام أنه كلام إنسان مخلوق، والحديث في هذا يطول، وهو حديث ذو شجون، ولكني أكثف الكلام وألخصه جُهد الاستطاعة.

رأيت أولاً أن كلام القرآن هذا، مغموس فيما أسميه: «مَظهَرَ جلال الربوبية»، وتأملت فوجدت، كما يقول علماء النفس والتربية، أن الكلام صفة المتكلم، أي: إن طبيعة الإنسان لابد أن تبرز دلائل إنسانيته في كلامه، وكلما امتد حديثه وطال أمده ازدادت طبائعه جلاءً في مرآة كلامه. ما أظن أن فينا من يجهل هذا.. بحثت ونقبت في كلام القرآن ظاهره وباطنه، عن رائحة للبشرية وللطبيعة الإنسانية فلم أجد، ومرة أخرى أقول إن الكلام كما تعلمون صفة المتكلم. فإذا افترضنا أن القرآن، كلام بشر، ينبغي أن تكون طبيعة البشر واضحة فيه، فأين هي طبيعة البشرية مثلاً في هذا الكلام: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠] أين هي رائحة الطبيعة البشرية في الكلام التالي: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٦] أين هي رائحة الطبيعة البشرية في هذا الكلام الآخر: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨] تأملوا وأجيبوني، هل تجدون مظهراً من مظاهر الإنسانية أو بصمة

من بصماتها في الكلام التالي: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]. القرآن كله على هذا المنوال، تأملت وحاولت أن أستبين أي مظهر من مظاهر البشرية في القرآن كله، فلم أجد!.. ولم أكن لأنطلق لا من أسبقية، ولا من عصبية، بل كنت في دائرة الحيرة، فهل فيكم من يعارض هذه الحقيقة التي أقولها؟.. هل فيكم من يرى مظهراً من مظاهر البشرية في هذا الكلام: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أي هل هنالك إنسان يستطيع أن يقول هذا الكلام، وقد عرفتم أن الكلام صفة المتكلم؟..

الإنسان لا يستطيع أن يقلد أسلوب أخيه الإنسان. مع الجامع المشترك بينهما، وهو الإنسانية. فكيف يستطيع المخلوق أن يقلد كلام الخالق، ويقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾. ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦١] لو أن إنساناً حاول أن يمثل الذات الإلهية في شخصه، فحاول أن يخلع إنسانيته من كيانه كما يحاول أحدنا أن يخلع رداءه ثم جلس ليقول ما يقوله الله عن ذاته من هذا الكلام ونحوه، لن يستطيع إلى ذلك سبيلاً قط، ولسوف يعوقه لسانه عن النطق بذلك؛ لأن الإنسان إنما يستلهم كلامه من طبيعته الداخلية، وطبيعة الإنسان تتناقض مع هذا الكلام.

هذا مظهر من المظاهر التي نقلتني من طور الحيرة وطور النقد، الذي يطلب منا الآن، ليجعلني أمام صورة لا أستطيع أن أنكرها ما دام عقلي يتحكم بي، وما دمت خاضعاً لسلطانه.

ثم تدبرت وتأملت في هذا الكلام، وهو يتحدث عن أمور تتعلق بطبيعة الأرض..

بشكل الأرض.. بهذه الأفلاك.. ومعلوم أنه لا عهد للعرب ولا لمحمد بها، رأيت القرآن يقول: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [الحجر: ١٦] يقول: مددناها!.. ليس المراد هنا الامتداد الجزئي، ذلك لأن كل شيء يتصف بالامتداد الجزئي: كفي هذه ممتدة، هذه الصحيفة من الورق ممتدة، المنصة ممتدة.. إذن لا فائدة من وصف الأرض بهذا المعنى الجزئي الموجود في كل شيء. إنما الآية تقول: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ بشكل كلي، أي: فكلها يتصف بالامتداد، إتجه غرباً وسر ما طاب لك المسير، فإنك لن تصل إلى حافة ينتهي عندها امتداد الأرض.. إتجه شرقاً ثم سر وتابع السير لن تنتهي إلى حافة ينتهي عندها امتداد الأرض.. إتجه شمالاً اتجه جنوباً لن تنتهي بكل الأحوال إلى حافة ينتهي عندها امتداد الأرض، ماذا يعني هذا البيان الدقيق علمياً؟ يعني أن الأرض مكورة. كيف أستطيع أن أتصور أن هذا كلام بشر، ومن ذا الذي كان يعلم من أهل الجزيرة العربية هيئة الأرض آنذاك؟ ثم انظروا إلى مظهر جلال الربوبية في هذا القول ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ هل أنا الذي مددتها؟!.. هل يملك الإنسان الذي أفترض أنه صاحب هذا الكلام، أن يدعي أنه مدّ الأرض وكوّرها وأقامها على الوضع الذي هي عليه؟!..

رأيته يتحدث عن الوليد بن المغيرة كلاماً لا يجرؤ محمد أن يقوله: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١١ـ ٢٩].

سأصليه سقر!.. هل يملك محمد عليه الصلاة والسلام أو غيره أن يقول عن الوليد بن المغيرة: سأصليه سقر؟!.. وما أدراه، وما أدرى محمداً أن الوليد

لن يسلم، لعله يسلم غداً، وقد أسلم من كان شراً من الوليد بن المغيرة، أسلم عمر بعد أن عزم على قتل رسول الله ﷺ!..

لن يستطيع محمد أن يقول هذا الكلام؛ لأنه سيقدّر أن الوليد بن المغيرة سيكون من الخبث بحيث يعلن في اليوم الثاني إسلامه، ويقول: أيها الناس؛ ها أنا قد أسلمت، وإنّ محمداً يقول: إن الذي أسلم سيدخل الجنة، ومع ذلك فهو يقول: إنني سأصلى سقر، وها أنذا قد أسلمت!!.. فكيف يجرؤ محمد أن يغامر ويجزم بأن وليداً سيموت كافراً، مع أنه لا يدري ما الذي يأتي به المستقبل؟!..

ما دمت أتعامل مع عقلي، ولم أصفِّد نفسي بأغلال من الخلفيات، لا يمكن إلا أن أجزم بأن هذا الكلام لا يملك أن يقوله إلا الخالق، الذي يعلم النهاية التي سينتهي إليها الوليد بن المغيرة، يعلم أنه لن يسلم، وهيهات لبشر ما أن يعلم هذه الحقيقة.

قرأت وتأملت.. (وأنا أضرب لكم أمثلة قليلة من كثير) انتهيت بعد الحيرة إلى يقين.. انتهيت بعد افتراض الاحتمالات إلى يقين علمي جازم بأن هذا القرآن منزَّل من عند الله، وأنه كلام الله عز وجل، فكيف لا أقدسه، قل لي كيف لا أقدسه وقد انتهيت إلى يقين بأنه كلام قيّوم السماوات والأرض؟!..

لك أن تطلب مني عدم تقديسه ما دمت في مرحلة البحث.. فلما انتهيت من مرحلة البحث، إلى اليقين فإن مطالبتك لي بأن أظل على ما كنت عليه مجانفة عن سبيل العلم، وافتئات على المنطق ومنهجيته.

درست حياة محمد عليه الصلاة والسلام، وافترضت أنه كان يبتغي زعامة، كان يبتغي ملكاً، وأصغيت إلى من اتهموه بهذا، لكنّ في الناس من يتهمونه وهم متقوقعون في هذا الاتهام ويراوحون في أماكنهم، أما أنا فقد دفعني هذا الاتهام إلى البحث والنظر. رأيت أن المُلك عرض عليه فرفض، رأيت أن الزعامة

عرضت عليه فأبى، رأيت أن المال عرض عليه فتسامى فوقه، وقال لعتبة بن ربيعة، وقد جاء يعرض عليه بصدق الملك، ويؤكد له أن العرب لن تقطع دونه بأمر، وستكرمه بالمال والزعامة، قال له: «ما جئتكم بما جئتكم به أبغي مالكم ولا الشرف فيكم ولا السؤدد عليكم، ولكن الله جعلني رسولاً، وأنزل علي كتاباً، فأبلغتكموه، فإن صدقتم به فذلك حظكم مني وذلك حظي منكم، وإن ترفضوا أصير لحكم الله حتى يقضي الله بيني وبينكم..» كيف أتصور بعد هذا أن محمداً عليه الصلاة والسلام يصطنع النبوة من أجل الوصول إلى ملك، وهو الذي اتخذ هذا الموقف؟!..

وتابعت دراسة حياة محمد عليه الصلاة والسلام وأنا أفترض كل الاحتمالات. والوقت كما قلت لكم يضيق عن الشرح والتفصيل.

انتهيت من رحلة النقد والمعارضة، وافتراض الانتقاص بكل ألوانه إلى تصفية منطقية عقلية لا إشكال فيها، وضعتني أمام رصيد نهائي، هو أن محمداً لا يمكن إلا أن يكون رسولاً، ولا يمكن إلا أن يكون نبياً، وآية ذلك هذا الذي قلته لكم، إلى جانب عشرات من الأدلة الأخرى.

ثم هذا القرآن الذي كان ينزل عليه في كثير من الأحيان، ليصحح مواقفه!.. القرآن الذي كان شديداً في عتابه له، في كثير من المواقف، كيف يمكن أن أتصور أنه من تأليفه؟

كلكم يعلم موقفه يوم كان يناقش بعضاً من زعماء قريش وصناديدهم، وقد تأمل منهم خيراً، إذ مرّ به عبد الله بن أم مكتوم، ذلك الضرير الفقير المسكين المسلم.. سمع رسول الله يتكلم، فوقف بين القوم، وطرح هو الآخر سؤالاً، فأعرض عنه رسول الله لما يعلم من أن هؤلاء الزعماء يرفضون أن يحتك بهم أناس من دون مستواهم، فأعرض عنه.. وأعرض عنه الثانية والثالثة باجتهاد

ارتآه.. لعله برر اجتهاده هذا بأنه سيجلس إلى عبد الله بن أم مكتوم جلسة طويلة وسيشرح له ما يريد. فمضى الرجل، وقد شعر بأنّ جرحاً قد مس كيانه، فأنزل الله عليه سورة هي بكاملها عتب لرسول الله ﷺ تبدأ بقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: إلى آخر السورة].

كيف أتصور أن محمداً افتأت هذا القرآن على الله، وهو يخاطب رسول الله بهذه الكلمات؟.. ومثل هذا المشهد العتابي لرسول الله، مشاهد كثيرة أخرى في القرآن[١].

المهم أنني سرت في رحلة طويلة، هي رحلة النقد والبحث وحرية التفكير والنظر، لكن هذه الرحلة أثمرت، أثمرت القرار الذي لا مردَّ له، أثمرت القرار الذي لا يأتيه أي ريب من العقل، وهو: أن الإسلام حق، وأن هذا القرآن كلام الله، وأنَّ محمداً رسول الله ﷺ.

كيف يسوغ لي أن لا أقدسه وقد وصلت واهتديت إليه؟!..

الفرق بيني وبين الإخوة الذين يلحُّون على طرح التقديس من النفس، بحجة أنه يعوق عن البحث وحرية النظر، أنني أسير فعلاً من مرحلة النقد إلى ما

---

(١) إياك أن تكون من الجهالة بحيث تتصور أن الله لا يملك أن يعتب على رسوله أو أن يخطّئه، فإنك بهذا الوهم تجعل من رسول الله إلهاً مع الله.. وإياك أيضاً أن تنقذف إلى جهالة متناقضة فتتوهم بأن تخطئة الله لرسوله تعطي الناس حقاً في تخطئته، فتخالف بذلك قول الله تعالى ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾. وإنما الحق في هذا أن تعلم بأن المسلمين مكلفون بطاعة رسول الله في كل الأحوال، وبأن ما يأمرهم به حق وصحيح دائماً بالنسبة لواجبهم تجاهه. فإذا قضى الله أن يخطئ رسوله في أمر وأن يوجهه إلى الحق الذي كان قد غاب عنه، فالأمر في ذلك محصور بين الله ورسوله، أما نحن فنأخذ تعاليمنا على كل حال من رسول الله، كما قد أمرنا الله بذلك، وانظر في تفصيل هذا الأمر على وجهه الدقيق كتاب: «هذا والدي» لمؤلف هذا الكتاب ص: ١٧٥.

وراءها، أما هم فيحبسون أنفسهم في مرحلة النقد، وهم سعداء بالنقد ذاته ولذاته!..

وهذا موقف يشمئز منه العلم، وينكره. وهذا الموقف يتجسد تماماً في القصة التالية: منذ سنوات توفيت والدة صديق لنا، وهو أستاذ جامعي، فكان يستقبل المعزين كما هي العادة في أمسيات الليالي الثلاث عقب الوفاة، وأنتم تعلمون أن قارئ القرآن يجلس في صدر المجلس، يتلو كتاب الله عز وجل، خلال ذلك.. كان لهذا الإنسان الذي توفيت أمه صديق ملحد، يتباهى بإلحاده، مضى مع صاحب له ليعزيه، وما إن جلس في مجلس العزاء، وطرق سمعه ما كان يُتلى آنذاك من القرآن، حتى همس في أذن صاحبه يقول: قم قم فإنّ هذا الكلام يكاد أن يغيّر عقلي!!.. وقام الرجل، ولم يستقر به المجلس أكثر من دقيقة ونصف! ..

لاحظوا الفرق أيها الإخوة والأخوات، بين موقفين كلاهما موقف نقد: موقف ناقد يتحرك من النقد إلى النهاية، النهاية التي إما أن تحول الاتهام إلى تجريم. وإما أن تحوله إلى تبرئة وتقدير، وموقف ناقد آخر ينتقد ويسعد ببقائه في مرحلة الانتقاد، ويخاصم العقل الذي يأمره بالسير والتحرك إلى النهاية!!.. هذا الرجل لا شك أن عقله قال له: أصغ إلى هذا الكلام، وراجع تفكيرك، وراجع حساباتك، وراجع القرار الذي ما زلت تتمسك به، فلسوف تجد نفسك أمام حقيقة أخرى، كانت غائبة عنك. . لكن الرجل أبى أن يصغي إلى كلام العقل لأنه كان سعيداً ـ نفسياً لا عقلياً ـ بموقفه الذي طاب له أن يتخذه إلى نهاية حياته، ولذلك فرَّ لا أقول من القرآن، بل فرَّ من العقل، فرَّ من المنطق.

هذا هو الفرق بين موقفين اثنين أحدهما عقلي والآخر نفسي.

أما إن كان لأصحاب هذه الأطروحة قصد آخر، يتمثل في أن يخرجوا الإسلام من الحصن الذي يحميه لكي يُترك بعد ذلك في العراء، حتى تتناوشه سهام النقد، ومن ثم يتمزق ويتم القضاء عليه.. إذا كان هذا هو المبتغى من وراء أطروحتهم هذه، فليكونوا على بينة أن هذا الهدف لن يتحقق، بحال ما، ولو تحقق، لكان ذلك سبباً في أن نعيد النظر في حقيقة الإسلام!.

لو كان الإسلام يتم القضاء عليه بواسطة مجموعة انتقادات رعناء متكلفة تتجه إليه، لكان قد تم القضاء عليه منذ قرون متطاولة.

إن الذين جرَّبوا خصومتهم للقرآن قبل اليوم، كانوا أشد من هؤلاء بأساً، وأقوى منهم مراساً، وحاولوا السير إلى هدفهم من خلال وسائل شتّى كثيرة.. ولكنهم مضوا وانقرضوا ونسيهم التاريخ، وبقي الإسلام فوق أرفع ذروة يتألق ويشع. هذه الحقيقة ينبغي أن يعلمها الجميع.

وأنتم تعلمون أن المغول كان لهم في ذلك موقف، وأن التتار كان لهم أيضاً موقف، وأن الصليبية اتخذت إلى ذلك مواقف شتى، وأنَّ أمماً من الشرق والغرب بذلت كلَّ ما تملك من مال وقوى معنوية ومادية من أجل خنق الإسلام!!.. ولكن الإسلام لم يُخنَق بل صدق قول الله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢] وهذه واحدة من الآيات الكثيرة الناطقة بأن هذا الإسلام ليس صنعة إنسان، ليس صنعة دولة، لو كان صنعة دولة لعاش قروناً وانطفأت جذوته بعد ذلك، وإنما هو صنعة خالقه، ومن ثم فهو سوف يبقى.

وهذا يذكرنا بكلام رسول الله ﷺ: «سيبلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار» والمراد بالأمر الإسلام أي: سينتشر في العالم كله.

أعود فأقول: إذا كان هدفهم من الدعوة إلى نبذ التقديس أن يخرج الإسلام

من حصنه، وأن يصبح في العراء، بحيث تستطيع السهام أن تنوشه، وأن تقضي عليه، فليعلموا أن الإسلام سيبقى حصناً على حاله، وإنما الذين يخرجون ويبقون في العراء، المتبرمون به والمفتئتون عليه، ولسوف يعتزُّ به وبحصنه أناس آخرون ولسوف يفيض بهم هذا الحصن آنذاك. وهذا هو قرار الله القائل: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، وهو معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ولذلك فأرجو أن يعيد الإخوة أصحاب هذه الأطروحة النظر في أطروحتهم هذه، قبل أن يزجهم افتئاتهم هذا في العراء.

دعونا من الحديث عن الإسلام، أليس ثمة شيء يقدسه هؤلاء الإخوة في الحياة؟..

لاشك أن في حياتهم الكثير مما يقدسونه.. لا شك أن لكل منهم مبدأ يأخذ نفسه به: إن كان إلحاداً، إذن فهو يقدس الإلحاد، وإن كان بوهيمية إذن فهو يقدس البوهيمية، إن كان وجودية إذن فهو يقدس الوجودية، وإن كانت اللاأدرية إذن فهو يقدس اللاأدرية.

بل إني ما رأيت واحداً من هؤلاء إلا وهو يقدس رجلاً من الناس، ربما فيلسوفاً.. أو فناناً.. أو.. إلخ، تنظر فتجده يقرأ أفكاره ونظرياته الفلسفية، ويجلس يتحدث عن دقائقه الفكرية وعبقريته النادرة دون أن يملَّ.. أليس هذا من أجلِّ مظاهر التقديس؟..

صفوة القول أنه لا يمكن للعاقل أن يكون عقله فارغاً من التقديس، لابد أن يقدس شيئاً. ثم إما أن يصيب عقله الحق فيقدس الحق، وإما أن ينأى عقله عن الحق وتختلط عليه الأوراق، فيقدس ما يشتبه عليه أنه الحق. والمطلوب من

الإنسان، كما قال باسكال: أن يجدّ ويسعى إلى معرفة الحق الذي هو الله، ولا يوجد في الكون أكبر وأعظم من الله.

يقول باسكال: «الناس ثلاثة أقسام: أناس ساروا في الطريق فعرفوا الله، فهم سعداء بمعرفته والركون إليه، وأناس جادون في البحث عنه، وهم أيضاً سعداء بسيرهم إليه، وأناس لم يصلوا إلى الله، ولا هم جادُّون في البحث عنه، وهؤلاء هم الذين يعيشون على هامش التاريخ، ومردهم أو نهايتهم إلى الشقاء».

أعتقد أن هذا القدر من الحديث عن هذه الأطروحة ومناقشتها كافٍ ومقنع.



يُغَالِطُونَكَ إِذْ يَقُولُونَ:

# نِظَامُ ٱلْحُكْمِ ٱلْإِسْلَامِيِّ
# يَتَنَاقَضُ مَعَ ٱلْمَنْهَجِ ٱلدِّيْمُقْرَاطِيِّ

تعالوا بنا أيها الإخوة، نناقش أطروحة أخرى، مفادها دعوى: أن الحكم الإسلام يصادر النهج الديمقراطي، ويصدُّ الناس عن ممارستهم لحرياتهم، ولعل كثيراً منكم سمع هذه الدعوى أو قرأها في مقالات أو حصيلة ندوات.. فما معنى هذه الدعوى، وما الدليل عليها؟

تعلمون أن الناس جميعاً يطمحون في هذا العصر إلى حكم يتمتع بما يسمى: «الديمقراطية» أو «الشورى»، أي: إلى حكم يتم التفاعل فيه إيجابياً بين الطبقة الحاكمة وبين الرعية أو الشعب، ولن تجد تفاعلاً أبقى ولا أغنى من الحرية التي يعيش في ظلالها المجتمع كله سارية ما بين القمة الحاكمة والقاعدة الشعبية.

وهذا الطموح أمر جدير بالاهتمام، وكلنا نقرُّه ونؤيده. ولقد كان الاستبداد ولا يزال أبعد ما يكون عن إيصال الشعوب إلى حقوقها وتحقيق أمنياتها، إذاً فهنالك هدف كان ولا يزال مطمح أبصارنا جميعاً، هو أن نعيش في ظل حكم نتغذى فيه بالحرية، ونستطيع أن نعبر فيه عن أفكارنا وآرائنا، مهما تنوعت هذه الآراء، ومهما اتفقت أو اختلفت.

غير أن في الناس اليوم من يتخوفون من أن الحكم الإسلامي، الذي تتم الدعوة إليه على مستويات شتى وفي مختلف البقاع العربية والإسلامية، لو تربع على أريكة القيادة والتنفيذ، فلسوف يحرم الناس من هذه الحرية التي يطمحون إليها، ولسوف يقضي بغلق أبواب الديمقراطية والشورى.

ودليلهم على ذلك ما يتصورونه من أن الإسلام يقرُّ طائفة من التصرفات،

ويستنكر طائفة أخرى منها، ومن شأنه أن يحارب التصرفات التي لا يقرُّها، سواء أكانت تصرفات قولية أو فعلية. فالإسلام مثلاً يتبنى معتقداً معيناً، ويطلب من الناس جميعاً أن يصطبغوا به، إذن فهو لن يقر مذاهب تتعارض مع المعتقد الذي يدعو إليه، ومن ثم فإن أصحاب هذه المذاهب لن يتمتعوا بأي حرية في التعبير عن أفكارهم وعن مذاهبهم التي تتعارض فعلاً مع الإسلام.

ويتصور هؤلاء الإخوة، أن الإسلاميين الذين يبحثون عن الديمقراطية وعن الحرية في مجال انتقادهم لحكامهم، إنما يبحثون عنها ريثما يصلون هم إلى الحكم، فإذا وصلوا إلى كراسي الحكم واطمأنوا إلى ثباتهم عليها، فإنهم يتنكرون لما كانوا يهتفون به بالأمس، ويتجاهلون ما كانوا ينادون به من قبل، ويغلقون دونه الأبواب، ومن ثم فلن يتمتع بالحرية أحد غيرهم. هكذا يتصور الذين يطرحون هذه الدعوى ويقولون: إن الحكم الإسلامي يصادر حرية القول وحرية الرأي والنظر.

ترى هل هذا الأمر الذي يتخوَّف منه أصحاب هذه الأطروحة حقيقة؟ هل هو في الواقع خطر ينبع من نظام الإسلام وطريقة حكمه؟

أي: لو فرضنا أن فئة من الناس أتيح لها أن تحكم بالإسلام فعلاً، وكانت مخلصة لدين الله وفية له أمينة على أحكامه، بصيرة بالإسلام تماماً كما أنزله الله، وكما بينه لنا رسول الله ﷺ هل ستقدم هذه الفئة على تنفيذ هذا الذي يتخوف منه هؤلاء الناس؟.. فيكممون الأفواه التي تنطق بما يعارض الإسلام؟.. هل سيصدُّون الناس عن منابر القول إلا المنبر الواحد الذي يتفق صداه مع الإسلام؟..

الجواب: إن هذا الخطر وهم، قائم على وهم، ولا يستند إلى أي حقيقة دينية موجودة في الإسلام.

وأنا لا أنطلق من تمجيد اصطناعي للإسلام، ولا تجميل له ولا تحسين يدعوكم إلى الافتتان به، معاذ الله، إنني أضعكم أمام الإسلام عارياً إلا عن ذاته، ليس فيه إلا حقيقته. ولن أجمِّل الإسلام بما ليس فيه. ومن هذا المنطلق أقول لكم: إن هذا الخطر وهم، وما ينبغي أن نضعه في أي حساب إسلامي من أذهاننا.

ومع الأسف.. إن السبب الذي جعل هذا الوهم يسري إلى عقول أصحاب هذه الدعوة، هو بعدهم عن دراسة الإسلام.. فلو أنهم درسوا الإسلام دراسة حقيقية من مصادره الحقيقية لعلموا أن هذا الخطر غير وارد.

هذا بالإضافة إلى سبب آخر يقف إلى جانب جهلهم بالإسلام؛ هو: أن كثيراً من الإسلاميين اليوم يخططون فعلاً لهذا الذي يخافه ويخشاه أصحاب هذه الأطروحة.

ولكن هل هؤلاء الذين يسمون: «بالإسلاميين» يعبرون بمعارفهم وسلوكهم عن حقيقة الإسلام؟

ما ينبغي أن نُخدَع بالأوهام إلى هذه الدرجة.. من الواضح أن كثيراً من الإسلاميين يتقلبون في أحلام عجيبة، ويتصرفون من الآن قبل أن يصلوا إلى الحكم تصرفاً لا علاقة له بالإسلام، يتصرفون تصرفاً نابعاً من رعونات، شخصية.. من عصبيات وأوهام.. فهل العلاج أن لا ندين بالإسلام عندما نجد من يخطئ باسم الإسلام؟!

السبيل إلى أن نتحرر من هذه الأوهام أن ندرس الإسلام، أنا واحد ممن يرى ويسمع هذه الأوهام المكسوة بأحلامها الباطلة وهي مخيفة فعلاً، ولكنني تحررت منها، لأنني درست الإسلام، ولأنني فهمته فهماً جيداً، وأخذته من ينابيعه، ولذلك فأنا مطمئن البال إلى خرافية هذه الأحلام وبطلانها.

إن الإسلام الحقيقي إذا حكم فلن يضيِّق السبيل إلى الحرية أبداً، ولن يوصد باباً من أبواب الشورى أو الديمقراطية السليمة، (وأنا لا أتحدث عن الديمقراطية الزائفة) وإليكم التفصيل:

لا شك أن الإسلام دين، ومعنى كونه ديناً: أنه دعوة للناس جميعاً إلى أن يصطبغوا بصبغة العبودية لله، بسلوكهم الاختياري كما قد صُبغوا بصبغة العبودية لله بواقعهم الاضطراري، هذا معنى كون الإسلام ديناً.

فالإسلام خطاب مُوجَّه من الله عز وجل لسائر عباد الله، يقول لهم: يا أيها الناس انظروا وتأملوا في أنفسكم؛ ستجدون أنكم مصبوغون بحقيقة العبودية لله بالطبع والانفعال، مطلوب منكم إذن أن تصطبغوا بهذه الحقيقة أيضاً بالسلوك والاختيار.

كما أنني عبد الله عز وجل بواقعي الاضطراري (ودلائل ذلك واضحة أنا منفعل بكل قدراتي ولست فاعلاً لشيء منها)، إذاً ينبغي أن أكون أيضاً عبداً لله بسلوكي وفهمي الاختياري، وإذا اصطبغ أحدنا بهذا الدين أيقن أنه عبد لله، ولابدَّ أن يلزمه يقينه هذا بالسير على المنهج الذي رسمه الله عز وجل، وبهذا تتحقق عبوديتي لله اختياراً، كما قد اصطبغت بها اضطراراً.

ولكن عندما يقول لي الله سبحانه وتعالى: اسلك هذا النهج، سر على هذا الصراط، نفذ هذه الأوامر، ابتعد عن النواهي، هل يقيدني الله عز وجل من ذلك بأغلال، ويزجني زجاً في الطريق الذي يأمرني به؟

الجواب واضح.. إن الله عز وجل عندما كلَّفَ عباده لم يقيِّد أحداً منهم بأغلال ولا بقيود، وإنما متعهم بعكس ذلك تماماً.. متعهم بالحرية وملَّكهم الاختيار وأقدرهم على اتخاذ القرار، وجعلهم يستطيعون أن يسيروا في جنبات الأرض والدنيا كما يشاؤون، ثم قال لهم: الآن وأنتم تملكون قدراتكم،

وتستطيعون أن تتخذوا القرار الذي تشاؤون، أطلب منكم أن تفعلوا هذا وتتركوا ذاك، وعندئذ يستبين معنى استجابة الإنسان للتكليف، وهذا معنى قول العلماء: إن التكليف لا يُستَنبَتُ إلا في تربة الحرية.. تكون حراً يأتي سلطان التكليف ليخاطبك، فإذا زالت الحرية لسبب من الأسباب، أياً كان، يختفي عندها التكليف، لذلك قالوا: الناسي لا يكلّف.. المكره لا يكلف.. الغافل لا يكلف.. يقول رسول الله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

غير أن ثمة قهراً آخر يلاحق الله به عباده ويتوعدهم به يوم القيامة، بعد أن تركهم أحراراً في الدنيا يطيعون إن شاؤوا أولا يطيعون.

يعدهم إن هم نفذوا أوامره بالأجر الوفير، ويتوعدهم إن هم ابتعدوا عن أوامره بالعقاب الشديد، ثم يتركهم في هذه الدنيا يفعلون ما يشاءون، يقول عز وجل: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، ويقول لرسوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٤]، ويقول: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

والآيات المعبرة عن هذا المعنى كثيرة، فإذا كان الله وهو قيوم السماوات والأرض لا يُلزِمُ عباده في الدنيا بأن يتمسكوا بشرائعه، وإنما يطلب منهم أن يتمسكوا بها طوعاً، ولا يلزمهم بها كرهاً، أفيملك الحكام أن يجبروهم بما لم يجبر ـ هو ـ به الناس؟..

إذا لم يأمر الله رسله وأنبيائه بأن يجبروا الناس إجباراً، أفيلزم الله الحكام بعد الرسل والأنبياء بأن يجبروا الناس، وأن يحرموهم من حرياتهم، وأن يفصلوهم عن إمكان اتخاذهم القرارات التي يشاؤون؟

هذا يتناقض تناقضاً كلياً مع طبيعة الإسلام، بل مع طبيعة التكليف، لأن من الثابت أن الأحكام التكليفية لا تُغرَسُ إلا في تربة الحرية، تكون حراً قادراً على اتخاذ القرار الذي تشاء، يأتيك عندئذ خطاب الله قائلاً: افعل هذا ولا تفعل هذا، فإذا أصبحت مكرهاً مصفداً بالأغلال، مقيداً عاجزاً عن اتخاذ قرارك، يبتعد عندئذ عنك التكليف. يجب أن يعلم كل مسلم هذه الحقيقة.

فإذا جاء من يقيم أحكام الله غداً (ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا الآتي راشداً واعياً بعيداً عن الأسبقيات والخلفيات النائية عن جوهر الإسلام) كيف يجب أن تكون سياسة هذا الحاكم في تنفيذه لأحكام الله؟

يجب عليه أن يسير وراء الخطى التي سارها رسول الله ﷺ إذ كان رئيس دولة إلى جانب كونه مبلغاً عن الله سبحانه وتعالى، وعندئذ سيجد نفسه مُلجأ إلى أن يدير الحكم بين الناس على أساس من محور الشورى، ولا يستطيع أن يبرم بأمر لم ينص عليه بيان الله ولا سنة رسوله إلا بعد الرجوع إلى هذا المحور، فهذه واحدة.

وإذا رأى أن في المجتمع من ينحرفون إلى آراء مخالفة للإسلام، أو من يجتهدون اجتهادات معارضة لدين الله سبحانه وتعالى، أو من يريدون أن يعبروا عن أفكار تختلف كل الاختلاف عما ينادي به كتاب الله وسنة رسول الله، فليس السبيل الشرعي أن يصدَّ أصحاب هذه الآراء الجانحة، أو أن يعاقبهم، أو أن يزجَّهم في سجون، أو أن يسكتهم.. ما سمعت أن الإسلام الذي ابتعث الله به الرسل والأنبياء جميعاً، ثم ابتعث به خاتم الرسل والأنبياء محمداً عليه الصلاة والسلام، دعا إلى شيء من هذا كله!..

كيف والإسلام يقول في أول مصدر من مصادره ألا وهو كتاب الله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ما معنى: وجادلهم، ما الجدل؟ الجدل: هو الأخذ والعطاء، أي: خذ من الكافرين وأصحاب الأفكار الجانحة آراءهم، أصغِ إليها، استمع إليها، ثم رد عليها بالحق الذي ابتعثتك به، هذا معنى قوله عز وجل: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]. فهل يمكن لرسول الله أن يجادل المبطلين، أو للحكام المسلمين من بعده أن يجادلوا المبطلين، إلا إذا أصغوا إلى المبطلين. إلا إذا أصغوا إلى كلامهم؟..

كيف أجادل المبطل إذا أسكتُّه ولم أسمع رأيه؟!

إذاً لكي أنفذ أمر الله ينبغي أن أقول للمبطل أياً كان: ما المذهب الذي تراه؟ ما الفكرة التي تنادي بها؟ قلها وأنت مطمئن تمارس حريتك.. فإذا عبر عن رأيه آمناً مطمئناً فإن علي بعد ذلك أن أضع شبهته هذه في الميزان، وأبين له الخطأ، وأوضح أنه تائه عن الحق في هذا الذي يقول، والميزان المُحكَّم بيني وبينه هو العقل والمنطق.. هو العلم الذي قال الله عز وجل عنه: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦]، إذاً فالله عز وجل في هذه الآية يأمر كما تلاحظون بأن ندع الزهرات كلها تتفتح، حتى وإن كان فيها ما يسمى زهراً وهو شوك، دعها جميعاً تتفتح وسيستبين الشوك فيها من الورد. وهذا هو المقصود من قول الله عز وجل ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

قد يقال: إن هذا كلام نظري!.. إذن تعالوا ننظر إلى الواقع العملي الذي يجسد هذه الوصية الإلهية، ماذا كان موقف رسول الله ﷺ من المبطلين؟ ما هو موقفه من الجانحين؟

لقد كانت حياته كلها إصغاءً إلى بطلان المبطلين ونقاشاً لهم، وها أنا أستعرض معكم على وجه السرعة بعض المواقف:

وفد نصارى نجران جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، استقبلهم ﷺ في مسجده

مكرمين، وأصغى إلى أقوالهم، وتركهم أحراراً يقولون ما يشاؤون.. ثم ناقشهم، ثم تكلموا، ثم ناقشهم وتكلموا، ثم ناقشهم، ثم دعاهم إلى المباهلة فرفضوا، وكانت النتيجة أن تركهم رسول الله ﷺ لما يدينون، ويرتؤون.

المشركون الذين كانوا يدافعون عن شركهم، لم يسكتهم الرسول ﷺ، لا في مكة قبل أن ينهض الحكم الإسلامي، ولا في المدينة في ظل الحكم الإسلامي، وإنما ترك الناس أحراراً يفعلون ما يشاؤون ويقولون ما يريدون، ولكنه كان يناقش.. وكان يجادل.. وكان يدعو.. وكان يُسَفِّهُ الأفكار التائهة المنحرفة.

كيف كانت سيرة الخلفاء في هذا بعد رسول الله؟

لقد ساروا على هذا المنوال تماماً، تركوا الناس يقولون ما يشاؤون، لكن على أن يُعقَّب الباطل بالجدل وبالنقاش وببيان الحق، فالدعوة ينبغي أن تكون سائرة، وينبغي أن تُجنَّد السبل والوسائل كلها من أجل بيان الحق، ومن أجل تجنيد المنطق والعقل والعلم لاستظهاره والدعوة إليه.

وانظروا إلى هذا المثال الجليّ: في القرن الثاني الهجري ولدت الفرق الباطلة المنحرفة، وتكاثر بعضها من بعض. وقد خرج البعض منها عن رِبْقَةِ الإسلام، ووقع في مزالق الكفر، منها المعتزلة بكل فرقهم التي تزيد على عشرين فرقة، وكل فرقة تكفِّر الواحدة منها الأخرى، المُرجئة، الجهمية، الحشوية، القدرية، الجبرية الخوارج إلى آخر ما هنالك.

هذه فقاقيع من الفرق، كل منها قليلة الأشخاص والأعداد، لكنها ظهرت على مسرح المجتمع الإسلامي وفي ظل الحكم الإسلامي، وقد استعلن كل منها بآرائه الجانحه، فماذا كان موقف الحكم الإسلامي منها؟ هل كان موقفه العقاب والإسكات؟ أم كان موقفه منها سوقهم إلى السجون؟

يعرف الجواب كل مثقف.. لقد تُرك هؤلاء الناس يتحدثون كما يشاؤون، ويدللون على أفكارهم الزائغة كما يحبون، الشيء الوحيد الذي مارسه الحكام في هذا الصدد هو مناقشة هؤلاء الناس ومجادلتهم، ولعلكم تعلمون أن مسجد الكوفة ومسجد البصرة، كان يفيض كل منهما دائماً ويزخر بالحلقات المتنوعة المختلفة، لكل تلك الأفكار الجانحة!.. ها هنا حلقة ينادي المدرس فيها بالفكر الاعتزالي، وهنالك أخرى يُدعى فيها إلى الفكر الجهمي، وهنالك حلقة ثالثة يعبر فيها المدرس عن الرأي المرجئي، وهكذا.. وكان جمهور المسلمين أهل السنة والجماعة وهم السواد الأعظم يناقشون الجميع..

ولو أننا أردنا أن ننظر إلى الواقع، الذي كانت تزخر به مساجد البصرة والكوفة آنذاك، لرأينا أعظم مظهر من مظاهر حرية الرأي والفكر في تلك المساجد.

ومن المعلوم أن تلك الفرق سادت، ثم تقلصت، ثم بادت.. ولكن أفبادت تحت وطأة الإسكات والقهر والعقاب..؟ لا.. إنما زالت عن طريق استمرار المناقشة والحوار.

نعم، لقد جنح المعتزلة في فترة صلتهم بالحكم والحكام وسيطرتهم على أفكار المأمون ومن بعده، إلى القهر والبطش، مستعينين بسلطان الدولة.. حيث حاق الضُرُّ والأذى بأحمد بن حنبل وآخرين لعدم اقتناعهم بأفكار المعتزلة..

ولكن المعتزلة لم يكونوا اللسان الناطق آنذاك باسم الإسلام، بل كانوا ككثير من الإسلاميين الحركيين اليوم، يسعون إلى بسط رعوناتهم على الناس باسم الإسلام وتحت مظلته وحكمه. وكانوا كما هو معروف، مظهر جنوح عن الإسلام، سواء في فهمه أو في تطبيقه.

قد يقول أحدهم: فيم إذن يلاحق الحكم الإسلامي الناس العاصين

بالعقاب؟.. إذا سرق السارق قُطِعَت يده.. إذا ارتكب الفاحشة جلد أو رجم.. وإذا قذف تعرض لعقاب القذف.. وهكذا.. وبالجملة فإن في شريعة الإسلام ما يُسمَّى بالحدود التي تلاحق المجرمين والمرتكبين لهذه الجنايات وأمثالها.

الجواب أن هذه العقوبات لا تتعارض مع الحرية التي أكرم الله سبحانه وتعالى بها الإنسان، لا سيما تحت مظلة الحكم الإسلامي.. العقوبات التي شرعها الله عز وجل إنما شرعت حماية لحق الإنسان، فلو لم يشرع الله سبحانه وتعالى عقاباً زاجراً للسارق لضاعت حقوق الناس فيما يتعلق برعاية ممتلكاتهم، ولو لم يشرع الله عقاباً زاجراً للقاذف لضاعت حقوق الناس فيما يتعلق بضرورة المحافظة على كرامتهم، ولو لم يشرع الله عقاباً لمرتكبي الفواحش، إذن لضاعت حقوق الناس في المحافظة على الأسرة وفي المحافظة على العرض والأنساب.

وكما أن للإنسان حقوقاً، فلله سبحانه وتعالى أيضاً حقوق، ومع هذا فهنالك ضوابط، وهناك قيود وشروط شديدة وقاسية جداً لإقامة هذه الحدود، وحسبكم أن تعلموا أن الحاكم إذا وجد نفسه أمام أدنى شبهة، وجب أن توجه لصالح المتهم، ومن ثم فإن الحد يُدرأ، وعلى الحاكم أن يستعيض عنه بما يسمى: «التعزير»، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ فيما ترويه عائشة: «ادرؤوا الحدود بالشبهات ما استطعتم، فإن الحاكم لأن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة».

وهكذا فإن العقوبات التي يرسمها الشارع ويأمر بتطبيقها تحت مظلة الحكم الإسلامي، لا تتعارض إطلاقاً مع ما فُتِحَ المجال واسعاً فيه لحريات الناس في أن يعبروا عن أفكارهم وعن اتجاهاتهم ومذاهبهم كما يشاؤون، وفي أن ينشئوا صفوف معارضة أيضاً للدولة الحاكمة.. وما سمعنا خبر دولة على وجه الأرض

في عصرنا اليوم، أو قبل هذا اليوم، إلا وهي تأخذ رعاياها بالعقوبات الزاجرة بالنسبة للجناة وللمسيئين لحقوق الآخرين.

بقي أن ننبه إلى الضوابط التي يقيد بها الإسلام حرية الناس تحت مظلة الحكم الإسلامي.

قلت وأؤكد: أن أية دولة إسلامية إذا أتيح لها أن تطبق شريعة الله سبحانه وتعالى، كما أمر الله، وكما كان سيدنا محمد ﷺ يطبقها فلا بد لها أن ترعى حريات الناس، وأن تهتم بالمحافظة عليها. وذكرنا الأدلة الكثيرة على هذا من قبل، وأوضحنا موقف الدولة الإسلامية من الفرق الجانحة التي تكاثرت في القرن الثاني، وكلها كانت جانحة عن الإسلام، بل ربما انزلق بعض منها إلى الكفر، ومع ذلك فإن الدولة الإسلامية لم تقف منها موقف المصادر لحرياتها، ولم تعاقب أحداً من أقطابها ولم تكفَّ ألسنة الناس عن التعبير عن آرائهم وأفكارهم، وإنما اعتمدت الدولة الإسلامية على شيء آخر هو الحوار والنقاش.

لكني أعود فأقول: هنالك ضوابط لابد من رعاية الدولة لها عندما تنظم الحريات، وتسعى في سبيل حمايتها. لعل أول ضابط منها أن تتبين الدولة أن المعارضة، (حسب التعبير الحديث) أو أن أصحاب الآراء الأخرى إنما يعبرون عن آرائهم وأفكارهم الذاتية النابعة من دخائلهم.. فأما إن تبين للدولة الإسلامية أن هنالك وحياً خارجياً يقود هذه المعارضة، أو يوجِّه أصحاب هذه الأفكار الأخرى، وأنهم يعبرون عنها بدافع من تلك الحوافز الخارجية، الآتية ربما من خارج العالم الإسلامي، فإن على الدولة في هذه الحال أن تصادر هذه الحريات، لأنها ليست في الحقيقة من آثار الحرية الذاتية المقدسة، وإنما هي في الحقيقة خادمٌ لأفكار أجنبية لا علاقة لهذه الأمة بها.

أي: إن هؤلاء الذين يتراءى لنا أنهم يمارسون حرياتهم الشخصية ليسوا إلا

عملاء لخطط أجنبية ماكرة متربصة، ومن ذا الذي يقول: إن مثل هذه الحريات تقدس وتترك لتفعل ما تريد أن تفعله؟!..

عندما تكون الحرية ظلاً لأنشطة معادية أجنبية فلابد أن نقضي على الظل من خلال القضاء على أصله، وأعتقد أن هذا الضابط محل اتفاق، ولا يمكن أن يعارضه أحد، وما أحسب أن في العالم اليوم دولة تترك الناس أحراراً عندما تعلم أن هؤلاء الناس لا يمارسون حرياتهم الداخلية الشخصية، وإنما يمارسون من خلال مظهرها عمالة لدولة أجنبية معادية.

فهذا هو الضابط الأول.

الضابط الثاني أن لا تتجه أنشطة المعارضة وأنشطة المذاهب السياسية أو الثقافية أو الفكرية الأخرى، إلى تقويض الحكم الإسلامي، أي: أن لا تتجه إلى القضاء على الإسلام ذاته وجوهره من خلال القضاء على هذا الحكم.. فإذا تبين للدولة أن المعارضة تتجه إلى هذا القصد، فمما لا ريب فيه أن هذه الحرية يجب أن تُصادَر، إذ لم يَعُد لها من القداسة والقيمة شروى نقير.. وهذا ما يقضي به النظام العالمي كله، وهو ما تسير عليه دول العالم أجمع.

وأزيد هذا الضابط وضوحاً فأقول: أرأيتم لو أن دولة من الدول، أياً كان نظامها، استبدادياً، أو ديمقراطياً، شعرت أو اكتشفت أن في داخل تلك الدولة فئة تخطط لعملية انقلابية فيها، ما الموقف الذي تتخذه منها؟..

الجواب معلوم.. لابد أنها ستقضي وفي أسرع وقت ممكن، على هذه الخطة وأصحابها، لابد أن تأخذهم بجريرة هذا العمل، إذ هو عمل خياني ولا ريب، ولا يمكن لأحد أن يقول: بل إن على الدولة أن تقدس الحرية، وإن عليها أن تترك هؤلاء الناس أحراراً، يتصرفون كما يشاؤون وأن تدعهم يتسلقون أجهزة الحكم وكراسي الحكم، وأن يذهبوا بنظام الدولة ويستبدلوا به ما يشاؤون.

لو أخذنا بهذا المنطق إذن لكان لكل إنسان أن يفعل هذا، ومن ثم فلن توجد دولة، ذلك لأن على هؤلاء الذين جاؤوا ونجحوا في عملهم الانقلابي، أن يغضوا هم أيضاً الطرف عمن سيأتي من بعدهم ليقوموا بالعمل ذاته، وعليهم هم أيضاً أن يتهيؤوا لمن يفعل بهم الفعل ذاته وهكذا.. وعندئذ لا تكون الدولة دولة، إنما يصبح هذا المجتمع عبارة عن قدر يغلي بالفتن ويغلي بالمشكلات، وهيهات لمجتمع هذا شأنه أن يؤدي مهمة إنسانية على صعيد الواقع الإنساني في حال من الأحوال.

إذن فالشريعة الإسلامية تقول لرعايا الدولة الإسلامية: لكم أن تعبروا عن انتقاداتكم كما تشاؤون، ولكم أن تعلنوا عن اجتهاداتكم المتفقة مع شرائع الله عز وجل، أو المخالفة لها كما تحبون، ولكم أن تعبروا عن قناعاتكم السياسية التي تخالف قناعة الدولة أيضاً كما تحبون، كل هذا داخل في حقوق حرياتكم ولكن مع مراعاة الضوابط التي ذكرناها.

ولقد أخذت الدولة الإسلامية نفسها في صدر الإسلام بهذا المبدأ، واستمر الأمر في القرن الثاني على المنوال ذاته، وإلا لما ظهرت الفرق الإسلامية المختلفة المخالفة في عقيدتها لعقيدة الدولة.

ولكن إذا اتجهت المعارضة، أو اتجه أصحاب النزعات السياسية، من فئات وأحزاب ونحو ذلك، إلى وضع خطة للقضاء على الحكم الإسلامي أو للقضاء على الإسلام المتمثل في هذا الحكم، فالأمر عندئذ يختلف.

كذلكم الأمر عندما تغدو الحرية الداخلية نافذة تسرب للإيحاءات والأفكار الأجنبية الوافدة. إذ من الواضح أن هذا يغدو استغلالاً للديمقراطية والحرية، وتسخيراً لهما ضد أصحابهما، وهي جريمة لا يقبل بها عاقل!...

هذان هما الضابطان اللذان ينبغي أن يلاحظا فيما يتعلق بالحرية، التي تفتح

الشريعة الإسلامية بابها في ظل دولة إسلامية راشدة، تؤدي الواجب الذي شرعه الله سبحانه وتعالى، فهل من اعتراض على أي من هذين الضابطين؟..

ما أظن أن ثمة من يكابر ليعترض!..

ولكن كأني بكم تقولون: وإذا أعلن أحدهم عن رِدَّتِهِ وخروجه من الإسلام، أفتتركه الدولة الإسلامية حراً في ردته وتصرفه؟.. أقول في الجواب: إن هذا الإنسان الذي غَيَّرَ عقيدته، وترك الإسلام بعد أن كان مسلماً، واعتنق ديناً آخر أو عقيدة أخرى، لا يخلو وضعه من إحدى حالتين:

الحالة الأولى: أن يغير معتقده بينه وبين نفسه، فلا يجلجل به في الأوساط ولا يعلن به بين الناس، إذ كان الإسلام قناعة مهيمنة على فكره، فانطوت وغابت لترتسم في ذهنه قناعة أخرى، وأخذ يتعامل داخل حدوده الذاتية مع قناعته الثانية.. في هذه الحالة لا يلاحقه أحد ولا يتجسس عليه لمعرفة دخيلة نفسه أحد.

الحالة الثانية: أن يعمد هذا الإنسان، الذي ارتد عن الإسلام، فيعلن ارتداده، ويجعل من ارتداده إعلاناً كبيراً يجلجل به في المجامع التي هو فيها، ويعلن بين الغادين والرائحين أنه كان تائهاً وكان ضالاً، واهتدى بزعمه إلى الصراط المستقيم، ينشط إلى ذلك متحدثاً بلسانه أو كاتباً بقلمه، في سائر الفرص السانحة له.

لا ريب أنه في هذه الحالة الثانية، انقلب إلى عنصر محاربة للمجتمع الإسلامي. إذ كان بوسعه لو لم يضمر الحرابة لنظام المجتمع الذي هو فيه، أن يجتر عقيدته الجديدة بينه وبين نفسه في داره حتى مع أهله وأولاده، أو كان بوسعه أن يخرج من هذا المجتمع فيلتحق بمجتمع آخر ليبعد شره عن المجتمع الذي كان فيه، ولينسجم مع مجتمعه الجديد الذي يتفق معه أن يفعل هذا أو ذاك.

وإذ لم يرتض أياً منهما، بل أصر على أن يجلجل بمعتقده الجديد، ويدعو الناس إلى فكره، مؤيداً له ومدافعاً عنه، فلا شك أنه قد أبى إلا أن يحيل نفسه إلى جرثومة تسري بالعدوى في المجتمع؟ وهل فيكم من يشك في أن هذا الإنسان رفع بذلك من عقيدته الجديدة، سلاح حرب ضد المجتمع أو ضد الدولة التي هو فيها؟!..

الإسلام هنا يأخذه بجريرة المحاربة، لا يأخذه بجريرة اختياره لدين مكان دين. هذا هو رأي جمهرة كبيرة من الفقهاء منهم السادة الحنفية. والدليل على ذلك أن جريمته لو كانت تتمثل في أنه اعتنق ديناً غير الإسلام إذن للاحق الإسلام الكافر الأصلي أيضاً، في حين أن الإسلام يأمرنا بأن نتركه لما يدين، ويمنعنا من ملاحقته وحمله على أن يترك دينه الذي نشأ عليه، وإنما نملك تجاهه النصح والدعوة والحوار.

وهذا دليل واضح على أن ملاحقة المرتد المستعلن والمتباهي بردته تعود إلى سبب الحرابة، أي: لأنه جعل من عمله هذا سلاح حرب ضد المجتمع الذي هو فيه.

بعد كل هذا الذي تم بيانه أعود إلى هذه الدعوى التي يرددها بعض الناس، وهي زعم أن الحكم الإسلامي يصادر حرية القول وحرية النظر والإرادة فأقول لأصحابها:

اطمئنوا.. وتأكدوا أنه إذا قامت الدولة الإسلامية على المنهج الإسلامي الرشيد المنضبط بالتعاليم الإسلامية الحقيقية، فلن تزداد الحرية تحت مظلة هذه الدولة إلا قوة، وتألقاً.. ولسوف يمكن للإنسان أن يمارس حريته كما يشاء، ولا أقول: جربوا لتروا، ولكن أقول: اقرؤوا الإسلام في مصادره الأساسية، اقرؤوا الإسلام في أمهات الشريعة الإسلامية لتتأكدوا من هذا الذي أقوله لكم، ولا

تحاولوا أن تفهموا الإسلام من خلال أخطاء شائعة، وتلك هي المصيبة التي يقع فيها المسلمون، أو يقع فيه كثير من المسلمين اليوم.

كثيرون هم الذين لم يُتَح لهم أن يدرسوا الإسلام، أو لم يريدوا أن يدرسوا الإسلام من مصادره وينابيعه، غير أنهم يحاولون أن ينسجوا في أفكارهم صورة للإسلام من خلال وقائع بعض الإسلاميين وأحوالهم..

ينظرون إلى واقعهم وتصرفاتهم هنا وهناك، ويجعلون من هذه التصرفات لساناً ناطقاً يُعبِّرُ عن الإسلام الذي أنزل الله سبحانه وتعالى، وقد كان الناس ولا يزالون غير معصومين، وواجبنا أن نعرف الرجال بالحق، لا أن نعرف الحق بواسطة الرجال، لاسيما هؤلاء الرجال.

كثيراً ما يكون في الناس من هم مجندون لتشويه الإسلام.. يمارسون عمالة دقيقة يتقاضون أجورهم عليها. أفيجوز أن يغيب هذا عن بال إنسان مثقف يعي طبيعة عصره؟!.. حتى لقد أصبح من شأن هؤلاء الناس أن يرى أحدهم مظاهر العنف هنا أو هناك باسم الإسلام، فلا يشك في أن الإسلام هو الذي يقضي بهذا كله!..

وأقول للجميع: دعوا الناس وارجعوا إلى المعين، ادرسوا الإسلام في مصادره، ودعوا التائهين لأخطائهم تجدوا مصداق ما أقول.

يُغَالِطُونَكَ إذْ يَقُولُونَ :

# سَاحَةُ ٱلْعِلْمِ لَا تَتَّسِعُ لِلْغَيْبِيَّاتِ

أمامنا الآن أطروحة جديدة، تعالوا نصغ إليها جيداً ثم نناقشها، لنتبين أهي حقيقة تستظل بموازين المنطق والعلم، أم هي أغلوطة من هذه الأغاليط التي ينبغي أن نأخذ حذرنا منها.. هي تلك المقولة الشائعة على ألسن كثير من الناس اليوم، والقائلة: ساحة العلم لا تتسع للغيبيات!..

والمراد منها أن الإنسان ينبغي أن يكون علمياً، وينبغي أن لا يخضع عقله إلا للعلم وقواعده، ولما كان العلم ينأى عن الغيبيات لبعدها عن موازين العلم، إذن ينبغي للإنسان أن يترفع بعقله فوقها، فلا يضع شيئاً منها في ميزان معتقداته.

ونظراً إلى أن الإيمان بالله عز وجل قائم على دعائم الغيبيات، إذن فمبادئ الإيمان بالله عز وجل خارجة عن ساحة العلم. وبما أننا اتفقنا على أن الإنسان ينبغي أن يكون علمياً، وما ينبغي أن يشَتطَّ عن موازين العلم ودائرته، إذن فعليه أن ينفض عقله عن الغيبيات الدينية، فلا يضعها في ميزان اعتباره قط!!.. هذا هو معنى مقولتهم، وهذا هو الهدف من ورائها.

وإذ قد عرفنا معنى هذه المقولة، وأدركنا الهدف الذي ترمي إليه فلنضعها في ميزان الرؤية العلمية، كما نصنع دائماً، بعيداً عن الأسبقيات والخلفيات، وبعيداً عن إيحاء الانتماء.

أجل، علينا أن نبذل كل ما نملك من جهد للتحرر من هذه الأسبقيات والعوائق كلها، كي يتاح لنا أن نتبين ما يقوله العلم عنها أهي حق أم باطل، إن كانت حقاً أخذنا بها، وإن كانت باطلاً أعرضنا عنها، وحذرنا الآخرين منها.

نبدأ فنناقش هذه المقولة من خلال النقطة الأولى، وهي السؤال الذي ينبغي أن نطرحه أولاً عن العلم وحقيقته.. ما العلم؟

عندما نقول: ساحة العلم لا تتسع للغيبيات، يجب أن نقف وقفة تأمل وتمحيص لمعنى كلمة: العلم. فما معنى هذه الكلمة؟

منذ أقدم العصور، ومنذ أقدم ما وعيناه من عمر الدنيا كلها، يتوارث العلماء هذا التعريف للعلم: «إدراك الشيء على ما هو عليه بدليل» هذا ما كان العلماء ولا يزالون، يقولونه في تعريف العلم، وربما تفننوا في العبارة فقالوا: «هو تطابق المفهوم الذهني للشيء مع الماصادق الخارجي له».

إذن منذ أقدم العصور والعلماء يَعرفُون هذا المعنى للعلم مُعبَّراً عنه بأحد التعريفين السابقين.

ندرك من هذا أن العلم كان ولا يزال عملية عقلية، تتم طبق منهج منطقي وطبق ضوابط محددة، يتم بها الكشف عن مجهول، ويتم بها إدراك هذا المجهول على ما هو عليه.

وإذا كان هذا هو العلم، فالعلم من شأنه أن يتناول الماضي السحيق الذي يغوص في أعمق أعماق ظلمات الماضي، كما يتناول المستقبل البعيد البعيد الذي لم نر تطبيقه بعد، كما يتناول الواقع الحاضر والخاضع للحس والمشاهدة. كما أن بوسعه أن يتناول الأمور المادية التي تقع تحت حواسنا، والأمور المعنوية التي لا تخضع لها.. لأن هذا هو مقتضى كون العلم عملية عقلية منضبطة محددة، يبتغى منها كشف شيء مجهول وإدراكه على ما هو عليه، يقال: فلان علم هذا الشيء، أي: أدركه على ما هو عليه بدليل. ونقول: فلان لم يعلم هذا الأمر، أي: لم يدركه أو أدركه على خلاف ما هو عليه، سواء أكان ذلك الأمر متعلقاً بتاريخ ماضٍ، أو بنبوءات مقبلة، أو متعلقاً بواقع مرئي وخاضع لحواسه، في هذا العصر الذي نحن فيه.

ولكن فما الذي آل إليه هذا التعريف العلمي للعلم، وأين غاب واختفى؟

عندما دخل عصر النهضة الغربية فوجئ العالم ـ أو أقول: فوجئت العقول ـ بتعريف جديد للعلم لا عهد للفلسفة ولا للعلماء به قط!..

فوجئنا بأن صلاحية العلم تقلصت في ظل النهضة الغربية الحديثة، ثم تقلصت ثم تقلصت، حتى أصبحت عملية العلم عملية مادية محصورة في دائرة الأمور المادية المحسوسة الخاضعة للتجربة والمشاهدة، وأصبح العلم في ظل هذا التقلص حكراً للعملية التالية: أن يرصد الإنسان مادة كونية خاضعة لحاسة من حواسه، ثم يمارس التجربة تلو التجربة حتى يستل من هذه التجربة رصيداً، ثم يجعل من هذا الرصيد قانوناً.

هذا هو العلم الذي اختُرِع في عصر النهضة!..

ومنذ ذلك الحين فوجئ العالم بأن العلم لا علاقة له بالماضي السحيق، ولا شأن له بالمستقبل البعيد، ولا شأن له بالحاضر الذي لا يخضع للحواس، وإنما العلم محصور فقط ضمن دائرة معينة، هي دائرة أشياء المادة الخاضعة لعين ترى أو أذن تسمع أو أنف يشم أو فم يذوق أو يد تلمس. وسبيل العلم، أو أداة العلم، التجربة والمشاهدة، بحيث لو أن إنساناً في هذا العصر يطمح إلى أن يعلم شيئاً عن ماضي الإنسان وأصل نشأته، وجاء يسأل العلم عن ذلك، فإن العلم (بمعناه الجديد) يقول له: لا شأن لي بهذا، فهو خارج عن اختصاصي.

وإذا جاء من يسأل العلم: ترى ما الذي ينتظر الإنسان بعد أن تنتهي رحلته في هذه الحياة الدنيا، وبعد أن يقتنصه الموت؟ سيقول له: وهذا أيضاً ليس من اختصاصي. وإذا جاء من يسأل العلم: مالموت الذي يتربص بنا؟ جاء الجواب: وهذا الآخر خارج عن دائرة اختصاصي.

وإذا جاء من يسأله عن هذا الذي يسمى الروح يأتيه الجواب ذاته قائلاً: وهذا أيضاً ليس من اختصاصي!..

أليس من حق أحدنا أن يقول: ما هو جدوى العلم إذن؟..

إذا كان العلم الذي كان من شأنه فيما مضى أن يغطي كل طموحات الإنسان، قد تقاعد عن معرفة كل هذه الأمور الكونية التي يعيش الإنسان في غمارها، والتي تتعلق بمنطلقه أو تتهدده في مصيره، أليس من حقنا أن نقول إذن: ما هو جدوى العلم والحالة هذه؟!..

والإنسان كان ولا يزال نزَّاعاً إلى معرفة ذاته، إلى معرفة أصله.. إلى معرفة الماضي الذي انبثق عنه.. ومعرفة النهاية التي يمضي إليها خلال رحلته في فجاج الحياة.. والموت الذي يرى أحداثه كل يوم دون أن يعلم حقيقته..

الإنسان نزَّاعٌ بفطرته وعقله إلى أن يعلم هذه الأمور كلها، ولكن المصيبة الكبرى، أنه عندما يلجأ إلى العلم (ولا شيء يُلجأ إليه في ذلك سواء) يفاجأ بأن العلم في مصطلح الحضارة الغربية الحديثة لا علاقة له بهذا كله، وبأن شيئاً من ذلك كله لا يدخل في اختصاصه، وبأنه قد تقاعد عن معالجة هذه القضايا كلها!..

هذا الواقع يتعارض كلياً مع المنطق ومع العقل..

ونحن نعلم أن أقدس ما يمكن أن يتعامل معه الإنسان في هذه الحياة هو العقل، وهو إنما يتعامل مع عقله من أجل أن يصل إلى اليقين في القضايا التي يجهلها أو يرتاب فيها، وهي قد تكون من المحسوسات المادية وقد تكون من القضايا المعنوية، وللعقل منهج علمي سليم للوصول إلى معرفتها على ما هي عليه بيقين.

سمِّ هذا اليقين علماً، سمّه معرفة، لا تسمّه شيئاً.. هذا هو المضمون الذي

يطمح إليه العلماء من وراء بحوثهم العلمية، ولا قيمة لتنوع المصطلحات، إذ إننا لا نتعامل في بحوثنا هذه مع المصطلحات، وإنما نتعامل مع المضمون.

ثم إنا إذا رجعنا إلى المخزون العقلي للإنسان؛ نجد أن في خزانة عقله يقينيات كثيرة يجزم بها دون أن يراها أو يحس بها.. فهو يجزم بأحداث تاريخية كثيرة وقعت، يجزم بالعصر الجاهلي ووجوده، يجزم بوجود شخص اسمه محمد بن عبد الله، أياً كانت هويته.. يجزم بالثورة الفرنسية، يجزم بالثورة البريطانية، يجزم بوجود معالم تاريخية، وإن لم يرها: الإهرامات في مصر، والكعبة في مكة، وتاج محل في الهند.. وإذا عدّدنا الأشياء التي تجزم بها عقولنا دون أن نبصرها، فستفوق العدَّ والحصر.

ترى هل تتأثر درجة اليقين في هذه المدركات اليقينية كلها، بتسميتها أو عدم تسميتها علماً؟.. وما هي مزية العلم عن اليقين المطابق للواقع؟..

نحن نصرُّ على أن اليقين المطابق للواقع هو العلم. ولكن فلنسمِّه علماً كما نرى، أو فلنسمه بأي اسم آخر كما قد يراه الآخرون، إن مطمح النظر في كلا الحالتين هو الوصول إلى اليقين المطابق للواقع، كما يقول جون ديوي في كتابه: «البحث عن اليقين».

وهذا هو الذي يجعلنا نسقط الفرق المتكلف الذي لا وجود له بين كلمتي: Science و Knowledge في المصطلح الغربي، إذ لا قيمة لما يسمى «العلم» إن لم يورث اليقين، ولا تهبط (المعرفة) عن أعلى درجات العلم إن كانت تورث اليقين.

ولم يقل أحد من العقلاء إن السبيل إلى اليقين محصور في أشياء المادة: أي: الخاضعة للحس، ومن ثم للتجربة والمشاهدة، بل الاتفاق قائم على أن السبيل إلى اليقين مفتوح أمام كل الموضوعات المادية والمعنوية أو الغيبية معاً.

والرجل الغربي يمارس هذه الحقيقة ولا يسعه أن يتخلى عنها، فهو يوقن بما هو واقع بالبداهة في تاريخه وإن لم يره، ويوقن بالوقائع المستقبلية المؤكدة وإن لم تقع بعد. ولا يهمني بعد هذا أن يسميها في مصطلحه علماً أولاً.. على أن اللغة العربية وتاريخ الحضارة العربية الإسلامية مجمعان على أنه العلم الذي لا ريب فيه.

بقي أن نتساءل: هل هناك منهج علمي ضابط يسير العقل على هديه ليصل إلى مدركات يقينية مطابقة للواقع، في الأمور الغيبية أي: غير الخاضعة للحس والتجربة؟.

ونقول في الجواب: نعم هنالك منهج علمي متبع يتضمن الضوابط والقواعد التي توصلنا إلى يقين مطابق للواقع في الأمور الغيبية التي هي محل البحث، كما أن ثمة منهجاً علمياً متبعاً يتضمن الضوابط والقواعد التي توصلنا إلى اليقين المطابق للواقع في الأمور المادية الخاضعة للتجربة والمشاهدة.

ومن المعلوم أن منهج الوصول إلى معلومات مادية، محصور في التجربة والمشاهدة.. وهذا ما يقرره القرآن ويأخذنا به. ألا ترى كيف يصرفنا عن الاستخبار بشأنها، ويدفعنا إلى أن نعرفها ونستبين أسرارها عن طريق الملاحظة والتجربة والمشاهدة؟ فهو يقول مثلاً: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٠١].. ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ...﴾ [العنكبوت: ٢٠] ويقول: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

أما منهج الوصول إلى معلومات يقينية لأمور غيبية غير خاضعة للتجربة والمشاهدة، فيتمثل في أحد طريقين:

أحدهما: طريق الاعتماد على الخبر اليقيني الذي يرقى إلى درجة التواتر.

فإذا توافر هذا الخبر المتصل بيننا وبين أمر معنوي أو غيبي غير خاضع

للحس، فلا ريب أن من شأن هذا الخبر أن يكسبنا اليقين. وهذا منهج علمي عالمي يتعامل معه العالم الإنساني أجمع، فهو كالعملة العالمية الرائجة.. العالم كله موقن بأخبار الثورة الفرنسية وأحداث الحرب الأولى والثانية.. والناس كلهم يستقبلون أنباء الأرصاد الجوية بوقوع خسوف أو كسوف أو هطول أمطار بكامل التصديق واليقين، على الرغم من أنها أنباء غيبية تتعلق بماض طواه الزمن عن التجربة والشهود، أو تتعلق بمستقبل لم ينشره الواقع الزمني بعد.. وإنما مستندهم العلمي في ذلك، الخبر المتواتر الذي تنقله جموع كثيرة عن مثلهم إلى مصدر الخبر بحيث يستحيل اتفاقهم جميعاً على الكذب.

ثاني الطريقين: ما يسمى: «بقانون التلازم»، ويتم اللجوء إليه عندما لا يتوافر الخبر المتواتر الذي يثمر اليقين بمضمونه. مثاله: أن يستيقن أحدنا وجود الماء في سفح بعيد يراه، عندما يبصر فوقه خضرة يانعة، أو بيوتاً مسكونة.. على الرغم من أنه لم ير الماء، وإنما أدلى بقرار غيبي بوجوده، وذلك اعتماداً على وجود ما يستلزمه وهو الخضرة اليانعة وسكنى الناس.

مثال آخر: يقول بعض الناس: إن الإنسان لم يكن يملك، في ماضيه القصيّ، عقلاً يفكر به، ثم إن شعوره المتطاول بحاجته إلى الطعام والشراب والمأوى فجَّر في كيانه الفكر والوعي!... ومن المعلوم أن هذه الدعوى تتعلق بأمر غيبي غير خاضع للحس ومن ثم غير خاضع للتجربة والمشاهدة.. فكيف السبيل إلى بلوغ يقين علمي بشأنها؟..

سبيل ذلك أن أفترض صحة هذه الدعوى، ثم أبحث عن آثارها التي تستلزمها مما يخضع للحس والمشاهدة، فإن رأيتها موجودة مائلة للعيان فالدعوى صحيحة، وإن بحثت فلم أجد هذه الآثار فهي إذن باطلة..

لا شك أن من آثار صحة هذه الدعوى، ومستلزماتها أن ننظر فنجد

الحيوانات العجماوات كلها تتمتع هي الأخرى بالوعي والأفكار كالإنسان تماماً، إذ هي الأخرى كانت تشعر بوطأة الحاجة إلى الطعام والشراب وبقية الحاجات العضوية.

ولما نظرنا فوجدنا أن هذا الأثر الذي تستلزمه تلك الدعوى غير موجود، علمنا أن الدعوى غير صحيحة، وأن الإنسان لم يكتسب الوعي بهذه الوسيلة.

ثم إن قانون التلازم هذا له أقسام وله ضوابط وشروط، وكل ذلك مبين ومفصل في المدونات التي تتحدث عن المنهج العلمي للمعرفة. ولا شك أنا لسنا بصدد الخوض في تفصيل هذا المنهج الذي هو فن برأسه(١).

أرأيتم إذن كيف أن المسائل الغيبية، لها هي الأخرى منهج علمي يوصل المتبصر به والسائر عليه، إلى يقين علمي بشأنها.. إذن، فمن هو هذا العالم الذي يحترم العلم وقواعده، ثم يقول: إن ساحة العلم لا تتسع للغيبيات؟!...

أعتقد مع ذلك، أن مناقشتنا لأصحاب هذه الدعوى لم تبلغ مداها بعد، فتعالوا نسألهم عن موقفهم العملي من الغيبيات.

تعالوا نسأل أصحاب هذه الدعوى: أفلا تتعاملون أنتم مع الغيبيات في شيء من اتجاهاتكم الفكرية وأوضاعكم المعاشية؟.. إن مقتضى دعواكم بأن الغيبيات لا مكان لها في ساحة العلم، ومقتضى تعاملكم المزعوم مع العلم، بل مع العلم وحده، أن لا يكون لكم أي صلة بالغيبيات، لا من حيث الاتجاهات الفكرية، ولا من حيث التعاملات المعاشية.. فهل أنتم كذلك؟

والجواب الذي ينطق به الواقع هو أنهم يسبحون في بحار لا شطآن لها من الغيبيات.. إن كلاً منهم يصرُّ قبل أن يخرج في الصباح إلى عمله، في أيام الشتاء على أن يصغي إلى نشرة الأخبار الجوية، ويلقي السمع إليها جيداً، فإذا سمع

---

(١) إذا شئت أن تقف على تفاصيل هذا المنهج فارجع إلى مقدمة كتابي: «كبرى اليقينيات الكونية».

أن أمطاراً سخية، في طريقها إلى الناس، أو أن درجة الحرار ستهبط، سترتفع، تفاعل مع هذا الخبر الغيبي تفاعلاً كبيراً، وأخذ عدته للبرد الذي أُخبِر عنه، أو للأمطار التي تنبأ صاحب النشرة الجوية بها، فلبس معطفه الذي يتقي به برد الشتاء، أو الذي يتقي به الأمطار، ثم خرج موقناً بأنه سيتلقى هذا النبأ في حينه!.. أليس هذا تعاملاً مع أمر غيبي، ومن ثم مع أمر خارج عن ساحة العلم، بالمعنى الذي يفهمه هؤلاء؟!

وإن كلاً منهم يصغي السمع جيداً إلى قانون جديد، أصدرته الدولة ونشر للتوّ، في الجريدة الرسمية، يتضمن التحذير من أن الذي يرتكب الجريمة الفلانية، فسوف يعاقب بالإعدام، أو بالسجن المؤبد. وما هو إلا أن يصدق عقله ويقينه هذا القانون، ويأخذ حذره من أن يقع في مغبته، بل إنه يمضي يحذر الناس، من أن يقعوا تحت طائلته!..

أليس هذا تعاملاً مع أمر غيبي خارج عن ساحة العلم؟!.. هل طبق هذا القانون، فدلت عليه التجربة والمشاهدة؟..

هل ارتكب أحد من الناس هذه الجريمة، فسيق من جرَّائها إلى ساحة الإعدام، أو زُجَّ به في السجن مدى الحياة..

لا، لأنه قانون جديد صدر للتو، فلماذا يصدق ما لم يقع بعد؟ ولماذا لا ينتظر حتى تدل التجربة والمشاهدة عليه، فيدخل بذلك في المدركات العلمية؟..

يقول في الجواب: أنا أثق برئيس الدولة الذي أصدر هذا القانون، وأنا موقن بأنه جادّ، إذا قرر نفذ.. ونقول له: فلماذا لا تثق بالله ثقتك بهذا الرئيس؟.. ولماذا لا توقن بأنه هو الآخر جاد في حكمه إذا قال فعل؟.. إن المسألة إذن ثقة بالرئيس الذي أصدر القانون هنا. وكفرٌ بالله الذي أصدر وعده ووعيده هناك.. وليست المسألة غياب العلم هنا وحضوره هناك..

يخرج الواحد من هؤلاء سائحاً إلى بلدة من البلاد التي تمتاز بالآثار التاريخية القديمة، ويجوب ويدور بين الأطلال القائمة والآثار التاريخية المتبقية، وهو يحمل عدسة التصوير في عنقه، وينظر متأملاً في الأطلال، في الدعائم، في البقايا القائمة من البيوت.. عيناه تنظران إلى الأطلال وعقله يمضي ثم يمضي إلى ما قبل عدة أجيال، ليتصور الأمة التي كانت تعيش في هذا المكان، وليتصور الحضارة الباذخة التي كانت تفور فوق هذه الأرض، ويحدثك قائلاً: لقد كانت ها هنا حضارة رائعة، وكان القائمون في هذه البلدة يتمتعون بقدرة هندسية رائعة، وكانوا يتمتعون بقوة مادية أروع منها!!.

علام تعتمد في هذا القرار؟!. لا أنت رأيت أولئك الناس، ولا عشت معهم، ولا استطعت أن تخترق إليهم سجاف الغيب بإطلالة أو نظرة، وأنت رجل علم، لا تتعامل مع الغيبيات، أليس هذا الذي تقرره عن أمة سادت ثم بادت من أوضح الأمور الغيبية؟!...

بل إنك إذا تأملت أدركت أن كل الدراسات التاريخية التي يستوعبها هؤلاء الناس؛ إنما تفد إلى عقولهم عن طريق المنهج الغيبي، ذلك لأن التاريخ أمر غيبي.

وأولئك الذين يتحدثون عن نظريات التطور، ويتحدثون عن واقع الإنسان قديماً مقررين أنه كان ينتمي إلى فصيلة حيوانية أدنى درجة، ثم إنها تطورت صعداً، إنما يخوضون في أمور خارجة عن ساحة العلم بمعناه الضيق الذي يفهمونه لكلمة العلم، وداخلة في نطاق بيداء مظلمة من الغيبيات، ومع ذلك فإنك تنظر فتجد أن هؤلاء الناس يؤمنون بنظريات التطور الغيبية هذه، تماماً كما يؤمنون بالماء الجاري تحت أبصارهم، وكما تؤمن عقولهم بأمور علمية خاضعة للتجربة والمشاهدة!!..

إذن فهؤلاء الناس يتعاملون في أفكارهم وسلوكاتهم مع الغيبيات، وأنا لا أنتقد فيهم ذلك. فنحن أيضاً نتعامل مع الغيبيات طبق منهجها العلمي السليم، لكنني أنتقد التناقض الصارخ بين دعاويهم وواقع أفكارهم وسلوكاتهم!!..

عندما نضعهم أمام مقولة الدين الحق القائم على دعائم العلم والمنطق يبتعدون وينأون بحجة أنهم علميون، وأن الدين ينهض على دعائم الغيبيات!!.. فإذا أبعدنا الدين عن طريقهم ووضعناهم أمام صور من هذه الأمثلة الكثيرة التي ذكرتها لكم، إذا هم يعودون فيعانقونها ويتعاملون معها ويخضعون عقولهم لها، وقد نسوا أو تناسوا أنها من لباب الغيبيات!!..

المطلوب من هؤلاء الناس، أن يرتفعوا بأنفسهم عن وهدة هذا التهافت المتناقض، وأن يكونوا منسجمين مع أنفسهم، فإما أن لا يتعاملوا مع الغيبيات كلها، وإما أن يذعنوا للحق العلمي الذي لا مرية فيه.

على أننا ـ ونحن نؤمن بالغيبيات، ونعلم أن من الممكن الوصول إلى يقين علمي بها من خلال اتباع منهج محدد ـ لا نذهب في اليقين بها والتعامل معها بالتوسع الذي يجنح إليه أولئك الزاعمون بأن ساحة العلم لا تتسع للغيبيات.. بل نلزم أنفسنا للأخذ بها بضوابط وقيود وشروط كثيرة ومعروفة في مصادرها. فإذا تكاملت هذه الضوابط والقيود، فلا مناص من قبول العقل لها، لأنه إذا تكاملت شروط اليقين العلمي أمام العقل، فلابد له أن ينفعل باليقين والاعتقاد بها؛ أي: بتلك الغيبيات، ولا خيار له في ذلك.

أما إن غاب بعض الضوابط أو الشروط، فلابد أن تهبط المسألة الغيبية عندئذ عن مستوى اليقين، ولا خيار للعقل أيضاً في ذلك، ثم إما أن تقف في مستوى الظن، أو تنزل عنه إلى درجة الشك أو الوهم، حسب قوة الأدلة وضعفها.

فحديث الأرصاد الجوية مثلاً عن التنبؤات الغيبية لحالة الطقس خلال الساعات الأربع والعشرين القادمة؛ لا يملك برهاناً قطعياً يورث اليقين، وإنما المعتمد فيه التجارب المتكررة والظنون المبنية عليها. إذن فحديث الأرصاد لا يجوز أن يوضع في أعلى من مستوى الظن، وربما لم يبلغ في كثير من الأحيان درجة الظن أيضاً.

ولكن ما أعجب حال من يترفع عن غيبيات الإسلام القائمة على أدق دعائم العلم، ثم يستسلم لبحار من غيبية هذه الظنون ويستيقنها دون بحث عن العلم أو الدليل!!..

والقانون الذي يصدره رئيس دولة ما متضمناً التوعد لمن يرتكب جريمة بعينها، بعقوبة الإعدام، لا يمكن أن يرقى مضمونه الغيبي إلى درجة اليقين، ذلك لأن العوارض التي يمكن أن تحدث فتحول دون تطبيقه واردة وكثيرة، منها أن الرئيس الذي وضع هذا القانون يمكن أن يرحل قريباً ويأتي غيره، فيستبدل به قانوناً آخر.. إذن فالمضمون العلمي لهذا القانون لا يرقى إلى أعلى من درجة الظن.

وإنك لتعجب بعد هذا لحال أناس يتحررون من وعيد الله؛ الذي أخبر به وأكده في محكم كتابه للعتاة والجاحدين، وينكرونه لأنه قرار غيبي لا يتفق مع العلم على حد تعبيرهم، ثم إن الواحد منهم يغرق في شبر من هذه الغيبيات التي لا ترقى إلى أبعد من درجة الظن!!..

وحصيلة القول أن الأمور الغيبية بحد ذاتها، لا توصف بأنها داخلة في الحقائق العلمية، ولا بأنها خارجة عنها.. وإنما يتوقف ذلك على النظر في المنهج العلمي الذي تخضع له تلك الأمور أو لا تخضع، كما قد رأينا.

والآن تعالوا نتساءل: أيهما أقرب إلى اليقين العقلي: خبر الله سبحانه

وتعالى، خالق هذا الكون، عن وعيده الذي قطعه على نفسه، في حق الطغاة والمستكبرين على الالتزام بمسلك العبودية له، أم خبر رئيس دولة توعد من خلال قانون بعقاب معين على ارتكاب جريمة معينة؟!..

لا شك أن العقل والمنطق يقولان: إن وعيد الله سبحانه وتعالى هو الذي يرقى إلى درجة اليقين القاطع، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ذلك لأن الله موجود، ووجوده لا ينتهي إلى عدم، ليس له عمر كعمر البشر، حتى يمكن أن يخترمه الموت.. وقد سبق أن آمنا بذلك.. أما زيد من الناس الذي أصدر هذا القانون، فقد يعيش إلى أن يطبق هذا القانون في حق من ارتكب هذه الجريمة، وقد لا يعيش.. قد يأتي من يزيحه عن الحكم ويحِلُّ محله، ويستبدل بهذا النظام نظاماً غيره.. هذا منطق، لا أقول إنه قابل لليقين، بل هو اليقين بحد ذاته.

كذلك فلنتساءل: أيهما أقرب إلى أن يصدَّق؟ قرار الأرصاد الجوية، الذي يقول: إن منخفضاً جوياً في طريقه إلينا، وسيصل إلى هذه المنطقة بعد خمس ساعات. أم قرار الله القائل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ . . .﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [هود: ١٢٣] ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ..﴾ [الأنعام: ٥٩] أيهما أقرب إلى التصديق؟

ما من عاقل آمن بالله وعلم أن هذا كلامه إلا ويعلم الجواب.. أنا عندما أتحدث كمسؤول ومختص بالأرصاد، أرى كتلة هوائية تتحرك متجهة إلى مكان ما، فأنظر إلى حركتها واتجاهها، وأقدر أن المدة الباقية لكي تصل إلى مكان ما خمس ساعات مثلاً.. فأقول: إن منخفضاً جوياً سيصل إلى البلدة الفلانية بعد كذا.

ولكن من الذي يسيِّر هذه الكتلة الهوائية، أنا أم خالق هذه الكتلة؟ أنا أم منظم هذا الكون؟!..

ما أيسر على من يسير هذه الكتلة الهوائية أن يوقفها في مكانها ، أو أن يبددها أو أن يسيرها في اتجاه آخر ، فلا يقع شيء مما تم الإخبار به والإعلان عنه ، ذلك أن حركة هذا الكون ليست عشوائية ، وإنما هي خاضعة للخالق الذي يقودها.

أرأيتم إلى سيارة تنهب الصحراء، ونظرتَ إليها من بعيد، فرأيتها تتجه غرباً ، فقلت لنفسك : إذن ستصل هذه السيارة إلى مدينة كذا الواقعة في جهة الغرب بعد ساعة!.. من الواضح أن هذا الكلام ليس علمياً ، لأنك لست أنت الذي تقود السيارة، وإنما يقودها ذلك الذي يقبع في داخلها ، وهو حر في سيره، فربما عنَّ له أن يغيِّر اتجاهها ، فيميل بها شرقاً ، أو لعله يقف في مكانه ، فلا يواصل السير يمنة ولا يسرة، إنها احتمالات علمية قائمة..

كذلك فلنتساءل : أيهما أقرب إلى اليقين العقلي ومن ثم العلمي، الخبر الغيبي الذي أنبأنا به خالق هذا الكون ومُسيِّره من خلال البيان الذي أوحى إلينا به وهو القرآن، أم الخبر الذي يذكره أحدنا ، وقد خُلِقَ بالأمس، وسيموت غداً ، متحدثاً عن قصة وجود هذا الكون؟ أجل.. أيهما أقرب إلى العقل؟.. هذا غيبي وذاك غيبي!..

دعني أستخرج الجواب من فمك، بل من عقلك ، أرأيت إلى الجهاز الذي خرج للتو من معمله ومع الكتيِّب الذي يسمى : (الكتلوك) والذي يوضح اسم المعمل الذي أصدر الجهاز والغاية منه، وكيفية استعماله ، والفوائد المرجوة منه وكيفية صيانته.. هل تصدق هذا الكتيّب البياني الصادر من المعمل ذاته الذي صدر منه الجهاز، أم تصدق زيداً من الناس، لا علم له به ولا قدره له على إبداعه ، يتفلسف بالحديث عنه وعن طبيعته وكيفية استعماله وصياغته؟..

ألستم جميعاً تعلمون الجواب؟ كلنا يعلم أن صفحة التعريفات بهذا الجهاز، هي المُصَدَّقة، لأنها خرجت من المعمل ذاته الذي أُصدِرَ الجهاز منه.

إذن فلنعد إلى جهاز هذا الكون، وقد سبق أن آمنا بصانعه ومبدعه جل جلاله. ومعنى هذا أنه إن كان فينا من لا يؤمن به فالحديث معه بهذا الشأن سابق لأوانه. أما نحن فمؤمنون بالخالق سبحانه وتعالى، ومن هذا المنطلق نتساءل: عندما نريد أن نتعرف على قصة هذا الكون: كيف بدأ وكيف نماو تكاثر، والإنسان كيف وجد، هل وجد من سلالة أقل شأناً من الإنسان ثم ارتقى صعداً، أم هو مخلوق مستقل عن الحيوانات الأخرى؟ عندما نريد أن نعود بعلم عن هذا كله، أنصغي إلى حديث من صَنَعَ الكون وأبدعه، أم نصغي إلى من وُلِدَ في هذه الدنيا البارحة وسيرحل عنها غداً؟..

الإله الخالق الذي آمنا به يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] ويقول: بأن الله خلق الإنسان بخلق أبيه آدم الذي شرفه الله وكرمه وأسجد له الملائكة.

أما زيد من الناس المخلوقين فيقول: بل إن الإنسان ينتمي إلى فصيلة أقل شأناً، وفي مجال السباق للبقاء كُتِبَ له البقاء، وفتح مجال التطور أمام من كان أقوى وأصلح شأناً.

كلا الخبرين غيبي، ولكن الأول حديث الصانع عن كيفية صنعه، تماماً كالـ (كتلوك) الصادر مع الجهاز من المعمل الذي صنعه، والثاني حديث شخص فضولي يتحدث عن ماض سحيق كان غارقاً أثناءه في بحار العدم؟..

أما العلم فيقول: الخبر الصادر عن الصانع هو الذي يقبله العقل ويستيقنه، وأما المتهافت المتناقض الأخرق، فيقول: بل زيد المخلوق هو الأدرى بالكيفية التي خُلق عليها، ومن ثم فخبره هو الأوثق!!..

وعلى كل فإن خبر الخالق عز وجل يقطع اللَّجَجَ في هذا الأمر عندما يقول: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١] أي: إني لم أجعل من الذين يضلون الناس عن العلم والحقيقة، سنداً

أو عوناً لي في الخلق والتكوين، كيف وإن أحداً منهم لم يكن قد انبثق من ظلمات العدم بعد؟!

ولابد أن أعود في الختام فأقول: إذا كان لنا أن نتصور الحضارات السابقة، ونسيج الثقافات التي عاشت قبل قرون من الزمن، من خلال الآثار الباقية من ورائها.. من خلال بصمات.. من خلال ما يسمى: «بآثار العلة الغائية»، المتراكمة أمامنا.. أقول: إذا كنا نملك الحق في أن نتصور نسيج هذه الحضارة من خلال هذه البقايا، أليس من واجبنا أن نتصور اليد الإلهية التي أبدعت، والتدبير الرباني الذي أوجد، من خلال تأملنا في هذا الجهاز الكوني الكبير، والآثار الدالة فيه عليه والشاهدة بعظيم صنعه وتدبيره؟.. ما الفرق بين ما تتصوره من حضارة الفراعنة، وأنت تنتقل ما بين أهرام وأهرام، وهذا الجهاز الكوني الذي تجد فيه ظاهرة التدبير، ودلائل التقدير؟.. العلة الغائية موجودة هنا وموجودة هناك.

إذن فالنتيجة التي لابد أن نصل إليها هي: أن الأمور الغيبية لا تعني بحد ذاتها أحكاماً علمية، كما لا تعني بحد ذاتها أحكاماً غير علمية. وإنما المرجع في هذا الحكم أو ذاك المنهج الموصل إليها. فإن كان منهجاً علمياً سليماً توافرت فيه أركانه وشرائطه، فإن هذه الأمور الغيبية ترقى إلى مستوى اليقين العقلي، سواء سميتها علماً أو لم تسمّها.. ومن ثم فلابد من التعامل معها.

وغيبيات الدين الإسلامي من هذا القبيل. وأما إن كان المنهج الموصل إليها فكراً غوغائياً لا ينضبط بالقواعد العلمية والمنطقية الثابتة له، فهي إذن أبعد ما تكون عن أن تورث العقل يقيناً بها، ثم إنها قد تفيد ظناً أو شكاً أو دون ذلك، حسب تفاوت الدلائل المحيطة بها.



يُغَالِطُونَكَ إِذْ يَقُولُونَ :

# ٱلْقُرْآنُ يُغْنِي عَنِ ٱلسُّنَّةِ

هناك من يقول في هذا العصر، بل في هذه السنوات الأخيرة بالذات: إن القرآن يغني عن السنة. فينبغي أن نطرح الثانية ونكتفي بالقرآن وحده.

وقبل أن نتهم هذه المقولة وأصحابها بالشرود عن الحقيقة وعن ميزان المنطق، ينبغي أن نتبين وجهة نظرهم والمعنى الذي يقصدون إليه من وراء هذه الأطروحة.

إنهم يقصدون أن يؤكدوا لنا أن القرآن حوى كل شيء، وأن يذكرونا بقوله عز وجل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وإذا كان القرآن قد حوى فعلاً كل شيء، وكان تبياناً لكل شيء، فما الحاجة إذن إلى إضافة شيء ما إليه؟.. ما الحاجة إلى السنة ما دام الانضباط بكتاب الله سبحانه وتعالى يُبصِّرنا بكل شيء؟.. هذا بالإضافة إلى أن القرآن كله منزل من عند الله يقيناً، ولا مجال للريب في شيء منه. أما السنة فقد اختلط فيها الصحيح بالموضوع بالضعيف بالمنكر، وأصبح تمييز الصحيح فيها عن غيره أمراً عسيراً.

ولذلك فخير لنا أن نريح وأن نستريح، وأن نعتمد على القرآن وحده، لا سيما وإن القرآن فيه كل ما نتطلبه، وفيه كل ما نبحث عنه..

هذه باختصار هي وجهة نظر أرباب هذه المقولة، فما موقفنا منها؟ وما هي النقاط التي نأخذها على هذه الأطروحة؟

سنضع هذه الأطروحة الأخرى في ميزان المنطق العلمي ذاته الذي وضعنا فيه المقولات أو الأطروحات السابقة، فإن وجدنا أن هذا الميزان قد أثبت صحتها، أخذنا بها، ودافعنا عنها، وإلا فلا بد أن نكشِفَ عن عُوارها وأن نحذِّر منها، وأن نبيِّن الخلفيات الكامنة وراءها.

بادئ ذي بدء، أقول: إننا إذا تأملنا في كتاب الله سبحانه وتعالى الذي نُدعى إلى الأخذ به وحده، سنجد أن الأخذ بهذه الأطروحة، أو بهذه المقولة، يستلزم الإعراض عن القرآن ذاته، بل أقول لكم: إنه يستلزم تخطئة القرآن. وفاتني أن أبين لكم أولاً المعنى الشرعي للسنة، وهو: كل ما أُثر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، على أن يصل ذلك إلينا بطريقة صحيحة، طبق المنهج المرسوم عند علماء مصطلح الحديث، تلك هي السنة.

إذن أعود فأقول بادئ ذي بدء: إننا إن أخذنا بهذه الأطروحة القائلة: «القرآن يغني عن السنة» فلسوف نجد أنفسنا نعرض عن القرآن ذاته، الذي نزعم أننا نريد أن نتمسك به ولا نتمسك بغيره، بل لسوف نجد أنفسنا نخطّئ القرآن فيما يقول.

وآية ذلك أننا عندما نصغي إلى كتاب الله عز وجل لا نجده يقول: اكتفوا في فهم دينكم وإسلامكم بهذا الكتاب، بكلامي وحده، بل هو يقول لنا: اجعلوا من سنة محمد عليه الصلاة والسلام بياناً لكل ما استغلق عليكم من كلامي، اجعلوا من سنة محمد ﷺ المقتدَى الثاني بعد هذا الكتاب.

لو رأينا أن القرآن يقول لنا: لا تتمسكوا إلا بهذا الكتاب، إذن فذلك يكفي دليلاً على صحة هذه الأطروحة، ولكنا نظرنا فرأيناه يأمرنا أمراً جازماً باتباع السنة إلى جانب القرآن، وبتحكيم كلام رسول الله ﷺ إلى جانب القرآن، أليس الإلحاح على اطّراح السنة بعد هذا إعرضاً بيّناً صريحاً عن القرآن ذاته.

وماذا يقول القرآن في هذا، بصريح العبارة والنص؟

إنه يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، يقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ويقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، ويقول: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، ويقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

هل أزيدكم فأضعكم أمام آيات أجلى وأصرح مقرونة بالتحذير والتهديد. حسناً، يقول جل جلاله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فهذه آيات صريحة واضحة قاطعة في الأمر باتباع رسول الله ﷺ فيما يقول ويفعل من أمور الدين، وفيما يشرح ويبين به نصوص القرآن، وبأن نطيع الرسول كما نطيع القرآن، وبأن نجعل من كلام محمد عليه الصلاة والسلام بياناً لما استغلق علينا من كلام الله.

وأحب أن أنبِّه إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، إنما نزل في خصومة وقعت بين رجلين من المسلمين أحدهما الزبير بن العوام رضي الله عنه ابن عمة النبي ﷺ، وجاءا إلى رسول الله ﷺ ليقضي بينهما، وقضى رسول الله ﷺ، بعد أن سمع وحقَّق للزبير، فقال له الآخر: ألأجل أنه ابن عمتك، أو لأنه قريبك؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. ومعلوم أن هذا الذي قضى به رسول الله ﷺ لم يكن تنفيذاً لآية موجودة في القرآن، وإنما كان بحكم من عنده، ومع ذلك فقد أعلن القرآن أن الإنسان لا يُعدُّ، أياً كان، مؤمناً بالله إلا أن قَبِلَ حكم رسول الله ﷺ وخضع له، ثم لم يجد في نفسه أي حرج تجاهه. فها هو القرآن ينفي سمة الإيمان عمن لم يُحكِّم رسول الله ﷺ فيما يقوله ويقضي به من أمور، حتى ولو كان القرآن ساكتاً عنه.

فإذا جاء بعد هذا من يقول: لا، بل القرآن يغني عن السنّة، ولا داعي إلى

تحكيم السنّة، أليس موقفه هذا معارضة صريحة للقرآن ذاته؟!، بل أليس هذا الموقف ينطوي على تخطئة القرآن ذاته؟!. وكيف يكون هذا الموقف تحكيماً للقرآن، إذا كان صاحبه يخطِّئ القرآن، ويُعرِض عن أوامره، أو عن كثير من أوامره؟!.

ويبدو أن رسول الله أُخبِرَ من قبل ربه عز وجل أن في الناس من سيعمدون إلى سنة رسول الله فيمزِّقونها ويبعدونها عن مجال الأخذ بها والاعتماد عليها في فهم القرآن، بسلاح بهلواني كاذب من القرآن ذاته، فنبه ﷺ إلى ذلك وحذَّر منه. من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام، فيما رواه العرباض بن سارية رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام وعظ أصحابه موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها الدموع، فقال له أحد الصحابة: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: «عليكم بالسمع والطاعة وإن أُمِّر عليكم عبد، عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين عضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» والحديث صحيح، رواه أبو داود، ورواه الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد.

كذلك يقول رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي: «يوشك رجل متكئاً على أريكته يُحَدَّثُ بحديث عني فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال حللّناه وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه. ألا وإن الذي حرَّمه رسول الله مثل الذي حرّمه سبحانه وتعالى».

وإن في تصوير رسول الله لحال هؤلاء الناس، ما يكشف عن استكبارهم على السنة وصاحبها تحت غطاء التحاكم إلى القرآن. ولعمري إن من كانت هذه هي حاله لا يمكن أن يكون وفياً للقرآن الذي لم يصلنا إلا عن طريق رسول الله، ولا أن يكون صادقاً في الالتزام به!..

قد يقول هؤلاء: عذرنا الذي يدفعنا إلى إبعاد السنة لا يتمثل في أننا نكذِّب كلام محمد عليه الصلاة والسلام، أو في أننا نستهين بسنته، بل إننا بدافع الغيرة عليها والحماية لها نطالب في هذا العصر بالإعراض عنها؛ إذ قد اختلط الصحيح منها في هذا العصر بالضعيف والمنكر والموضوع، والتبس على الباحث هذا بهذا بذاك، وإنما سبيل الحفظ لكرامة رسول الله ﷺ وسنته في هذه الحال أن نبعدها عن التحكيم خوفاً من أن نقع في الزيف، ومن أن ننسب إلى رسول الله ﷺ ما هو منه بريء.. هذا ما قد يقوله بعض منهم، فما هو جوابنا عن هذه المعذرة؟

جوابنا: أن هذا الكلام فيه ما يدل على أن هؤلاء الناس أعرف بما قد آلت إليه السنة من الله سبحانه وتعالى!!.. إنهم يتهمون الله بالجهل، ويتهمونه بأنه لا يعلم مآل هذه السنة النبوية، في حين أنهم هم الذين عرفوا وتبينوا هذا المآل.

لقد قال الله عز وجل خطاباً للناس في سائر العصور والأحقاب: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] دون أن يعلم أن الأوامر الصحيحة التي نطق بها رسول الله ﷺ ستمتزج بالمزيفة والموضوعة والضعيفة، ومن ثم فلن يتأتى للناس الطاعة المطلوبة منهم لرسول الله، في حين أن هؤلاء الناس هم الذين عرفوا ذلك من دون الله عز وجل!!..

أفهذا هو كلام من يؤمن بالله؟! أم هذا كلام من يؤمن بأن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى ويصرّ على تحكيمه والأخذ به؟!.. وكيف يحكِّم القرآن ويأخذ به من يخطِّئه في قراراته وتعليماته؟!..

على أننا نقول: من هذا الذي قال لكم إن سنة الرسول ﷺ اليوم امتزج فيها الصحيح بالباطل بالزيف بالضعيف، ولم يعد يستبين للباحث هذا من ذاك؟.. من قال هذا الكلام؟..

السنة النبوية المطهرة أول كتاب، أو أول موضوع ومصدر من مصادر الشريعة الإسلامية بعد القرآن وُقي من الزيف، وإليكم بيان ذلك:

كلنا نعلم أن هنالك وضاعين، وضعوا أحاديث مكذوبة على لسان رسول الله ﷺ، وهنالك أحاديث ضعيفة، وهنالك أحاديث منكرة، لا شك في هذا ولا ريب، ولكن مَن مِن المثقفين لا يعلم أن الله عز وجل قيض لهذه السنة علماً من أعجب العلوم التي تكاد ترقى إلى درجة الإعجاز، قيَّضه الله لحماية الحديث الصحيح من الدخيل، ومن الزيف ومن الموضوع ونحوه.

أما سمع أصحاب هذه الأطروحة بعلم يسمى: «علم مصطلح الحديث»؟.. أما سمعوا بعلم يسمى: «علم الجرح والتعديل»؟.. أوما بلغهم السبب الذي من أجله ظهر علم الجرح والتعديل وعلم مصطلح الحديث؟؟..

من المعلوم أن الذي دفع العلماء، في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني، إلى إيجاد هذين العلمين إنما هو حماية حديث رسول الله ﷺ.. فعلم مصطلح الحديث صَنَّفَ الأحاديث وقَسَّمها إلى أحاديث آحاد وأحاديث متواترة، وقسم حديث الآحاد إلى أحاديث صحيحة وحسنة وضعيفة وموضوعة، والضعيفة قُسِّمت أيضاً إلى أقسام، ووضعت ضوابط محددة لكل من هذه الأقسام.

ولسنا الآن بصدد الحديث عن تفصيلات قواعد هذا العلم، ولقد وجدت مؤلفات كثيرة تحوي الأحاديث الموضوعة، ولكن وجودها أكبر شاهد ودليل على نقيضها؛ أي: على أن الأحاديث الأخرى أحاديث صحيحة، أي: إن

اهتمام علماء الحديث بإبراز الأحاديث الموضوعة، إنما هو الوجه الآخر لاهتمامهم بتصفية الأحاديث الصحيحة من الزغل ومن الزيف.

وإذا أردنا أن نتساءل عن العهد الذي كاد أن يختلط فيه الحديث الصحيح بالضعيف بالموضوع فإنه على كل حال ليس هذا العهد، وإنما هو القرن الأول والثاني من عصر الهجرة النبوية المشرفة، في ذلك الوقت حاول الدسَّاسون وحاول الوضَّاعون أن يسربوا الأحاديث الباطلة إلى كلام رسول الله ﷺ، وسرعان ما قام علماء الحديث فتداركوا.. وفرزوا.. وصنفوا.. وميزوا الأحاديث الصحيحة عن الأحاديث الباطلة والموضوعة.

أما اليوم فالأمر لا يحتاج إلى جهد، ولا يحتاج إلى فرز، لأن أولئك العلماء أتعبوا أنفسهم وبذلوا الجهد الذي بذلوه، ثم صنفوا المصنفات المختلفة، وأوضحوا لنا قائمة أحاديث الآحاد، والأحاديث المتواترة، الأحاديث الآحاد الصحيحة والضعيفة وغيرها، وبوسع أي باحث إذا أراد أن يستدل بحديث ذكره رسول الله ﷺ أن يرجع إلى المراجع الخاصة بهذا العلم، فيتبين الحديث الصحيح من الحديث الضعيف.

فيا عجباً لمن يأتي في هذا العصر ـ تماماً كما قال رسول الله ﷺ ـ في مظهر من الكسل المستكبر الذي يأتي سمجاً ثقيلاً على النفس والعقل معاً، متكئاً على أريكته ليقول لنا: نحن لا نستطيع أن نستبين الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الضعيفة، لنأخذ الأولى ونتجنب الثانية، فلنستعض عن السنة كلها بالقرآن.

ونقول له: تلك هي مصنفات الأحاديث المختلفة مفروزة منسقة مبينة أمامك، وما عليك إلا أن تمد يدك ثم تفتح عينيك وعقلك لتقرأ!.. ولكن ماذا كنت تقول يا ترى لو أنك كنت تعيش في القرن الأول أو الثاني من الهجرة؟!.. إذن لمزقت السنة النبوية كلها، ولخنقت الإسلام كله في ضباب كسلك!!..

هذا ما نقوله في الرد على من يتثاءب تثاؤب الكسول السمج، ثم المستكبر فوق ذلك كله، على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ليتأفف قائلاً: إنه لمن الصعوبة بمكان أن نلتقط الأحاديث الصحيحة المميزة عن الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

تلك هي المعذرة الأولى التي تُصطنع اليوم لإبعاد السنة النبوية عن مجال الاحتجاج بها، وللتفريق الذي حذر القرآن منه بين الله ورسوله.. فما المعذرة الأخرى؟

المعذرة الأخرى هي دعوى: أن في أحاديث رسول الله ما لا يتفق مع أعراف العصر، أو لا ينسجم مع مقتضى الحضارة والمدنية الحديثة. وربما ساقوا مثالاً على ذلك حديث رسول الله الذي رواه البخاري في صحيحه وابن ماجه في سننه أنه ﷺ قال: «إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم ليلقه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء، وإنه يتقي بجناحه الذي فيه داء»، وربما استشهد على ذلك أيضاً بحديث جابر الذي يرويه مسلم في صحيحه: أن رسول الله ﷺ أمر بلعق الأصابع والصحفة، أي: وعاء الطعام. وقال: «إنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة» وربما أضافوا إلى هذين الحديثين أمثالهما.

فأصحاب هذه الأطروحة يقولون: كيف يمكن أن ينسجم مع المدنية الحديثة حديث يأمر إذا وقع الذباب في شراب أحدنا أن يغمسه كاملاً ثم يلقيه، مع ما يبعث ذلك من التقزز في النفس!!.. أم كيف يتفق مع المدنية الحديثة أن نأخذ أنفسنا بهذه الوصية الثانية: إذا أكل أحدنا ثم قام من طعامه أن يلعق أصابعه التي أكل بها، وأن يمسح الوعاء الذي كان فيه الطعام، حتى لا يبقى في قعره شيء.

تلك هي الحجة الأخرى، فما موقفنا من هذا الكلام؟

أقول قبل كل شيء: ما هو مقياس المدنية التي ينبغي أن نأخذ أنفسنا بها، وأن نخضع لإيحاءاتها؟

الجواب المنطقي هو: إن مقياس المدنية الحديثة: كل ما يتفق مع المنطق والعلم، وكل ما يتفق مع الفطرة الإنسانية والحاجات الأصيلة لبني الإنسان..

لا شك أن مدنية تستوحي قوانينها من المنطق والعقل ومن الحاجات الأساسية لبني الإنسان يجب أن نتبعها.

أما المدنية الشاردة وراء هذين الضابطين فلا أعتقد أن الإنسان العاقل ملزم باتباعها، بل هو ملزم بالتحرر منها، بل على المسلمين أن يقفوا في وجه هذه المدنية، وأن يبذلوا ما يملكون لتصحيحها وتقويم عوجها. إذ إنهم أصحاب رسالة، وأمَّة تخطيط وإبداع، وليست مهمتهم أن يكونوا ذيولاً إمّعات، يسيرون وراء تقاليد الناس، إن أحسنوا يحسنون، وإن أساؤوا يسيؤون.

هذا هو موقفنا من المدنيات والحضارات كلها.

على ضوء هذا الميزان، أقول: ما هي مشكلة حديث الذبابة الذي يقوم ويقعد به طائفة من الناس انتقاصاً لسنة رسول الله وتكريهاً للناس بها؟!..

تعالوا نفهم معنى الحديث أولاً: يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا وقع الذباب في شراب أحدكم» أي: إذا وقع فعلاً ولم تُجْدِ الوقاية «فليغمسه ثم ليلقه» أي: لا يلقين الذباب خارج الشراب حتى يغمسه كله فيه. وهو حرّ بعد ذلك أن يتلف الشراب أو أن يستبقيه. وهذا الأمر سببه أن «في أحد جناحي الذبابة داء وفي الآخر شفاء وأنها تتقي بجناحها الذي فيه داء» فاقتضت الحيطة أن يلاحَق الداءُ بالدواء، خوفاً من أن يبقى من ذلك الشراب شيء فيشربه من لا يعلم شيئاً عن هذا الذي وقع فيه، فيؤذيه الداء المتسبب عن ذلك.

ومعنى قوله: «وإنه يتقي بجناحه الذي فيه داء» أن الذباب إذا اتجه ساقطاً، اتجه إلى حيث يسقط، مائلاً بجناحه الذي فيه أذى وداء، تماماً كأي حيوان يلدغ، من شأنه أن يتجه إلى الجهة التي يسقط نحوها بالإبرة التي يدافع بها عن

نفسه. ومعنى كلام رسول الله أن الطرف الآخر من الذباب نقيض الداء الذي يتقي به عند السقوط، فليقض على الداء بنقيضه بغمس الذباب كلياً ثم طرحها في الخارج.

فهذا هو أولاً معنى الحديث!..

نقول بعد هذا: أفنتهم محمداً ﷺ بأنه مخطئ جاهل؟.. إذن فلماذا لا نتهمه بالجهل والخطأ ذاته عندما أخبرنا بالوحي الذي يأتيه من الله عن أمور الغيب؟.. أليس حديثه وحياً عن أحداث ما بعد الموت أغربَ وأعجبَ من حديثه عن الذبابة وكيفية تخليص الشراب منها؟!..

وأنا أشهد أن الذي يرتاب في كلام رسول الله عن الذبابة أن في أحد جناحيها داء وفي الآخر شفاء، لابدّ أن يرتاب في كلامه إذ يتحدث عن عذاب القبر، أو عن سؤال الملكين، أو عن قيام الناس لرب العالمين، لكنه قد يغص باستنكار تلك الإخبارات الأخرى خوفاً من أن يُتهم بالكفر، في حين أنه لا يغص بهذا الكلام محتجاً بأنه لا يتفق مع معطيات المدنية الحديثة، بل ربما قال: لا يتفق مع العلم!..

والآن تعالوا نعرض كلام رسول الله هذا على موازين العلم وحقائقه:

أولاً أنا أعلن أنني لست مختصاً بشيء مما يتعلق بالجراثيم ونقائضها، ولست طبيباً، ولست ممن يحلل خصائص الحيوانات، ويستبين ما فيها من أضرار وما فيها من منافع، ولكني بدون أن أطلع على شيء من هذا، وبدون أن أصغي السمع إلى أصحاب هذا الاختصاص، يكفيني لقبول هذا الكلام واليقين به أن أعلم بأن محمداً ﷺ قد قاله، وأتبيَّن أنه قد وصلني بسند متصل صحيح ليس فيه شذوذ ولا علة.

إنني قد وثقت به في كلام أعجب وأخطر من هذا، أفلا أثق به عندما يحدثني

عن الضرر الكامن في أحد جناحي الذبابة، وعن المصل الواقي لهذا الضرر في الجناح الثاني؟ وكيف لا أصدقه وقد صدقت أنه رسول من عند الله، وأن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه، وأن الله عصمه من الخطأ، وإن أخطأ فيما بينه وبين الله فإن الله سبحانه وتعالى يصحح له علمه وإدراكه.

ولكن أقول للإخوة الذين لم تتكامل الثقة برسول الله ﷺ في نفوسهم، تعالوا نتساءل ماذا يقول العلم الحديث عن هذا الذي قاله رسول الله ﷺ عن الذبابة؟

أجل: العلم الحديث.. وإني لأتمنى أن لا يستعجل الذين يشمئزون من كلام رسول الله، ممن لم تتشبع عقولهم بنبوته وبالوحي الذي كان يتلقاه من الله عز وجل، فيسيئوا إلى العلم من حيث يتبجحون باحترامه والأخذ به.

تعالوا نصغ إلى ما قاله علماء هذا العصر عن الذبابة وما تحمله في داخلها:

تنقل جريدة تشرين الدمشقية في العدد الصادر يوم ١٦/ ٦/ ١٩٨٧، خبراً عن جريدة شنغهاي الصادرة عام ١٩٨٧، يقول: (اكتشف علماء صينيون مؤخراً أنه يوجد في جسم حشرة الذبابة نوع من البروتينات النشطة التي تملك قدرة كبيرة على إبادة الجراثيم الكامنة فيها والمسببة للأمراض. ونقلت (شينخوا) عن صحيفة (شينمين) الصينية قولها: إن هذه الحشرة المقززة للنفس تملك بروتينات قوية قادرة على إبادة الفيروسات والجراثيم بشكل قاطع، إذا بلغت كثافتها حداً معيناً، وأضافت الصحيفة أنه يؤكد أن في جسم الذباب أيضاً مادة الدهن، وخاصة في اليرقات التي تحتوي على نسبة كبيرة من المغنيزيوم والكالسيوم والفوسفور. ويفكر العلماء باستخراج هذه المواد من جسم الذبابة؛ ليكون مصدراً جديداً لمركبات قاتلة للجراثيم).

ثم نشرت الصحيفة ذاتها، صحيفة تشرين الدمشقية في تاريخ ٢٠/ ٦/ ١٩٨٧، الخبر التالي عن «شنغهاي»: (اكتشف العلماء أنه توجد في جسم

الذبابة بروتينات نشطة تقاوم الجراثيم، والمعروف أن هذا النوع من البروتينات النشطة له قدرة كبيرة على إبادة الجراثيم المسببة للأمراض. وذكرت جريدة الشعب الصينية الصادرة في (شنغهاي) التي نشرت هذا النبأ أن البروتينات النشطة التي يملكها الذباب تقدر على إبادة جميع الجراثيم والفيروسات التي تحملها الذبابة إبادة تامة، إذا بلغت كثافتها واحداً في العشرة آلاف، وقال النبأ: إنه سوف يصبح للبشر مضاد جديد للجراثيم لها قدرة جبارة لا مثيل لها، إذا تم استخراج هذه البروتينات الغريبة من جسم الذبابة).

أليس هذا الكلام الذي تقوله صحيفة صينية بل صحف صينية، نقلاً عن علماء وأطباء لا علاقة لهم بالدين، ولم يسمعوا شيئاً عن حديث الذبابة، ولم يقفوا وقفة تساؤل، لا إيمان ولا استنكار عن شخص محمد عليه الصلاة والسلام، أليس هذا الكلام الذي ترونه يسجد لنبوة رسول الله ﷺ؟

من ذا الذي يتلجج في الجواب عن هذا السؤال؟..

أليس موقفاً مقزراً أكثر من تقززنا من الذبابة، أن يقف أحدنا من كلام سيدنا محمد رسول الله ﷺ هذا الموقف العاجل، قبل أن يتبين العلم، وقبل أن يصغي إلى كلام العلماء والأطباء، وأصحاب الاختصاص.

أليس مما يبعث على الاشمئزاز أن أتخذ هذا الموقف المستعجل من كلام رسول الله، وأن أتباهى بالعلم، وأنا بأمس الحاجة إلى شيء من العلم؟

أعتقد أن هذا الموقف يبعث على الاشمئزاز أكثر من الاشمئزاز الذي تنبعث به نفوسنا؛ عندما نجد ذبابة وقعت في شراب.

وفي هذه المناسبة أذكر لكم حواراً، جرى بيني وبين العالم والطبيب الفرنسي المرحوم «موريس بوكاي» لنتبين الفرق بين موقف بعض المسلمين التقليديين الذين جمعوا بين مشكلتين اثنتين: مشكلة عدم الثقة برسولهم محمد

عليه الصلاة والسلام، ومشكلة عدم استيعاب العلوم الحديثة وسبل التعامل معها، فوقفوا مستكبرين بين جهالتين سمجتين، وبين عالم أوروبي غير مسلم في الظاهر(١).

أعطاني كتابه الذي كان قد أصدره ذلك العام وعنوانه: «القرآن والكتب السماوية والعلم الحديث»، قلبته فوجدته يستشهد فيه على أن القرآن كلام الله عز وجل بالفرق الذي يتصوره بين القرآن والحديث، ويقول: لا يمكن أن نعثر في شيء من القرآن على كلام يتعارض مع العلم، وهو دليل على أن القرآن كلام الله، في حين أن محمداً عليه الصلاة والسلام إذا نطق من عنده ربما قال كلاماً لا يؤيده العلم، ورأيته يستشهد في هذا بحديث الذبابة، قلت له: إنك طبيب، فهل درست كل ما يوجد في جسم الذبابة من خصائص ضارة ومفيدة، وهل انتهيت إلى أنّ كلام رسول الله يناقض العلم؟ أم إنك جاهل بخصائص الذبابة وما فيها؛ لأنه ليس من اختصاصك؟ فكان الرجل منصفاً في الجواب، وقال: بل أنا جاهل، إنني طبيب، ولكني لست أعلم عن خصائص الذباب شيئاً، وهذا يحتاج إلى دراسة مستوعبة.

قلت له: فأعتقد أن العلماء الذين لهم اختصاص دقيق في هذا الجانب، اكتشفوا هذا الذي يقوله رسول الله ﷺ وأكدوا أن في الذبابة آفات خطيرة جداً جداً، لا يقضي عليها إلا نقيض لها في داخل جسم الذبابة.

ثم قلت له: أرجو أن لا تنسى الفرق الكبير بين عدم اكتشاف العلم لما قاله رسول الله، واكتشاف العلم لنقيض ما قاله رسول الله، وأعتقد أن حالنا اليوم يتخذ الموقف الأول، لا الثاني.

---

(١) لم يعلن موريس بوكاي إسلامه، ولكنه أخبرني أنه مسلم يمارس الإسلام ويلتزم بأحكامه في منزله وحياته الشخصية، وهو شان كثير من الأوروبيين المشهورين أو ذوي الوظائف الحساسة اليوم.

فأصغى باهتمام بالغ وقال لي: سأعدك أن أزيل الاستشهاد بهذا الحديث من كتابي هذا في الطبعات التالية.

دعوني أضعكم من هذا المثال أمام أناس هم في الظاهر غير مسلمين، لكنهم يحترمون العلم، والبحث العلمي، وفي وقفة سريعة من أحدهم، وتنبيه بسيط من إنسان مثلي، يتخلى عن رأيه معتقداً أن تصحيح الخطأ من أقدس الواجبات.

بينما ننظر إلى أناس من أبناء جلدتنا مسلمين، لم يصلوا إلى شيء من العلوم التي وصل إليها أمثال (موريس بوكاي) الطبيب المشهور في فرنسا، ولكنهم في الوقت ذاته لم يتشبعوا بالإيمان بنبوة نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام. أي: فلا هم تشبَّعوا بالإيمان وأركانه، ولا هم تشبَّعوا بالعلوم الحديثة وحقائقها. وإنما أصروا على أن يقفوا ـ كما قلت لكم ـ بين جهالتين، مستكبرين بهذا الموقف الذي اتخذوه!!..

فهذا هو جوابنا عن المستنكرين لحديث الذبابة، وهنالك وثائق أخرى تتضمن كلمات لأطباء وعلماء آخرين من الغرب تؤكد هذا الذي نقلته صحيفة تشرين، ولربما أجمعها وأنشرها في كتيب خاص إن شاء الله.

أما حديث رسول الله ﷺ فيما يرويه جابر عن النبي ﷺ: أنه كان يأمر بلعق الأصابع بعد الانتهاء من الطعام، ولعق الصحفة، أي: الوعاء الذي فيه الطعام، فأنا أسأل: ماذا ترون في هذا الأمر النبوي مما يتناقض مع الإنسانية السامية، ومع الوفاء مع نِعم الله تعالى وعطائه؟ أمّا أنا فلا أجد في ذلك إلا صورة للوفاء السامي للنعمة والشكر الواجب للمنعم!..

كان العرب يأكلون بأصابعهم، ولم تكن هذه الأشواك والملاعق موجودة، فماذا تريد أن يقول رسول الله لمن قام عن الطعام وأصابعه مغموسة ببقايا منه؟.

هل تريد أن يقول: لا عليه أن يغسل يده من بقايا هذا الطعام، أن يجعلها تذهب إلى المصارف، فتمتزج مع القاذورات؟!..

هل هذا هو المتفق مع مدنيَّتك التي تعتزُّ بها؟ وهل هذا هو الذي يتفق مع مقتضى الشكر على نعمة أسداها الله عز وجل إليك؟ أم هل تريد من رسولك محمد عليه الصلاة والسلام أن يقول لك: إذا رأيت أنك قد تركت بقايا طعام في أطراف الإناء فما عليك إلا أن تقوم مشمئزاً منها معرضاً عنها، ولا عليك، وقد أشعرك الشبع بالقرف منها، أن تلقي فوقها من رماد دخينتك، وما قد مسحت به فمك وأنفك من قطع الكلينكس!!.. أغلب الظن أن رسول الله لو علَّمك أن تفعل هذا لهللت واستبشرت وكبرت، وانتشيت لهذه التعليمات التي تتفق مع مدنيَّتك.

ولكن تعالوا نضع هذه المدنية الحديثة في الميزان، ميزان الذوق الإنساني الرفيع، ميزان الوفاء للمنعم عز وجل، أي عاقل يقول: إن هذا الميزان يقضي بأن يترك الإنسان بقايا الطعام بهذا الشكل بعد أن يشبع، بل يقضي بأن يتعمد ترك شيء منه في الطبق، وأن يقوم عنه قيام المشمئز منه والمترفع فوقه؟!..

إن الذي يفعل هذا إنسان لئيم بغير شك!..

ولكي تعلم صدق ما أقول، قارن بين حالتك وأنت جائع شديد الجوع حتى لكدت أن تقع في مسبغة مهلكة، (وكلنا معرَّضون لهذا) وبين حالتك وأنت تتقلب في النعم التي أنت فيها، ماذا كنت تصنع لو ألمَّت بك الحالة الأولى (ومرة أخرى أقول: كلنا معرَّضون لها) ورأيت هذه البقايا من الطعام في قعر إناء.

ستقبل إليها وتلتهمها بالملعقة ثم بأصابعك، بل بلسانك أيضاً، ستلعق كل ما يوجد من آثار لهذا الطعام في الإناء؛ لأنك جائع، ولا أحد يعتب على الجائع فيما يصنع، لأننا كلنا هذا الرجل عندما ينتابنا الجوع..

ترى هل عليَّ أن أمثل من نفسي حالة المستغني عن الله وعطائه، عندما يعطيني فأشبع، ناسياً ما أنا معرَّض له في كل ساعة، فأترفع عن بقايا الطعام المتفرق في أطراف الطبق، وأجعل من ترفعي هذا لسان استغناء وكبرياء أمام الآخرين، ثم لا أبالي أن تذهب هذه البقايا في المجاري مع القاذورات، وأنا أعلم أن الله لو زجني في حرمان مطبق مجيع، فلسوف أبحث عن هذه البقايا وأمثالها بين القمامة وعلى «المزابل» ولربما أزاحم في ذلك الحيوانات؟!..

أما منطق اللؤم فيقول: نعم، لك أن تسكر بالعطاء وتنسى المعطي، ولا تشغل بالك باحتمالات الحرمان، فلكل حادث حديث!!..

وأما منطق الشكر والوفاء فيقول: يجب أن يكون لسانك الناطق بحمد الله في الشبع، هو ذاته لسانك الناطق بحمده في الجوع. إذ أنت عبده الضعيف في كلا الحالين، وأنت المحتاج إليه عند إقبال النعمة كما أنت محتاج إليه عند إدبارها..

ويقول منطق الوفاء: إن جوهر الشكر لله لا يستبين لدى التهامك الطعام والتقاطك لنثراته وأنت جائع، إذ أنت إنما تتعامل في هذه الحال، مع مشاعر جوعك وحاجتك.. وإنما يستبين جوهر الشكر عندما يشبعني الله ويغنيني، ثم أقبل إلى الطعام بالطريقة ذاتها، ألتقط نثاره، وأتعقَّب بقاياه، أينما كانت على أصابعي أو داخل طبقي أو ما تساقط منه حولي.. أحفل بذلك كله وأنا أتمتع بنعيم العطاء، كما كنت أحفل به أيام الجوع والبأساء.

ويقول منطق الشكر والوفاء: من حمد الله على نعمته في السراء وقاه الله بذلك من الضراء.

إذن فحديث مسلم عن جابر رضي الله عنه الذي يأمر فيه رسول الله ﷺ بلعق الأصابع ومسح الطبق من بقايا الطعام، دعوة إلى الشكر والوفاء وتحذير من اللؤم والاستكبار.

وأشهد أنه لا يشمئز من هذا الحديث ويتسامى على اتباعه، إلا من يشمئز من الشكر والوفاء، ويجنح إلى اللؤم والاستكبار.

تلك هي المعذرة الثانية التي تُصطنع اليوم لإبعاد السنة عن مجال الحجية بها، وللتفريق الذي حذر القرآن منه بين الله ورسوله.. فهل هناك من معذرة أخرى؟

ربما كانت معذرتهم الأخرى: أن في أحاديث رسول الله ﷺ وتصرفاته، ما يبدو لكل متأمل وناظر أنه لا ينطلق إليها من قرار ديني بعث به، ولكنه يمارسها كأي منا بحكم بشريته وإنسانيته، وبحكم تعامله مع الدنيا كسائر الناس الآخرين.

ونقول في الجواب عن هذا: مع يقيننا بأن سنَّة المصطفى ﷺ مصدر من مصادر الشريعة الإسلامية فعلاً، بنص من كلام الله سبحانه وتعالى، وبقرار من القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نقول: هل كل تصرفات رسول الله ﷺ تُعدُّ سنّةً نافذةً، ومن ثم فهي من مصادر الشريعة الإسلامية؟

لا.. هناك تصرفات داخلة في الأعمال الجِبلِّيةِ، التي تصدر من المصطفى ﷺ بوصف كونه بشراً من الناس، يأكل كما يأكلون، يشرب كما يشربون، ينعس فينام، يتعب فيستريح، يتصرف التصرفات الجِبلِّيةِ التي يتعرض لها الناس بحكم بشريَّتهم، يناقش في أمر الأطعمة وتحضيرها مثلاً، أو الآبار وحفرها، أو التكتيكات العسكرية واختيار أجداها.

هذه الأمور لا تدخل في نطاق السنة، التي هي مصدر من مصادر التشريع، أي: الحرام والواجب والحلال والمكروه ونحو ذلك.

ومن المعلوم أن أمهات الكتب التي تعنى بعلم أصول الفقه تحفل ببيان هذا الأمر، وتفصيل القول فيه. ومن خير من كتب فيه الإمام الشاطبي في كتابه: «الموافقات».

حتى الأقوال والأفعال التي تدخل في معنى السنَّة، التي هي المصدر الثاني للتشريع، إنما تأخذ حجيتها من إقرار القرآن لرسول الله ﷺ عليها ببيان مؤكد، أو بسكوت ينبئ عن الإقرار بها وعدم المعارضة لها .

فمصدر انقيادنا لهذه السنة يقيننا بأنه رسول من عند الله، فهو لا يأمرنا أو ينهانا إلا بالذي يأمرنا به أو ينهانا عنه الله.. وعندما يخطِّئ الله رسوله في أمر ما، فإننا في كل الأحوال إنما نتلقى تعاليمنا من عند رسول الله.. وكل ما يخبرنا به أو يجتهد فيه من أمور الدين، فهو بالنسبة إلينا حق يجب الانقياد له والأخذ به، وعندما يأتيه التصحيح من عند الله، فإنما نأخذه نحن من عند رسول الله لأنه هو واسطتنا في الانقياد لأوامر الله.. وهذا هو معنى قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤].

إذن فحيثما أقرَّ القرآن تصرف المصطفى ﷺ بسكوت أو بتأكيد فقد ترسَّخت حجية السنة التي نطق بها أو فعلها رسول الله، وتأكد وجوب انقيادنا له. وحيثما استدرك القرآن على شيء قاله المصطفى ﷺ، أو على أمر اجتهادي اجتهده النبي عليه الصلاة والسلام فالحجة تستقر بما قد نطق به كتاب الله سبحانه وتعالى، ولكن عن طريق خبر رسول الله وبيانه. ولعل هؤلاء الذين يقولون: القرآن يغني عن السنة، لم يدرسوا هذه القواعد والأحكام العلمية عن السنة، ولم يدركوا حقيقتها وأبعادها.

وإذن فنحن في كلا الاحتمالين المتوقعين لنتيجة اجتهاده مكلفون باتباعه وطاعته.

فمثلاً، جاءت زوجة أوس بن الصامت إلى رسول الله تشكو إليه أن زوجها، قال لها: أنت مني كظهر أمي، وأخذت تسأله عن معنى هذا الكلام، فقال لها: ما أراك إلا قد حرمت عليه. قالها اجتهاداً من عنده.. أي: الذي أراه أن هذا

كناية طلاق، لذا فينبغي أن تكوني قد حرمت عليه.. ويبدو أنها أدركت أنه قال ذلك اجتهاداً لا عن وحي، فناقشته قائلة: لعله لم يرد طلاقاً، ولكنه ﷺ عاد فقال لها: ما أراك إلا قد حرمت عليه، فقالت له: يا رسول الله؛ إن لي منه صبية إن ضممتهم إليّ جاعوا، وإن تركتهم إليه ضاعوا، ولكنه عاد فقال لها: ما أراك إلا قد حرمت عليه!.. فقامت تقول: أشكو إلى الله أمري..!

وسرعان ما نزل على رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ [المجادلة: ١]. إلى أن قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ [المجادلة: ٣] إلى آخر الآيات. فأوضحت الآيات أن كلام أوس ليس طلاقاً، كما قد اجتهد رسول الله، وإنما هو ظهار، ومن ثم فبوسعه أن يعود إلى زوجته بعد الكفارة التي يجب عليه أن يؤديها. فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام وراء زوجة أوس بن الصامت، وتلا عليها الآيات التي أنزلها الله سبحانه وتعالى عليه، وبين لها الحكم الذي أوحى به إليه الله عز وجل..

والمهم أن نعلم بأن امرأة أوس إنما تلقت الحكم الذي يجب عليها أن تأخذ نفسها به، في كلا الحالتين من رسول الله ﷺ. فعندما اجتهد في الحالة الأولى وأنبأها بأنها قد حرمت عليه، كان واجباً عليها الانقياد لبيانه، وطاعتُه في حكمه لأن الله قد أمرها والمسلمين جميعاً بطاعة رسول الله. وعندما تنزل عليه التصحيح وأنبأها به، وجب عليها أن تطيعه ﷺ وتنقاد لبيانه الثاني هذا.

وهذا هو معنى قولنا: إن الله يملك أن يصحح اجتهاد رسول الله، وأن يدله على ما هو الحق في علمه، ولكن أحداً من غير الله لا يملك أن يخطّئه في اجتهاده ويعصيه في ذلك بهذه الحجة.

وبعد؛ فتلك هي حجج هؤلاء الذين يطرحون هذه المقولة وينشرونها

ويذيعونها، وربما ألَّفوا فيها الكتب، وكتبوا فيها المقالات، ونشروا الدوريات، وعادوا وكرروا بإلحاح أن القرآن يغني في هذا العصر عن السنة، وقد تبين لنا أنها أعذار وهمية، لا ظل لها من الدلالة العلمية والبرهان المنطقي.

إذن، فلابد أن نصنفها في قائمة الأغلوطات.

وقد آن لنا الآن، وقد تبين لنا بطلانها في ميزان الدراية العلمية والمنطقية؛ أن نلفت النظر إلى بعض الخطط الخارجية المرسومة لإقصاء هذه الأمة عن إسلامها من حيث لا تشعر، وإلى أن الدعوة إلى نبذ السنة ليست إلا استجابة لأوامر صادرة من أصحاب تلك الخطط.

وليم كليفورد مدير معهد علم الإجرام في استراليا، أوفدته هيئة الأمم المتحدة ممثلاً لها لحضور سلسلة مؤتمرات «المنظمة العربية للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة» والمنبثقة عن جامعة الدول العربية، بصفة مراقب، كان ذلك في أواخر السبعينات.

عاد كليفورد هذا بانطباعات واقتراحات ضمَّنها تقريراً مطولاً، أودعه بعض أروقة الأمم المتحدة، ثم قدمه إلى دوائر أمريكية خاصة تعنى بأحوال الشرق الأوسط.

وقد شاء الله أن يصل هذا التقرير المطول إليّ.. وقد كتبت عنه دراسة مفصلة في كتابي «على طريق العودة إلى الإسلام» وها أنا ألفت النظر هنا إلى أهم النقاط التي فيه.

أولاً: يقرن الكاتب بين ما يسميه: «حركة انبعاث إسلامية قوية تغذيها دولية مضادة للاستعمار، وبين ما يراه انهياراً بصورة ملحوظة لتلك الهيبة، التي كانت تنبع سابقاً من اقتباس النماذج المثلى من المجتمعات الحضارية الغربية التي هي أكثر تفوقاً من الناحية الفنية والأكثر تقدماً وغنى».

ثانياً: يحمِّل الكاتب الغرب من خلال هذه المقارنة مسؤولية النتائج التي قد تنجم من ذلك الانبعاث الإسلامي الحثيث، الذي بات ينذر بتجاوز الحدود التقليدية للممارسات الإسلامية حيث يبرز على أنه نوع من السعي الحثيث إلى استعادة تحقيق الذات.

ثالثاً: يتوقع كاتب التقرير ـ بقدر كبير من التخوف والقلق ـ أن يحقق هذا الانبعاث النجاح المطلوب في المرافق الاجتماعية والسياسية، بحيث يتسبب عن هذا النجاح ما يضاعف حماس الشعوب الإسلامية في دعم انبعاثها الإسلامي واستعادة نظمه وأحكامه.. لذا فالمتوقع من النجاح الدنيوي والحماس الديني أن ينفخ أحدهما القوة في الآخر، على حدِّ تعبيره.

رابعاً: يربط الكاتب مخاوفه هذه بالقوة المادية الأولى التي يتمتع بها الشرق العربي، ألا وهي النفط.. ويكرر بشدة أن حركة انبعاث إسلامية جادة، تدعمها الطاقة المادية التي يتمتع بها أصحاب ينابيع النفط؛ كفيلة بقلب موازين الحضارة كلها، والقضاء على ما تبقى للغرب من هيبة ونفوذ، على حدِّ تعبيره.

خامساً: يؤكِّد الكاتب أهمية القضاء على هاتين القوتين: المادية والدينية، ويوصي باتباع السبل الكفيلة بوضع الغرب يده على ينابيع النفط!...

وفيما يتعلق بالخوف من الرجوع إلى ينابيع الشريعة الإسلامية يوصي بالعمل على ما يلي:

أولاً: فصل القرآن عن السنة، وإقناع المسلمين بأن ما يسمى: «سنة» ليس إلا اجتهادات شخصية من النبي عليه الصلاة والسلام.

ثانياً: إخضاع القرآن للاجتهادات والتأويلات المفتوحة، والكفيلة بمسايرة الإسلام للحضارة الغربية واندماجها في سياسة الغرب.

هذا تلخيص لتقرير مطول يبلغ قرابة ٣٠ صفحة فلسكاب، وأعتقد أن بوسع

كل مثقف أن يلاحظ كيف طُبِّقَ الشطر الأول من توصية «كليفورد»، ذلك الشطر الداعي إلى بسط الغرب سلطانه على ينابيع النفط، كأدق ما يكون التطبيق.

كما أن بوسع أي مثقف أن يلاحظ أنشطة الجنود المكلفين بتنفيذ الشطر الثاني منها، والداعي إلى فصل القرآن عن السنة، وتسليط الاجتهادات الكيفية على القرآن..

فالدعوة إلى نبذ السنة والاكتفاء بالقرآن ناشطة في كل البلاد العربية، وما وراءها من الأقطار الإسلامية، الأسلوب واحد والمبررات واحدة..

والقصد من هذه الخطة إخراج القرآن من حصنه الذي يحرسه ويحميه، ألا وهو السنة، حتى إذا تهاوت من حوله رقابة السنة وضوابطها، وظهر القرآن أمام جمهرة العابثين به في العراء، سهل عليهم أن يفرِّغوه مما لا يريدون وأن يملؤوه بعد ذلك بما يريدون، وأن يجعلوا أخيراً من القرآن مخلاة لما توحي به الدوائر الغربية من الأفكار والفلسفات التي تضمن بقاء هيمنة الغرب على هذا الشرق الإسلامي، وتقضي على الأخطار التي يحذّر منها (بهلع عجيب) وليم كليفورد.

وانظروا كيف تسير الدعوة المهتاجة إلى نبذ السنة جنباً إلى جنب مع الدعوة إلى ما يسمى بـ «القراءة المعاصرة»!..

أجل، القراءة المعاصرة هي البديل الذي ينبغي أن تحل محلَّ السنة!.

أن يشرح رسول الله القرآن الذي تنزَّل عليه، لا، ليس هذا من حقه!..

أما أن يحلَّ محله من يصرون اليوم على أن يخضعوه من خلال القراءة المعاصرة، لما يشتهون ويهوون ولما يمليه عليهم منفذو توصيات وليم كليفورد، فذلك حق ثابت لهم!!..

وما هي «القراءة المعاصرة»؟.

هي البديل المقترح عن قواعد تفسير النصوص التي تخضع لها اللغة العربية

منذ عمر هذه اللغة إلى يومنا هذا، والتي يتم التخاطب على أساسها بين المتحاورين، مثل قاعدة: «الأصل في الكلام الحقيقة»، و«لا يصار إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة»، وقاعدة: «اللفظ العام يجري على عمومه»، وقاعدة: «اللفظ المطلق يحمل على الفرد الكامل»، و«يحمل المطلق على المقيد وليس العكس»، «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».. الخ.

والعجيب الذي يفضح هذه الخطة من مصدرها المرسوم إلى عملائها المنفذين، أن هذه «القراءة المعاصرة» لا تُستدعى لتسلط على النصوص القانونية، ولا على النصوص الفلسفية، ولا على نصوص التاريخ، ولا الأدب الجاهلي، ولا القصة القديمة.. وإنما يُلاحَقُ بها القرآن حصراً!.. فمن هو ذاك الغبي الذي يجهل معنى هذه الدعوة وما وراءها؟!..

وبوسعك أن تجد هذه الشنشنة بالطابع ذاته أينما حللت واتجهت من البلاد الإسلامية العربية وغيرها.

في تركيا دعوة ملحة إلى إخضاع القرآن للقراءة المعاصرة.

في مصر.. في الباكستان، في البلاد الإسلامية من جنوب شرق آسيا، وإنك لتنظر فتجد المعزوفة هي هي، واللحن هنا وهناك هو هو..

ولابدَّ أن نستجيب للعقل فنلاحق دعاة القراءة المعاصرة بالسؤال التالي:

إن كان مبدأ القراءة المعاصرة هو الحقَّ في دراسة القرآن وفهمه، والقواعد العربية التي كان التخاطب يتم بها مع العرب الذين تنزل القرآن بينهم وفي عصرهم، باطلة وغير صحيحة، فلماذا لا تُطَبَّقُ القراءة المعاصرة هذه على الكلام العربي الذي وجد في عصر نزول القرآن أو من قبله أو من بعده؟ ولماذا لا يتم تحريره هو الآخر من رِبقَة تلك القواعد العربية المعتمدة في أصول التخاطب؟!.. لماذا لا يخضعون مراجع الفلسفة القديمة للقراءة المعاصرة؟..

لماذا لا يخضعون الأدب الجاهلي والمعلقات العشر، كمعلقة امرئ القيس وغيرها للقراءة المعاصرة؟!..

لماذا القرآن وحده، دون غيره من هذه الكتب القديمة كلها، هو الذي يراد بإلحاح إخضاعه للقراءة المعاصرة؟!..

الجواب الواضح هو: أنه لا مصلحة لدى أصحاب هذه الدعوة وملقنيهم بالتلاعب بشعر امرئ القيس أو النابغة الذبياني أو التاريخ أو الأدب أو غيرها.. إذ الهدف المطلوب هو تغيير الإسلام وتبديد مبادئه وأحكامه، وبتر صلة ما بينه وبين المسلمين الذين يأبون إلا انقياداً لأوامره وأحكامه، كما ألح على ذلك وليم كليفورد في نهاية تقريره.. وإنما يتم هذا الهدف بتسليط القراءة المعاصرة على القرآن، لا على كتب التاريخ والأدب ونحوها.

غير أن سلطان القراءة المعاصرة لا يمكن أن يهيمن على القرآن، ما دامت السنة النبوية تحرسه وتحمي معانيه وأحكامه. لذا فقد كان لابد من إقصاء السنة والقضاء عليها أولاً.

أخيراً أذكركم بالوصية التي أوصى بها الزعيم الشيوعي الإيطالي: (تولياني) قبل موته عام ١٩٦٣، فلقد كان من وصيته أن لا يُحارَبَ الإسلام من خارج سلطانه ودائرته؛ لأن ذلك يثير ردود فعل كثيرة عند المسلمين، وإنما النهج الأمثل هو التسرب إلى داخل الإسلام، والقضاء عليه من داخله، باسم الاهتمام به وتجديده والغيرة عليه.

غبيٌّ جداً من يتصور ـ بعد هذا ـ أن هؤلاء الذين يسعون اليوم إلى القضاء على الإسلام من داخله، أنصار وجنود له.. ولكن الأغبى منه من يسعى هذا السعي للعبث بالإسلام والقضاء عليه، وهو يظن أن في المسلمين الصادقين في إسلامهم من ينطلي عليه خداعه ويُؤخَذُ بألاعيبه ودجله..

يُغَالِطُونَكَ إذْ يَقُولُونَ :

# ٱلْإيمَانُ بِٱلْقَضَاءِ وَٱلْقَدَرِ مَصْدَرُ ٱلتَّوَاكُلِ

سنصغي الآن إلى أطروحة جديدة، وهي تلك المقولة التي كثيراً ما تسمعونها إذ يقول أحدهم: الإيمان بالقضاء والقدر مصدر التواكل في حياة هذه الأمة!!.. قرأناها في منشورات، وسمعناها في محاضرات وإذاعات!..

وقبل أن أتحدث عن معنى القضاء والقدر، وأتساءل عن علاقة القضاء والقدر بالتواكل سلباً وإيجاباً، ينبغي أن نستنبط من صدق هذه الدعوى ظاهرة غريبة جداً، تقضي أن نقرر بناء عليها بأننا نحن المسلمين في هذا العصر نؤمن بالقضاء والقدر إيماناً راسخاً تاماً، في حين أن الرعيل الأول من المسلمين، أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين من بعدهم لم يكونوا يؤمنون بالقضاء والقدر قط!...

إذا صدقت مقولة هؤلاء الناس ينبغي إذن أن تصدُق مقولتي هذه!...

ولكن هل فيكم من يصدق أن المسلمين اليوم، وقد تناثروا كما ترون في أطراف عالمهم العربي والإسلامي كتناثر أوراق الخريف في مهب الرياح، وغدوا مثال التواكل في العالم، حتى غدت مجتمعاتهم أسواقاً استهلاكية لمنتجات الغرب بأصنافها التافهة وغيرها، أقول: هل فيكم من يصدق أن هؤلاء المسلمين هم المثل الأعلى في الإيمان بالقضاء والقدر، ومن ثم انتشر فيما بينهم داء التوكل والخمول؟!..

وهل فيكم من يصدق بناء على هذه المقولة ذاتها، أن أصحاب رسول الله ﷺ (وقد كانوا مضرب المثل في الجهد والنشاط والمغامرة والإبداع) إنما امتازوا بذلك لأنهم كانوا أبعد ما يمكن عن الإيمان بالقضاء والقدر؟!.

صدقُ هذه المقولة يستلزم هذا الواقع الكاذب المناقض للواقع.

أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون من بعده كانوا مَضرِبَ المثل في نسج المعجزات، من أنشطتهم العلمية والثقافية والاقتصادية والعسكرية.. انقذفوا إلى شرق العالم وغربه وشماله وجنوبه.. ومدوا رِواق الحضارة الإسلامية على أوسع رقعة من العالم كله.. اختصروا الزمن الطويل، واستصغروا الدنيا الواسعة.. لم ينعطفوا إلى أنفسهم ليروا حظاً لها في راحة، أو ليبحثوا عن سبيل لها إلى متعة..

فهل السرُّ في ذلك أنهم لم يكونوا يؤمنون بقضاء الله وقدره، ولم يكونوا يقيمون لهما أي وزن، لأن الإيمان بهما هو مبعث التواكل والدعة في حياة المسلمين؟!..

ونحن المسلمين الذين يعيشون في ظل الانتماء الشكلي إلى الإسلام، والابتعاد عن مبادئه وجوهره.. ها نحن أصبحنا مَضرِبَ المثل في التواكل والاستناد إلى جدران الكسل، ننتظر ما يصنعه لنا الغرب من منجزات واحتياجات، ليزُقَّنا بها كالطيور الصغيرة زقّاً، يفرقنا قادته فنفترق، ويأمروننا بالخصام فنتخاصم، وبالتهارج فنتهارج!..

فهل السرّ في ذلك أننا موقنون بقضاء الله وقدره، كما لم يوقن به أصحاب رسول الله ومن بعدهم؟!..

من ذا الذي يصدق هذا الكلام المقلوب، ويؤمن بهذا المنطق المنكس؟

والآن: ما هو القضاء والقدر؟

القضاء: علم الله سبحانه وتعالى بكل ما يجري في الكون، بما فيه من تصرفات الإنسان الاختيارية وغير الاختيارية، وهذا مما ينبغي أن يعلمه كل مؤمن، لأن الله علام الغيوب، فإذا علم الإنسان أن الله عز وجل يعلم ما الذي سيجري في كونه؛ من مختلف الأمور المتنوعة، بما فيها أعمالنا التي تصدر منا، فقد آمن بالقضاء.

أما القدر: فهو وقوع هذه الأشياء طبقاً لعلم الله سبحانه وتعالى، فهذا

التطابق هو الذي يُسمَّى القدر، أما علم الله السابق والمسجل في غيبه المكنون، فهو القضاء.

وبناء على ذلك فلنتساءل؛ ما علاقة اليقين بأن الله عالم بكل شيء، بالتوكل أو التواكل؟ ما علاقة هذا بموضوع القيام بالواجبات التي أمر الله بها، أو النكوص عن تلك الواجبات؟!..

ليس بين الأمرين أيُّ علاقة أو ارتباط!.. هنالك حقائق ثابتة ينبغي أن نعلمها، ولا علاقة لها بدوافع السلوك، ينبغي مثلاً أن نعلم أن الله موجود، وينبغي أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى علام الغيوب، وينبغي أن نعلم أن القدرات كلها تتجمع في قدرته، وأن الأنشطة التي نتمتع بها ليست إلا سواقي وجداول من معين قدراته، ينبغي أن نستيقن هذه المعتقدات الثابتة التي علمها رسول الله ﷺ من ربه وعلَّمها أصحابه، أما السلوك فشيء آخر.

إلهنا الذي أخبرنا بهذا كله أمرنا بعد ذلك بوظائف، أمرنا أن نعمر الكون، العمران المادي والحضاري، فقال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] أمرنا أن نمشي في مناكب الأرض فننبش خيراتها ونستخرج كنوزها فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [آل عمران: ١٠٤] أمرنا أن ننقاد لتعاليمه، ووعدنا إن نحن استجبنا لأوامره فنفذنا تعاليمه وأقمنا المنهج السليم الذي رسمه لنا لبناء المجتمع والحضارة، أن يورثنا مقاليد هذه الدنيا، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ﴾ [النور: ٥٥] وقال: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

قوموا وانهضوا واشتغلوا واعمروا الكون العمران المادي والعمران الحضاري، ولا تنوا ولا تركنوا إلى الكسل، فأنتم الذين ميزتهم بين الخلائق كلها وكرمتهم، وسخرت لهم كل ما يحتاجون إليه من المكونات.

فهل سخر لنا الله سماءه وأفلاكه وأرضه، والهواء والمياه وكنوز الأرض ومعادنها وطاقاتها؛ لكي نعرض عنها ثم نركن إلى الدعة والتواكل، ومن أجل أن ننام ونستيقظ ونأكل ونشرب، ثم نهرم ونموت؟..

إن معنى التسخير يحمل معنى الاستخدام، والاستخدام لا يكون إلا ببذل الجهود والنهوض بالعمل.

إذن أعود فأؤكد بأن القضاء والقدر لا علاقة لهما بسلوك الإنسان.

الإيمان بالقضاء والقدر جزء من اليقين بواقع هذا الكون، أو جزء من اليقين بذات الله وصفاته، أما سلوك الإنسان فينبثق من خطاب الله الآمر، ومن خطاب الله الناهي.

أفقال الله لعباده بعد أن كلفهم الإيمان بقضائه: استندوا إلى جدران الكسل، وارقدوا في مهاد الخمول، ولا تقوموا بواجب من الواجبات، أم قال لهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] وقال لهم: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥] وقال لهم: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

ثم من الثابت أن الأمة كلما كانت أكثر إيماناً بمولاها وخالقها، وكلما تجاوزت المرحلة التقليدية في إيمانها إلى مرحلة الحب والتعظيم والتبجيل له والثقة به، وعلمت أنه علام الغيوب، وأنه مصدر القوى والقُدَرِ كلها، ازدادت انقياداً وخضوعاً لأوامره وتعليماته، يأمرنا بالجهاد قائلاً: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٧٨]، فننقاد له بسعادة واغتباط، يأمرنا باستخدام

المسخرات الكونية التي أخضعها لمصالحنا، فننطلق ننبشها ونستبين أسرارها ونخضعها لحاجاتنا المتنوعة الكثيرة.

إذن فالإيمان يدعوني إلى أن أقف وقفة العبد الذليل أمام ربه الجليل، أقول: يارب بماذا تأمرني؟ حتى أنقذف دون توان ولا كسل إلى ما تطلب مني..

وتأتيني أوامر الله تترى جواباً عن هذا الاستعداد الذي يبعثه الإيمان بالله، ثم الثقة به في النفس، من خلال الخطاب القرآني الذي يقول لنا في مجمله: آمركم بعمارة الأرض على النهج الحضاري المطلوب.. آمركم أن تجاهدوا في سبيل إقامة قسطاس العدل، إقامة ميزان العدل، آمركم بأن تجاهدوا في سبيل إبعاد ظلل الطغيان والظلم عن المجتمع.. جعلتكم خلفاء عني لإقامة موازين العدل في الأرض ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

عندما أصغي إلى هذه الأوامر الإلهية التي يفيض بها القرآن، هل المتوقع مني في هذه الحالة أن أكسل وأن أتواكل وأستسلم للرقاد، وقد آمنت بالله وفاض قلبي تعظيماً له وثقةً به؟ أم المنتظر مني أن أتحول إلى لهب وشواظ، فأنهض بما قد أمر الله سبحانه وتعالى به دون أن أحسب حساباً لراحة، أو متعة؟!..

الجواب لا يخفى على أحد، وإنه لمتمثل في الحياة العملية لأصحاب رسول الله ﷺ الذين آمنوا بالله حق الإيمان، وفاضت أفئدتهم تعظيماً له، وثقة به وبحكمته ورحمته، ويقيناً بأنه يعلم غيب السماوات الأرض. وما كان وما هو كائن وسيكون، وهذا هو الإيمان بالقضاء.

لقد ساقهم إيمانهم هذا إلى أن يكونوا خاضعين لسلطان الله منفذين لأوامره قائمين بأحكامه، وما سمع أحد في الدنيا أن إيمانهم هذا أورثهم داء الكسل، وأن يقينهم بالقضاء سرب إليهم جرثومة التواكل.

من الذي يقول هذا عن أصحاب رسول الله؟

من الذي يقول هذا عن التابعين؟

من الذي يقول هذا عن المسلمين في عصر الخلافة الراشدة؟

لا بل من يقوم هذا عن المسلمين في العصور التي جاءت من بعد، المسلمين الذين كانوا يستظلون بمظلة الإسلام الحقيقية؟!..

لقد كانوا كلهم المثل الأعلى لنقيض التواكل، لنقيض الكسل .

انظروا إلى هذه البلاد الإسلامية الواسعة، ما من بلدة منها إلا وتجدون فيها قبوراً لأصحاب رسول الله!.. ما الذي نشرهم في شرق العالم وغربه؟ الجهاد في سبيل الله وحماية الحقوق والمبادئ.. النسيج الحضاري الذي قاموا بحبك سداه ولحمته بجهود لم يعهد التاريخ، لا من قبل ولا من بعد، مثيلاً لها!!..

ما الذي أوصل الحضارة الإسلامية إلى قلب المجتمع الأوروبي؟ ما الذي جعل الدولة الأموية في الأندلس مظهراً للإسلام العظيم، في علومه الكثيرة وأخلاقه السامية و إنسانيته المثلى؟ أفكان ذلك كله من آثار الخمول والتواكل؟!..

ثم إني أقول لكم شيئاً آخر، الإيمان بالقضاء والقدر رباهم، رفع نفوسهم إلى صعيد الأفلاك العليا التي تتألق في سمائها البعيدة..

الإيمان بالقضاء والقدر هو الذي سما بهم عن أودية المهانة، وجعل الواحد منهم يعتز بأنه لن يحوج نفسه إلى غير الله عز وجل، ولولا الإيمان بقضاء الله وقدره لألجأت الحاجة كثيراً منهم إلى أناس من أمثالهم، لألجأت الحاجة كثيرين منهم إلى المهانة، إلى الذل، لكن إيمانهم بالقضاء والقدر سما بهم إلى علوّ شاهق عجيب من الاعتداد والاعتزاز بالذات.

انظروا إلى هذه التربية الربانية، التي عبر عنها رسول الله ﷺ، بالكلمات

التالية وربَّى من خلالها أصحابه، وإنها لنابعة من معين الإيمان بالقضاء والقدر، انظروا إليه وهو يوصي عبد الله بن عباس، وكان غلاماً قد أردفه رسول الله وراءه، يقول له: «يا غلام؛ إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»(١).

وفي رواية بإضافة هذه الجملة الأخرى: «ما قدر لماضغيك أن يمضغاه لابد وأن يمضغاه، كله ويحك بعز ولا تأكله بذل».

هذا ما فعله الإيمان بالقضاء والقدر بأولئك المسلمين، وتلك هي التربية التي غرسها الإيمان بالقضاء والقدر في نفوسهم. أعزها بعد ذل، وأغناها بعد فقر، وطمأنها بعد قلق، واقتلع منها كل خوف إلا الخوف من الله وحده.

اقتحم أصحاب تلك النفوس القوى المحيطة بهم، مستهينين بها لأنهم كانوا يتحركون بقدرة الله، ولم يكونوا يتحركون بقدرات أنفسهم، وفرق كبير بين من يتحرك إيماناً بقدرة محدودة يتمتع بها، وبين من يتحرك بقدرة يعلم أنها قدرة الله، التي لا تنفد والتي لا حدود لها.

لماذا لم يكن أولئك العرب قبل أن يدخلوا الإسلام، وقبل أن يتشرفوا بقبس هذا الإيمان الوهَّاج، وقبل أن يؤمنوا بقضاء الله وقدره، يتمتعون بأثارةٍ من هذا الجهاد والجهد والنشاط؟ لماذا لم ينقذفوا إلى شرق العالم وغربه لينهضوا بتلك الرسالة التي نهضوا بها فيما بعد؟

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

أسباب التواكل والكسل التي يتحدث عنها أصحاب هذه المقولة لم تكن موجودة لديهم آنذاك، فلا الإيمان كان موجوداً ولا اليقين بالقضاء والقدر كان جاثماً في أي زاوية من عقولهم بعد، فلماذا لم ينهضوا النهضة التي نهضوها بعد الإسلام؟!.

لماذا كانوا يرقدون رقدة الموت في جزيرتهم العربية؟ ولماذا نشطوا نشاطهم المعجز، واستيقظوا كما يستيقظ المارد، وانطلقوا إلى شرق العالم وغربه بعد أن هيمن عليهم الإسلام، وبعد أن أورثهم الإيمان بالقضاء والقدر؟.

أما المسلمون اليوم، وهم الذين يمكن أن يحتج أصحاب هذه الأطروحة بهم لصدق هذا الواقع عليهم، فلهم شأن آخر.

أصحاب هذه الأطروحة يحتجون بالواقع الذي آل إليه حال هؤلاء المسلمين، قائلين لهم: ها أنتم مسلمون، وإن عدد المسلمين يزيد على المليار، ومع ذلك فهل ظهر التواكل في حياة أمة، كما ظهر فيكم في هذا العصر؟ هل تستطيعون أن تنكروا التواكل الذي ضرب بجرانه فيما بينكم؟.. ومهما أردنا أن نبحث لذلك عن سبب، فلن نعثر على سبب غير الإسلام، الذي يعلِّم الإيمان بالقضاء والقدر. إذن فلأنكم مسلمون تكاسلتم وتخلفتم، ولأن الآخرين غير مسلمين تحرروا وانطلقوا وتقدموا.

وخير إجابة عن هذا الكلام، حال أصحاب هذه المقولة أنفسهم..

فهم مسلمون، بل هم نموذج لحال السواد الأعظم من مسلمي هذا العصر.. مسلمون وقد تبرموا بالإسلام، مستخفِّين بمبادئه وأحكامه!..

مسلمون وقد جندوا أنفسهم لخدمة الخطط الغربية الرامية إلى إزهاق البقية الباقية من حقوق هذه الأمة وكرامتها! ..

مسلمون والسلطان الذي يحركهم هو سلطان الدوائر الأجنبية الخفية أو المعلنة.. مسلمون وليس لهم من إسلامهم إلا بقية انتماء وغطاء أشبه ما يكون بورق السلوفان!!..

فبأي حق يحاكَم بل يجرَّم الإسلام الغائب، ويبرَّأ الضالعون في الجريمة والبهتان؟..

أمرهم الإسلام أن ينشطوا وينطلقوا ويتحركوا للنهوض برسالتهم في كل الجهات، فأعرضوا عن أمره واستسلموا للخمول ثم الرقاد، معتذرين بأن الغرب يرفدهم بكل شيء!..

أمرهم الإسلام أن يتحدوا ولا يتنازعوا، وأن يترفعوا فوق أسباب الخصام التي تختلق للإيقاع فيما بينهم، فأصروا على مخالفة الإسلام، وطاعة أعدائهم في التشاجر والتدابر والخصام!.

أمرهم الإسلام أن يتحرروا من العبودية لأهوائهم وعصبياتهم ودنياهم، وأن يمارسوا العبودية لله وحده، حتى لا يستذلهم عدو بشباك يتصيَّدهم به، فأبوا إلا أن يكونوا عبيداً لرغائبهم وأهوائهم وعصبياتهم، ومن ثمّ عبيداً لمن يتصيدهم بتلك الأهواء!.. ثم جاؤوا بعد ذلك كله يتهمون الإسلام ويحاكمونه، بسبب ما حل بهم من نتائج عصيانهم له وإعراضهم عنه!..

ذلك هو شأن الخائب.. يجترُّ خيبته وسوء حاله، ثم يقعد يلصق أسباب خيبته بمن يتاح له أن يلصقها به!..

ونحن نقول لهؤلاء الناس: كونوا في تعاملكم مع الإسلام، كتعامل المسلمين الذين خلوا من قبل معه، ثم اتهموه وحاكموه كما تحبون.

المهم أن تعلموا أنكم بمقدار ما تتخلون عنه انقياداً والتزاماً، لابدَّ أن يتخلى عنكم نصراً وحماية وتأييداً.

بقي أن نلفت النظر إلى حقيقة أخرى، تتعلق بأثر الاعتقاد بالقضاء والقدر في سلوك الإنسان:

ينبغي أن نعلم أن مسبب الأسباب كلها هو الله سبحانه وتعالى، أي: فلا توجد فاعلية لا لطعام يشبع، ولا لماء يروي، ولا لدواء يشفي، ولا لسم يهلك، ولا لأمطار تنبت، ولا لسحب تهمي، ولا لأي شيء من الأشياء إلا لله سبحانه وتعالى، ففعالية الكون صادرة من الله عز وجل.. وما نراه من الأسباب والعلل الكونية خادم لقضاء الله وحكمه، وليس حكم الله وقضاؤه هو الخادم للأسباب والعلل.

ترى هل من شأن اليقين بهذه الحقيقة الكونية أن يثمر الدعة والتواكل والكسل، أم من شأنه أن يثمر خوارق الأنشطة والمغامرات التي تخترق مخاوف التوقعات والأسباب، وترتبط بمعين القوى والقدر ومصدر كل فعالية وحركة في الكون؛ ألا وهو الله؟..

وقبل أن نجيب.. نؤكد أن المسلم الحق عندما ينهض بواجباته لا ينهض بها يقيناً منه بأنه صاحب فاعلية في القيام بها، ولا لتصوره بأن الله إنما كلفه بها لأنه يملك قدرات خارقة، ويملك فاعلية في أدائها، وكأن الله قد استعان به في ذلك.

بل إن المسلم لو اعتقد ذلك لكفر.. بل المؤمن يعلم يقيناً أن لا حول له ولا قوة إلا بالله. إذ الحول والقوة في الكون كله ملك لله وحده. والناس كلهم إنما يتحركون ويعملون بقدرة الله التي يمدُّهم بها لحظة فلحظة.

إذن فالمسلم عندما ينهض بواجباته التي كلفه الله بها، إنما ينهض بها لأنه موظف، عُهِدَ إليه بها، بتكليف منه عز وجل.. كلفني الله عز وجل أن أنبش الأرض، وأن أخرج ما فيها من خيرات وذخر ومعادن، وأن أجاهد وأذود عن الحق وأهله، فأقول: لبيك، وأسعى للنهوض بهذا الذي كلفني به، أبني المجتمع وأدافع عن الحق وأمارس واجباتي كلها، وأنا موقن أن الطاقة التي

أتمتع بها، والحيلة الفكرية التي أمارسها، والعلاقة التسخيرية التي بيني وبين الكون، كل ذلك إنما يتم بفاعلية الله وقدرته.

وهكذا سائر الوظائف، والأعمال التي يقوم بها المسلمون الصادقون، إنما يقومون بها تنفيذاً لأمر الله، وتطبيقاً لمعنى عبوديتهم لله سبحانه وتعالى، فلا تتصوروا أن الصحابة رضوان الله عليهم، إذ كانوا يخرجون مقاتلين مجاهدين مع رسول الله ﷺ، يعتقدون أنه لو لم يقاتلوا لما تحقَّق النصر، وأن الله سبحانه وتعالى إنما انتصر على أعدائه بواسطتهم!..

أو لم تقرؤوا قول الله عز وجل وهو يخاطب رسوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] أي: إنما حصلت منك صورة الرمي فقط، وكان ذلك عندما حمل النبي ﷺ كفاً من الحصباء، ورماها في وجوه المشركين في غزوة حنين، فتكاثرت الحصباء في الفضاء، وتحولت إلى نقع ملأ الجو كله، وغشى وجوه المشركين وتسرب إلى عيونهم. فكان من النبي ﷺ صورة الرمي، الذي ليس من شأنه أن يفعل شيئاً، وكان من الله فاعليته ومضمونه الذي جرى ووقع.

ولعلك تستشكل بصدد هذا الذي أوضحته لك قول الله عز وجل: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠] متوهماً أن معنى نصر المسلمين لله أن يمدوه بما عندهم من طاقات وقدرات!..

ولكن فلتعلم أن هذا التصور لمعنى الآية خطأ قتَّالٌ ومكفِّر. وإنما المعنى: إن تنصروا الله في توجهكم إلى تنفيذ أوامره بالطواعية والقصد، ينصركم بإمدادكم بالقوة وعوامل الغلبة، ويبعث أسباب القهر والخذلان في صفوف أعدائكم.

وهكذا فكل مسلم يعلم أن الله هو الذي يخلق نتائج أفعاله، هو الذي يخلق ثمرات جهوده.

وهذا ينطبق على الفلاح الذي يزرع ويحصد، وينطبق على الحرفي الذي يشتغل في حرفته، وينطبق على التاجر الذي يتحرك وينشط في أعماله التجارية، ينطبق على سائر الأعمال والوظائف.

المسلم لا يتصور أبداً أنه الخالق لفعله، أو أنه الخالق لثمرات فعله، وإنما يعلم كما علمه الله أن منه العزم فقط، وإنما المثوبة التي يكرمه الله عز وجل بها، على عزمه الذي هيَّجه إلى القيام بالفعل، ثم إن القوة تأتيه من عند الله، والجهد الفكري يأتيه من عند الله، ونتائج أعماله تثمر بعطاء من عند الله سبحانه وتعالى.

فإذا عرف المسلم هذه الحقيقة وأدرك أن الله هو الخلاق لكل شيء، وأنه ليس إلا جندياً يتحرك في قبضته وتحت سلطانه، أصبح أكثر إقداماً إلى الأمور التي يكلفه الله عز وجل بها، وأصبح أقل اكتراثاً بالعوائق، والتضاريس التي قد يراها في وجهه.

فهو يعلم أنه في الحقيقة لا شيء، ولكنه كل شيء بتوفيق الله سبحانه وتعالى وعطائه، إنه لا شيء من حيث الخالقية، فهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً، وهو لا شيء من حيث إيجاد ثمرات الجهد الذي يقوم به، لكنه كل شيء عندما يتجلى الله عز وجل عليه بالتوفيق، وعندما يكرمه الله سبحانه وتعالى بالدعم والعطاء.

فمن هنا تنفجر في كيان المسلم العزيمة الماضية، وتنبثق في كيانه الثقة بنفسه، وهي إنما تنبثق فيه من خلال يقينه بأن الله سبحانه وتعالى سيوقفه كما وعد. من خلال يقينه بأن الله سبحانه وتعالى لن يتخلى عنه، وبأنه سيجعل أعماله كلها مثمرة ناجحة[١].

---

(١) هذا بحث علمي دقيق، ذو أبعاد وجوانب متشعبة. وبوسعك إن شئت أن تدرسه مفصلاً في كتابي «الإنسان مسيّر أم مخير».

فإذا اصطبغ المسلم بهذا اليقين وعلم أن منه العزم الذي متعه الله به، ومن الله القوة والحول والنتاج، قل لي عندئذ: ما الذي يجعله يتراجع ويتواكل؟ ما الذي يجعله يكسل، كما يتوهم أو يدعي أصحاب هذه الأطروحة؟!..

كيف يتراجع ويكسل من يعلم أنه لا يدفع إلا رأس مال واحد، هو القصد والعزم، والباقي كله مدد وعطاء من عند الله؟!... بل كيف يتراجع ويكسل من أيقن بأن الله سيكرمه بالتوفيق وسيحقق له ثمار توجهاته وقصوده؟!..

وقد لخص رسول الله ﷺ هذه الحقيقة في قوله: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. استعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا.. ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان»[١].

ولكن فلتعلم أن العكس صحيح أيضاً، لو كنت أتصور أن قيامي بهذه الأعمال والأعباء التي كلفني الله عز وجل بها، يتوقف على قدرات مني، ويتوقف على تحايل وجهود مني للمغامرة ضد العقبات المخفية التي تقف في وجهي، وضد التضاريس التي تقوم في طريقي، عندئذ سأتراجع.. أقارن بين قدرتي المحدودة، وبين هذا العمل الجبار الكبير، فأجد أنني لست أهلاً له، ومن ثم فلسوف أقول ـ إن بلساني أو بلسان حالي ـ: أنا لست أهلاً لهذه الواجبات التي أُكلَّف بها، أنا لست أهلاً لحمل هذه الرسالة التي كُلِّفت بحملها.. وحتى لو عرفت أنني قد أنجح بعد بذل الجهود، فإن الرغبة في الراحة من شأنها أن تصدَّني عن العمل.

لو كان المسلمون من أهل مكة والمدينة، الذين حُمِّلوا رسالة الدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيلها، يتصورون أنهم بقوتهم الذاتية يحملونها، وأنهم

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه والإمام أحمد.

بإمكاناتهم الثقافية أو الحضارية أو الفكرية ينهضون بها، إذن لما تحركوا من أرضهم، ولما اتجهوا يميناً ولا شمالاً، ولقالوا لرسول الله ﷺ ما نحن وهذه الأعباء التي تكلفنا بها؟.. نحن أناس عشنا منذ أقدم العصور في بقعتنا هذه، لم نلتفت يوماً إلى العالم المحيط بنا يميناً ولا شمالاً، ولا شرقاً ولا غرباً، وأنى لنا القدرةُ على مواجهة هؤلاء الناس الذين هم أعتى منا قوة، وأكثر عدداً، وأوسع علماً؟.. دعنا من دعوتك، فليس لنا قِبَل بشيء من هذا الذي تدفعنا إليه!..

هكذا كانوا سيقولون لمحمد ﷺ.

لكن لما علموا أن القوة هي قوة الله، وأن النصر إنما هو من عند الله، وأن النتائج إنما هي بخلق الله، وأنهم إنما يبذلون شيئاً واحداً؛ هو أن يستنطقوا عزائمهم الصادقة بإعلان الانقياد لأمر الله، والوثوق بوعده المكرر والمؤكد في مثل قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥]

أقول: لما علموا أن القوة قوة الله، والتدبير تدبيره، والنتائج بخلقه، وكلَّ ما يجري في الكون بقضاء منه وقدر، نهضوا.. وانطلقوا كالبرق.. يستخِفون بالصعوبات ويستهينون بالمستحيل!..

فيا عجباً بعد هذا لمن يرى أن سبب هذه الانطلاقة العجيبة، التي لم تعرف كللاً ولا مللاً، ولا حدوداً، هو الكسل والتواكل!...

أين هو قرار العقل من هذا التصور الأخرق، التصور المعكوس؟!. لو كان الأمر كذلك، لكان التواكل دواء الأمم لاداءها، ولكنَّا، وقد زج بنا الكسل والخمول إلى أقصى أودية التخلف، بأمسِّ الحاجة إلى جرعات من دواء ذلك التواكل الذي نهض بأسلافنا المسلمين نهضتهم العلمية والحضارية الخارقة!..

أخلص من هذا إلى أن هنالك قاعدة لا يلحقها أي شذوذ، ألا وهي: كلما

ضعف إيمان الإنسان بسلطان الله سبحانه وتعالى وهيمنته على كل شيء، ازداد خوفاً من الإقدام، وازداد شغفاً بالدنيا وأسبابها وملهياتها، ومن ثم فلابدَّ أن يركن إليها مثقلاً بأعباء الكسل، وطبيعي أن يركن عندئذ إلى التواكل.

وكلما اشتد يقين الإنسان بأن مسبب الأسباب هو الله سبحانه وتعالى، وبأن خالق القوى والقدر هو الله سبحانه وتعالى، وأن تقلبات الناس وآجالهم بيد الله تعالى ازداد يقيناً بالحقيقة التي أوضحتها، فاستسهل العقبات الشديدة، واستخف بالعوائق الخطيرة والكثيرة، واستهان بأمر الدنيا كلها، وانطلق إلى ما قد كلّفه الله به دون كلل أو ملل.

أنا عندما أعلم أن مقاليد سعادتي وشقائي بيد الله، لأنه هو مسبب الأسباب كلِّها، أي: هو خالق الفاعلية فيها لحظة فلحظة، بحيث إذا تخلى الله عنها عادت في اللحظة ذاتها هباء لا قيمة لها، تذوب أهمية الدنيا كلها في قلبي، إذ يَفيض القلب ثقةً بالله وحده، ومن ثم أتجه إليه وحده، أمارس الأسباب استجابة لأمر الله لي بذلك، لا اعتماداً عليها أو تعلقاً بها.. أمارس الأسباب وكُلِّي ثقةٌ بالله عز وجل أنه سينصرني.. سيرزقني.. سيعطيني.. ومهما كانت الأسباب عويصة أو بعيدة عن متناولي فلن أخيب ولن أيأس، لأنني أرى المسبب لها، لأنني أتعامل مع مالكها وقيومها..

ولكن فلتعلم أن العكس أيضاً صحيح، كلما غاب عني المُسَبِّبُ؛ وهو الله سبحانه وتعالى، ونسيت سلطانه وفاعليته، وتراقصت أمامي الأسباب، وغرقتُ في بحارها، وأُخذتُ بمظاهرها، ووقفت أمام شدائدها وصعوباتها، ولاحظت العقبات الكؤود بيني وبينها، فلابد عندئذ أن تتقاصر عوامل النشاط في كياني، وأن أقول بلسان حالي، أو بلسان مقالي: ليس لي إلى غايتي هذه من سبيل، لأن قوتي أضعف من هذه الأسباب التي لا أستطيع أن أمارسها، ولابدَّ أن أرتدَّ

عندئذ عن الطموح الذي أحلم به، استجابة لمنطقي الذي أخضعت عقلي له، إذ ألَّهت الأسباب ونسيت ألوهية الله، وذهلت عن أن الأسباب ليست إلا جنداً من جنود الله. وهذا شأن كل من حبس نفسه في عوائق الأسباب المادية، ولم يبصر سوى نظامها وطبيعتها.

إذن من الذي يقع في أسر التواكل؟..

إن الذي يقع في أسره هو ذاك الذي لم ير المُسبِّبَ، ومن ثم يثق به ولم يستمِدَّ القوة منه، وإنما رأى الأسباب وحدها وسجن نفسه في داخلها، فإن أمكنته الظروف وسايرته رياح الأسباب، سار وعمل.. وإن عاكسته الظروف، واستعصت عليه الأسباب، فلسوف ينكِصُ على عقبيه ويقبع داخل جدران الاستسلام والكسل.

ثبت إذن أن الأمر على عكس ما يقولون، ومن لم يؤمن به نظرياً ومنطقياً فلابد أن يؤمن به بسائق من الواقع التاريخي.. الفتوحات التي تمت في مجاهل إفريقيا، ثم وصلت إلى شمال إفريقيا، ثم تجاوزت حوض البحر المتوسط إلى أوروبا.. الاختراقات التي اخترقها أصحاب رسول الله ﷺ ذات اليمين والشمال من العالم.. كل ذلك نتيجة ماذا؟.. أهو نتيجة كفر بالقضاء والقدر، أم نتيجة إيمان بالقضاء والقدر؟.

عندما كان عقبة بن نافع ينادي وسط الأدغال حيوانات الغابات قائلاً: «أيتها السباع الضارية جئنا لنؤدي رسالة الله في هذه البقاع، فابتعدوا عن سبيلنا إليها» أفكان ينادي تلك الوحوش، بهذا النداء العجيب، كما ذكر المؤرخون، من أجل أنه كان متحرراً من الإيمان بالقضاء والقدر، أم من أجل أنه كان شديد الإيمان بالقضاء والقدر، شديد الثقة بقول الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]..

بقي أن أقول شيئاً آخر: كأني بكم تقولون بالمناسبة: وهل الأسباب لا فاعلية لها؟!..

لعلكم تصيدتم من كلامي هذا المعنى، وأدركتم أنني أنفي وجود أي فاعلية للأسباب، ولعلكم تقولون: إذا كان الأمر كذلك فلماذا نتعاطاها ونتعامل معها؟

إذا لم تكن هنالك فاعلية للطعام الذي نأكله، لماذا نأكل؟ إذا لم تكن هناك فاعلية للماء الذي نشربه عند الظمأ، لماذا نشرب؟ إذا لم تكن هنالك فاعلية للدواء الذي نتعاطاه عند المرض، لماذا نتجرعه؟

قبل كل شيء، أؤكد لكم يقيني العلمي بأنه لا توجد فاعلية في هذه الأسباب. أقول هذا لكل من سبق أن آمن بالله، أما من لم يؤمن بالله عز وجل بعد، فالحديث عن هذا الموضوع سابق لأوانه، وينبغي ـ منهجياً ـ أن نعود معه إلى أصل الإيمان بالله عز وجل، ولكنني أخاطب الآن بهذا الذي أقوله الذين سبق أن آمنوا بالله عز وجل.

ما معنى الإيمان بالله؟

معناه أن نتيقَّن بأنه هو الفعَّال لكل شيء، وبأنه لا توجد فاعلية من دونه لشيء ما في الكون، فإذا نظرنا إلى الأسباب التي يخيل إلينا أنها أسباب، كالنار التي هي سبب للإحراق، والسم الذي هو سبب للهلاك، والماء الذي هو سبب للرِّي، والطعام الذي هو سبب للشِّبع، إلى آخره.. فلنعلم أنه لا توجد في داخل هذه الأشياء أي فاعليةٍ جاثمةٍ في داخلها.

إذن لماذا سُميت أسباباً؟..

هنالك اقترانات مستمرة بين السابق واللاحق منها، بربط وخلق من الله عز وجل.. يخلق احتراق الهشيم كلما لامسه النار.. يخلق الشبع في كياني كلما أكلت.. يخلق الري فيَّ كلما شربت.. يخلق سبحانه وتعالى الشفاء من الداء كلما

استعملت الدواء، وشاء الله ذلك.. حتى السكين التي تستعمل للذبح ونحوه، فإن الذي يخلق في السكين فاعلية الموت هو الله سبحانه وتعالى.

إن تأمل أحدكم في كلامي هذا وقال: فأنت تسقط إذن الفاعلية من الأسباب، أقول: لم توجد حتى أسقطها، وأنا أؤكد أنها لا توجد!..

العلماء الذين يتحدثون عن الأسباب ومسبباتها ماذا رأوا من الفاعلية السارية من الأولى إلى الثانية؟ وعلى أي شيء من ذلك وضعوا أيديهم؟!..

رأوا ما سموه سبباً لأنه سابق ورأوا ما سموه مسبباً لأنه لاحق، رأوا النار أولاً، ورأوا الاحتراق ثانياً، ورأوا الاستمرار في هذه النتيجة عند استمرار الاقتران، هذا هو كل ما يراه العالم في مراقبته لما يسميه السبب والمسبب، اقتران مجرد، ثم استمرار لهذا الاقتران، دون أن يكتشف أي زيادة على ذلك، أي دون أن يضع يده على فاعلية خفية كامنة في النار؟

ولكن لمَّا استمرت هذه العلاقة تتكرر دون أي شذوذ، ظن الناس بمن فيهم العلماء أن هنالك إذن فاعلية كامنة في النار بها يتم الإحراق.. ومن ثم ظنوا أنها سبب حقيقة موجب للإحراق، كذلكم القول في السم وفاعلية الهلاك، كذلكم القول في الطعام وفاعلية الشبع، كذلكم القول في الماء وقابلية الري إلخ.

وهذا في الحقيقة وهم من الأوهام الكثيرة التي تدخل على كثير من المفكرين بل العلماء؟.. رأوا ثلاثة أمور في علاقة ما بين السابق الذي سمي سبباً، واللاحق الذي سمي مسبباً، وفاتهم أنهم لم يروا الرابع، وهو أولها وأهمها.

رأوا السبب ورأوا النتيجة ورأوا الاقتران المتكرر، ولكنهم لم يروا أي تأثير ينبعث من السبب إلى المسبب. فاكتفوا بالثلاثة الأولى، وقالوا: ما دام الاقتران بين السابق واللاحق مستمراً دون شذوذ ولا انفصال، إذن فلابد أن في الأول

تأثيراً كامناً ينبعث مؤثراً في الثاني، ولو لم نره ولم نجد أي دليل عليه!..

أقول: وهذا حكم فضولي غبي، شارد عن حدود التجربة والمشاهدة. فالاقتران المستمر بين أمرين ليس دليلاً بالضرورة على حتمية استمرار هذا الاقتران، أو على ضرورة وجود تأثير طبيعي كامن فيما نسميه سبباً.

ولكي نزيد هذه المسألة بياناً دعونا نتساءل:

ما الذي اكتشفه العلماء من علاقة الأسباب بالمسببات، واطراد النتائج المنبثقة عنها؟

إنهم لاحظوا السبب أولاً، والنتيجة ثانياً، وطول الاقتران بينهما ثالثاً، هذا كل ما قد لاحظوه أو اكتشفوه!.. أي: أن العالم يلاحظ أن النار كلما تلاقت مع جرم قابل للاحتراق كالهشيم مثلاً حدث الاحتراق، ثم إن العالم يكرر التجربة ولا يزال يكررها، فلا يجد أن شذوذاً قد وقع، فيستخرج من هذا التكرار المستمر يقيناً بأن النار فيها سر طبيعي حتمي، وأنها بموجب هذا السر تُحدث الإحراق، ثم إنه يجعل من تصوره هذا قراراً يحكم به على المستقبل، فيقول أنا أجزم جزماً يقينياً بأنني كلما ألقيت هذه الورقة في النار سيحدث الاحتراق، ولو سألته: ما دليلك؟ يقول: طول الاقتران، واستمراره وتكراره الذي أربى ربما على مليون مرة. فهذا اليقين هو الذي يجعلني أعتقد أن هذه الفاعلية لن تتخلف.

لاحظوا أن ها هنا حكماً فضولياً ليس له أي غطاء علمي!.. أنا رأيت النار، ورأيت الهشيم، ورأيت الاحتراق، ولكني لم أضع يدي على الفاعلية الحتمية التي أفترضها، إذن فهذا حكم فضولي. لماذا (وقد آمنت أن الله هو الإله الفعال وأنه هو مسبب الأسباب) لا أقرر بأن النار عندما تلتقي مع الهشيم يخلق الله عز وجل فيها الاحتراق، من ثم فهو عز وجل يملك أن لا يخلق هذا الاحتراق فيها عندما يشاء؟!..

فإن قال منكم قائل: وهل من دليل على ما تقول؟ الناس جميعاً يعتقدون أن النار لابد أن تحرق، نظراً للتجارب القديمة والمستمرة، أقول: سآتيكم بدليلين، دليل عملي، ودليل نظري، وكلاهما بعيد عن مقاييس الدين.

أما الدليل العملي، فأذكركم بما يسمونه: «قانون رد الفعل الشرطي»، الذي ينسب إلى العالم الروسي بافلوف، والحقيقة أنها قاعدة معروفة ومقررة عند علماء المسلمين، واسمها عندهم: «سبق التصور إلى العكس» وكم فصل القول فيها الإمام الغزالي في أوائل الجزء الأول من كتابه المستصفى. ولكن عشاق الحضارة الغربية تتيه أبصارهم عن رؤية الكنوز والمُدَّخرات التي يزخر بها تراثهم، ثم يتجهون اتجاه الفقير المحروم إلى ما ينطق به باحث غربي من حقيقة لم يكن قد سمعها، فيتعلق بها وينسبها إليه، ويدين له بالولاء من أجلها.

تقول خلاصة هذه القاعدة: إن المؤثر الصناعي إذا صاحب المؤثر الطبيعي يأخذ فاعليته. وقد جرب ذلك بافلوف عندما عمد إلى جمع من الكلاب، أربعين تقريباً. وأخذ يجيعها كل يوم جوعاً شديداً ثم يقدم إليها الطعام مصحوباً بجرس يقرع، واستمر يفعل ذلك مدة خمسين أو ستين يوماً. ثم إنه قرع الجرس على أسماع هذه الحيوانات دون أن يقدم لها الطعام، وإذا هي جميعاً تتجه باحثة عن الطعام وقد سال لعابها، وظهر التأثير الطبيعي لديها بسبب سماع صوت الجرس، ظانة بأن الطعام قد حضر، ما دام الجرس قد قرع!

ما علاقة هذه الظاهرة بموضوعنا؟

هي موضوعنا ذاته، خيل إلى هذه الحيوانات أن بين الأول والثاني علاقة حتمية، من أين جاءت هذه العلاقة؟ ولماذا هي حتمية؟ جاءت من طول الاقتران بين شيئين. ولو كانت لتلك الحيوانات لسان تنطق به معبرة عما وقر في ذهنها. لقالت كما يقول كثير من الناس اليوم: إن هنالك علاقة حتمية بين قرع الجرس

وبين الطعام. ونحن نعلم أن الشيء الذي رُئي من قِبَل هذه الحيوانات عبارة عن جرس وطعام واقتران، فتخيلت حتمية العلاقة من جراء ذلك، ولكن تبين فيما بعد أن هذا التصور خطأ؛ لأن الذي ربط بين قرع الجرس والطعام طوال تلك الأيام هو بافلوف!!..

ما الفرق بين علاقة الجرس بالطعام. وعلاقة الطعام الذي نأكله بالشبع؟ أو بينها وبين علاقة النار بالاحتراق؟

ما الفرق بين هذا الذي فعله بافلوف في الربط بين أمرين لا علاقة ذاتية بينهما. وبين ما قضاه الله من الربط بين عالم الأسباب والمسببات، وقد علمنا أن لا علاقة ذاتية بينهما أيضاً؟

كما أن اقتران الجرس بمجيء الطعام لم ينبثق عن علاقة حتمية بينهما، فكذلك الاقتران الذي نراه بين النار والاحتراق، ليس ناشئاً عن علاقة حتمية سارية بينهما!..

هنالك بافلوف قرن بين الجرس والطعام، وهنا في عالم ما نسميه: الأسباب والمسببات، الله سبحانه هو الذي قرن السابق منهما باللاحق، وليس في مُكنةِ العلم أن يلحظ أي فرق بين الأمرين.

وأما الدليل النظري، فهو ما يقوله العالم الوضعي المعروف (دافيد هيوم) يقول: لو رأيت أن الهشيم احترق في النار مليون مرة، لابدَّ لكي أؤمن بأنه سيحترق للمرة الأخرى بعد المليون من أن أجرب، فأضع الهشيم في النار وأرى بعيني الاحتراق، ذلك لأنني لا أعلم ما الذي تفاجئني به الطبيعة، أنا أملك يقيناً في مخزن عقلي بكل ما قد وقع، لأنه قد حصل فعلاً، ولكني لا أملك يقيناً علمياً بالنسبة للمستقبل، لأن المستقبل مجهول، والليالي حبلى كما يقولون، ولعل هنالك عوامل خارجية تتدخل.

هذا كلام نظري من عالم؛ لا يشك أحد في أنه مرجع علمي هام في هذا الموضوع.

ما هي الترجمة الدقيقة العلمية عندنا نحن المسلمين لهذا الكلام؟

الترجمة الدقيقة العلمية لها، هي أن الإله الذي خلق النار ووظفها للإحراق، هو الذي يسلب عنها الوظيفة عندما يشاء، بل هو الذي يخلق الاحتراق الفعلي عند هذه الملامسة، ومجرد الاقتران لا يعطي دليلاً على حتمية العلاقة كما قلنا وأوضحنا... ومن هنا فإننا نقول: إن ما تقوله الأرصاد الجوية عن توقعات محتملة لا يمكن أن ترقى إلى درجة اليقين العلمي؛ لأنها لم تقع بعد، كما يقول هيوم.

كذلكم التوقعات الطبيعية عن خسوف سيقع، أو عن أي أمر يمكن أن يصدر، لا يمكن أن يرقى ثم يرقى إلى درجة اليقين العلمي، ذلك لأنه لا يزال في رحم الغيب الذي لا ندري ما الذي يحمله معه من عوارض ومفاجآت، فالمسألة إذن ظنية.

لا يمكن للطبيب مهما رأى دلائل الذكورة أو الأنوثة من خلال الصبغيات، أن يدلي بقرار علمي بأن الجنين سيكون ذكراً أو سيكون أنثى.

ومهما ارتفعت الدلائل وقويت، لن ترتفع فوق مستوى الظن، لماذا؟ لأن هذا الاقتران الذي استخرجنا منه قانون العلية لا يدل على الفاعلية الذاتية أبداً، بل إن احتمال الانفكاك وارد.

هذه الكتلة الهوائية التي أراها تتجه غرباً، ومن ثم أفترض أنها ستصل بعد ساعة إلى جهة تبتعد ألف كيلو متر مثلاً عن هذا المكان، لا أستطيع أن أجزم بأنها ستواصل سيرها في هذا الاتجاه؛ لأن الذي وظفها في هذا الاتجاه يملك أن يوقف وظيفتها، ويملك أن يوقف فاعليتها إن كان فيها فاعلية.

هذه حقيقة معروفة، وكم خاب التوقع المحسوب ووقع ما لم يكن في الحسبان. والشأن في توقعات الطبيب كذلك، هو لا يستطيع أن يجزم اعتماداً على تجاربه المتكررة بأن هذه الصبغيات بهذا الشكل ستنتج الذكورة أو الأنوثة قطعاً، لأن الخوارق موجودة وإن لم يكن لها قانون منظور محدد.

وهكذا، فقد ثبت أن ما يخيل إلينا من فاعلية الأسباب ليس إلا وهماً، الأسباب من حيث هي ظاهرة موجودة، ولكن الفاعلية بيد الله سبحانه وتعالى، والعلاقة ليست كامنة بين سبب ومُسَبَّب، وإنما هي كامنة بينهما من جانب، وبين الله الخالق لهذه النتائج من جانب آخر.

لكن بقي أن أجيب عن سؤال، قد يطرحه من يقول: فإذا كان ما تقوله صحيحاً، فيجب أن تبطل أنشطة الناس وجهودهم الكثيرة المتنوعة، في حكم الدين بل في نظر هيوم أيضاً، وما ينبغي للناس أن يربطوا سبباً بنتيجة.

وإذن فبوسعنا أن نقتحم النار، ومن احترق في النار بعد أن اقتحم فيها ينبغي أن لا يعد منتحراً، ولنا أن نستفَّ السم، ومن مات بعد ذلك يجب أن لا يعد منتحراً، وللإنسان أن لايستعمل الدواء؛ لأن فاعلية الدواء آتية من عند الله سبحانه وتعالى، وله أن لا يأكل؛ لأن المشبع هو الله، وأن لا يشرب؛ لأن الذي يروي هو الله سبحانه وتعالى، في حين أن الدين نفسه يمنعنا من ذلك كله، ما الجواب عن هذا؟

الجواب ما قاله العلماء، ومنهم الإمام الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة»: من أن هنالك يقيناً تدريبياً ويقناً، أما اليقين العلمي بأمور غيبية اعتماداً على ظاهرة الأسباب والمسببات فلا يوجد إطلاقاً، مهما رأيت السبب أمامك لن تستطيع أن تتيقن علمياً بأن المسبب سيقع.. مهما استعملت الدواء لن تتيقن علمياً بأن الشفاء سيتحقق من ورائه.

لكن هناك يقين تدريبي، أي: يقين ناتج في النفس من حيث الطمأنينة، لا في العقل من حيث الإدراك، ويتكون هذا اليقين النفسي من ملاحظة طول الاقتران، وقد قضى الله أن سننه في الكون لا تتبدل ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢] أي: إن قوانينه التي أقام الكون عليها ستستمر ولن يستبدل بها قوانين أخرى، فالطعام وظفه الله للشبع، والماء وظفه الله للري، النار وظفها الله سبحانه وتعالى للإحراق، والله عز وجل قادر على أن يوقف هذا الربط والنظام، لكنا لما جربنا، واستمرت التجربة، ورأينا العلاقة مستمرة، حدث لدينا يقين تدريبي بحصول النتائج بعد تحقيق مقدماتها. فأحكام الله التي تلزم الإنسان بالتعامل مع الأسباب واحترامها إنما ترتبط باليقين التدريبي، لا باليقين العلمي.

وعلى هذا الأساس لا يجوز للإنسان أن يقتحم النار، ولو فعل ذلك لاعتبر منتحراً، لا يجوز للإنسان أن يتخلى عن الطعام إذا جاع، ولو أنه أضر بنفسه بسبب ذلك لارتكب جرماً.. كذلك استعمال الدواء.. كذلك التعامل مع الأسباب الكونية كلها.. إذ إن اليقين التدريسي بحصول النتائج موجود. وهو كاف لترتب الأحكام عليه. ولكن ونحن نتعامل مع هذه الأسباب بموجب اليقين التدريبي، ينبغي أن لا ننسى أن الفاعلية بيد الله سبحانه وتعالى، وأن نستيقن ذلك، وهذا اليقين الثاني هو الذي يجعلنا نستهين بالصعوبات، ونغامر ضد العوائق، لأننا نعلم أننا إذ نستجيب في ذلك لأمر الله إنما نتحرك بفاعليته واعتماداً على تأييده وتوفيقه.

وهذا يذكرني ويذكركم بكلام الله سبحانه وتعالى عن سيدنا إبراهيم، يوم غضب عليه نمرود، وقرر في محكمته الجائرة أن يحرقه بنيرانه العظيمة التي أشعلها، ولعلكم تعلمون هول تلك النار التي استوقدها لحرقه.. وجيء بسيدنا إبراهيم، فألقي بواسطة القاذف «المنجنيق» في تلك النار.

ولنصغ إلى حديث الله سبحانه وهو يخبرنا عن النار التي استوقدها نمرود لحرقه، دون أن يعلم أن النار جند من جنود الله، لن تستجيب إلا لأمره ولن تتحرك إلا تحت سلطانه، يقول: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠].

لاحظوا هذا الكلام: قالوا.. وقلنا..

نمرود أطلق أمره إلى النار التي هي نار الله، والتي ليست لها فاعلية إلا بأمره، أن تحرق إبراهيم وتهلكه!. والله عز وجل أطلق أمره إلى هذه النار أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم.

فلمن تستجيب النار؟ للمخلوق التافه الخاضع ـ شاء أم أبى ـ لسلطان الله، أم للخالق الذي خلق النار والمكونات كلها، وأقام كلاً على وظيفته التي أناطه بها قائلاً عن ذاته: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

لقد كانت استجابة النار لخالقها التي هي جند من جنوده، فانفصلت عنها صفة الإحراق، وتحولت إلى واحة أنس، كما أمر الله عز وجل.

أترون أن هذا اليقين الذي اتضح وضوحاً علمياً ومنطقياً كافياً، يسلمني إلى التواكل والكسل، والتواني عن تنفيذ أوامر الله، أم يدفعني إلى اختراق الحواجز ونسج البطولات والاستخفاف بالمصاعب، سعياً إلى تحقيق هذه الأوامر والأحكام؟!..

أعتقد أنه ليس فيكم من لا يعلم الجواب!..

إذا تبين لنا ذلك؛ فأرجوا في نهاية هذا البحث أن لا ننسى هذا القانون العلمي الذي استفدناه من خلال مناقشة هذه المقولة، التي يتطارحها بعض الناس فيما بينهم، ولا تنسوا أنه قانون علمي قبل أن يكون حكماً دينياً، وإنكم

لتعلمون أن العلم كان ولا يزال ساجداً لدين الله الصحيح الحقيقي، أقول: لا تنسوا أن في الكون أسباباً مادية وغير مادية يجب أن نتعامل معها؛ لأن الله عز وجل أمرنا بذلك، أي: يجب أن نستنبت الأرض بواسطة الأمطار، ويجب أن نستعمل النباتات للخير الذي وظف الله هذه النباتات من أجله، ويجب أن نستعمل الأدوية من أجل التخلص من الأدواء والأمراض، لأن الله عز وجل بمقدار ما خلق في الأرض أدواءً وأمراضاً وجراثيم فتاكة، خلق ما يقابلها وبقدرها أدوية بثها في الأعشاب وفي غير الأعشاب. وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «تداووا يا عباد الله، فإن الله ما أنزل داء إلا وأنزل له شفاء إلا السام» أي: الموت[١].

إذن نتعامل مع الأسباب في حماية أنفسنا وفي رعاية حياتنا، وفي البناء الحضاري بكل أنواعه، ولكن يجب علينا أن نعلم أنه لا توجد أي فاعلية في هذه الأسباب، إنما الفاعلية آتية من عند الله عز وجل، غير أننا نحترمها ونتعامل معها تنفيذاً لأمر الله الذي ربط بين هذه الأسباب وبين نتائجها، بخلقه وتدبيره.

وهذا يعني: أنه لا حجة في عمل أناس من الصالحين نثق بصلاحهم وتقواهم إذ أعرضوا عن التعامل مع الأسباب، ربما آثر الواحد منهم أن يعيش في كهوف قاصية نائية، وربما عضَّ على معدته الجوع، دون أن يتحرك للبحث عن طعام أو شراب. أو ربما دخل البادية، وسار مشرقاً أو مغرباً، وهو لا يحمل معه أي زاد!.. وإذا جاء من يسأله: لماذا يغامر؟! نبهه إلى أنه يتعامل مع الله، ولا يتعامل مع الأسباب.

هؤلاء الناس وإن كانوا صالحين، فإن واقعهم حجة على أنفسهم وليسوا حجة على شرع الله.

---

(١) رواه أحمد والحاكم في المستدرك وابن حبان من حديث أسامة بن شريك.

ولعل الواحد من هؤلاء يتقلب في أحوال استثنائية، كنشوة تعتريه لدى شهود الله عز وجل، فيذهل عن الأكوان التي يعيش في غمارها، وينسى ما هو فيه من عالم الأسباب، فيتصرف مثل هذا التصرف .

ولا شك أنه تصرف غير شرعي، ولا يتفق مع موازين الدين وأحكامه ولكن الله لا يحاسبه؛ لأنه يتقلب في غمرة، لو أن واحداً منا تقلب في مثلها لربما اتجه إلى مثل تصرفه.

إذن نحن نعذره ولكننا لا نجعل منه قدوة لنا، ولا نجعل من واقعه قانوناً نتبعه. وإنما قدوتنا في هذا الأمر رسول الله ﷺ وأصحابه والسلف الصالح من بعدهم. وقد كانوا يتعاملون مع الأسباب في حياتهم الشخصية والاجتماعية وفي سائر تقلباتهم المعيشية.

ولو قال قائل منا ـ وهو في حالة صحو ومعرفة لنظام الكون وسنن الله فيه ـ: بل إن الله قادر على أن يشبعني بدون طعام، وأن يشفيني بدون دواء.. الخ، وأعرض بهذه الحجة عن التعامل مع الأسباب، لأساء الأدب مع الله عز وجل، ولكان تصرفه نوعاً من الدلال الممجوج على الله! ..

أقام الله أمامي الطعام لآكله فيخلق لي الشبع على أعقابه، فأقول له: ولكني لن آكل، سأنتظر أن تخلق الشبع في كياني بدون أكل.. لن أتعالج بل أنتظر أن تشفيني بدون دواء.. لابدّ أن يأتيني نداء الشرع في هذه الحال قائلاً: من أنت حتى تطلب من الله سبحانه وتعالى أن يغير قوانينه في الكون من أجلك؟!..

ولكن في الناس من قد لا يؤاخذهم الله بمثل هذا الموقف، وهم الذين طافت برؤوسهم سكرة اللاوعي من الاستغراق في مراقبة الله وشهوده، فذهلوا عن الأكوان بالمُكوِّن، ووقعوا فيما يسميه العلماء: «بحالة الفناء»، أي: الفناء الشعوري عن الأكوان وأنظمتها وقوانينها.. فهؤلاء معذورون بتصرفاتهم، ولا

يجوز لأصحاب الصحو من أمثالنا أن يجعل منهم قدوة يتأسى بهم. إذ إن القاعدة تقول: ما جرى على خلاف القياس فغيره عليه لا يقاس.

وقد يقول بعض الناس: أفكان هؤلاء أقرب إلى الله من رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى وقعوا في ذلك السكر الشهودي وحرم منه رسول الله ﷺ وأصحابه؟..

والجواب أن حالة الصحو التي تجعل الإنسان يستخدم الدنيا لتنفيذ أوامر الله وأحكامه، هي الحالة الأرقى وهي الدرجة الفضلى. وهي الدرجة التي كان يتبوؤها رسول الله ﷺ، ثم الصحابة الذين كانوا في عصره.

ثم إن رسول الله ﷺ إنما بعثه الله مشرعاً وقدوة للناس، إذن فقد كان لابدّ أن يُمتَّع بقدرات تحرره من مثل هذا السكر الذي من شأنه أن يزجه في الفناء عن الدنيا.. فكان عليه الصلاة والسلام في الوقت الذي ينصرف بكلِّ مشاعره إلى مراقبة الله تعالى، يقبل إلى الدنيا يتعامل معها ويستخدمها ويسخرها لإقامة المجتمع الإنساني السليم.. وكان أصحابه الذين هم خير القرون يتمتعون بالمزية ذاتها، فكانوا عرشيين بمراقبتهم الدائمة لله، فرشيين بتعاملهم التام مع عالم الأسباب.. أولئك هم قدوتنا الذين أمرنا الله أن نسلك مسالكهم ونتأسى بهم.

أما هؤلاء القلة الذين ضاقت قلوبهم عن الاتساع لتجليات الله، وباهر صفاته، فتاهوا عن أنفسهم، وعن الدنيا التي من حولهم، نجلّهم ونعذرهم، دون أن نقتدي بأي منهم.

يُغَالِطُونَكَ إِذْ يَقُولُونَ :

# ٱلْمَرْأَةُ مَهْضُومَةُ ٱلْحُقُوقِ فِي ٱلشَّرِيعَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ

والآن تعالوا أيها الإخوة والأخوات، نصغ إلى مقولة أخرى، يرددها كثير من أبناء جلدتنا، مقلدين فيها المجتمعات الغربية، وربما أيضاً بعضاً من أعضاء هيئة الأمم المتحدة، هذه المقولة تتلخص في قولهم: المرأة مهضومة الحقوق في ظل الشريعة الإسلامية.

فهل هذه الدعوى صحيحة؟..

لكي نصل إلى جواب موضوعي صحيح عن هذا السؤال، ينبغي أن نناقش هذه الدعوى، وأن نتبيَّن نقاط التهمة التي تُوَجَّهُ إلى الشريعة الإسلامية في هذا الصدد.

وبادئ ذي بدء أحب أن أُذِكِّرَ بأن الغرب يأبى إلا أن يجعل من نفسه مدعياً يتهم الشريعة الإسلامية، ثم قاضياً يجرمها فيما يتعلق برعاية حقوق المرأة!..

والواقع الذي سنلاحظه بعد البحث والنقاش أن الأمر يقتضي عكس ذلك، يقتضي أن يوضع الغرب ـ لا غيره ـ في قفص الاتهام، وأن يوقف أمام قضاء عادل ينظر في إساءته البالغة الكبرى إلى المرأة وهضمه لحقوقها.

ولكن يا عجباً لمتهم تُشَمُّ رائحة الجريمة من كفيه، ومع ذلك يأبى إلا أن يقف قاضياً ليُجَرِّمَ، وليُجِّرمَ منْ؟.. ليجرم الشريعة الإسلامية متهماً إياها بالإساءة إلى حقوق المرأة.

أعتقد أن فيكم من قد يتصور أن كلامي هذا ينطوي على دعوى عريضة، ومن ثم فلابدّ أن يقول ما دليلك على هذا الكلام؟..

سيتبين الدليل من خلال مناقشتنا لهذه المقولة، ولسوف يكشف هذا النقاش عن الذي أجرم في حق المرأة، وأساء إليها وخنق حقوقها.

ولكني أحب أن ألفت النظر إلى أنني لن أتحدث عن القوانين المكتوبة والمحفوظة في أدراج هيئة الأمم المتحدة، ولا في أي صقع من أصقاع العالم الأوروبي أو الأمريكي. وإنما سأتحدث عن واقع المرأة الغربية في المجتمعات الغربية، وما قيمة القوانين الشكلية أمام الواقع التنفيذي في هذا الصدد؟!..

وعندما أتحدث عن الشريعة الإسلامية المُتَّهَمَةِ ينبغي أن أتحدث عن أحكام الشريعة كما هي في مصادرها، لأنها هي المتهمة، وليس المتهم الواقع الجانح الذي يقع فعلاً في كثير من مجتمعاتنا!..

لو كان المتهم هو واقعنا الجانح، لاعترفنا ببعض ذلك، ولكن بما أن التهمة تتجه إلى الشريعة الإسلامية، إذن ينبغي أن ننظر في هذا إلى المجتمع الغربي من جانب، وإلى الشريعة الإسلامية من جانب آخر.

تعالوا نتساءل أولاً: ما هو مصدر حقوق المرأة وواجباتها في كل من الشريعة الإسلامية والمجتمعات الغربية؟.

ولنتساءل أولاً: ما هو مصدر واجبات المرأة في الشريعة الإسلامية؟

مصدر ذلك عبوديتها لله عز وجل، ولولا أنها تتصف بكامل العبودية لله لما خاطبها الله بشيء من التكاليف..

حسناً، فما هو مصدر حقوقها في الشريعة الإسلامية؟.. مصدر ذلك إنسانيتها التي تتمتع بها والتي يقر لها بها الإسلام.

نعود إلى الواجبات فنقول: نظراً إلى أن الرجل والمرأة متساويان في صفة العبودية لله، إذن فالواجبات والتكاليف التي يخاطب بها الله الرجال والنساء واحدة!. الإيمان بكل نتائجه واجب يخاطب به الإسلام الرجل والمرأة معاً.. العبادات التي شرعها الله عز وجل واجب يخاطب الله به كلاً من الرجل والمرأة معاً.. النهوض بواجبات البناء الحضاري في مثل قوله الله عز وجل: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم

﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] واجب يخاطب الله سبحانه وتعالى به كلاً من الرجل والمرأة معاً.. إذن لا فرق في الواجبات بين الرجال والنساء.

وقد قلنا الآن: إن مصدر حقوق المرأة في الإسلام إنسانيتها. وبما أن المرأة والرجل يجمعهما جامع مشترك واحد في صفات الإنسانية وحكمها، إذن فيجب أن تكون حقوقهما متساوية أيضاً. هذا هو قرار الشريعة الإسلامية، وذلك هو مصدره!.. ولما كان حديثنا هنا في الحقوق لا الواجبات، فلنقف بشيء من التفصيل عند الشريعة الإسلامية بوحدة الحقوق بين الرجل والمرأة، ولنلفت النظر إلى مصداق هذا القرار في الحقوق الإنسانية المتنوعة:

■ حق الحياة، حق مشترك على السواء بين الرجل والمرأة، يقول الله عز وجل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] وعبر بكلمة النفس لتشمل الرجل والمرأة على حد سواء، ومن ثم فإن شرعة القصاص تلاحق القاتل سواء كان المقتول رجلاً أو امرأة[١].

■ حق الأهلية حق مشترك بينهما أيضاً، وأنا أعني بالأهلية الحقوق المدنية التي يعرفها كلٌّ منكم، فقد جعلها الله سبحانه وتعالى شركة تقف على قدم المساواة بين الرجل والمرأة، فالمرأة تستطيع أن تتصرف بمالها كما تشاء، تستطيع أن تتملك، تستطيع أن تبيع وأن تشتري، وأن تتاجر بمالها كما يفعل الرجل تماماً. تستطيع المرأة أن تقاضي، أن ترفع الدعاوي، أن تفعل من ذلك ما تشاء دون أن توكل أحداً ينوب عنها.

---

(١) قد يقال: ولكن دية الرجل تختلف عن دية المرأة، والجواب: أن تفاوت الدية بينهما من قبيل التسوية الحقوقية وليست نتيجة لتفاوت قيمة الرجل والمرأة. وذلك أن النكبة المالية التي تلحق بالأسرة بقتل ولي أمرها الرجل أشد من التي تلحق بقتل المرأة فيها، إذ هو المنفق بحكم الشرع وأمره.

إذا خرجت المرأة فاشتغلت تملك من الأجر ما يملكه الرجل، سواء بسواء دون أي فرق، وهكذا سائر الحقوق المدنية التي نُعبِّرُ عنها بالأهلية، يتساوى في نيلها كل من الرجل والمرأة على السواء.

■ وكذلك حق الحرية، وما قد يتفرَّعُ عنها.. والحديث في بيان ذلك متسع والوقت يضيق، ولكني سأقف عند النقاط التي أعتقد أنها هي محل البحث والنقاش، ولن أدعها تمر دون شرح وبيان.

تعالوا نتساءل بالمقابل ما هو مصدر واجبات المرأة في المجتمعات الغربية، وما هو مصدر حقوقها؟

أما مصدر واجباتها فهو المصالح المادية التي يعبدها الغرب، والتي تطوف أنشطة الغرب حولها وحدها، فالمصالح المادية هي مصدر الوجبات التي تُلاحَقُ المرأةُ بها.

ماذا كان من نتائج هذا المصدر؟ كان من نتائج ذلك أن المرأة هي المكلفة بأود نفسها!. هي المكلفة إذا بلغت سن الرشد قادرة على العمل بأن ترعى مصالحها وأن تنفق على نفسها، سواء كانت فتاة في بيت أبويها، أم كانت زوجة في بيت زوجها، أي: فلا مجال لأن يكلَّف الوالد بنفقتها، كما لا مجال لأن يكلَّف الزوج بالإنفاق عليها، ذلك لأن أفراد المجتمع يلهثون جميعاً وراء مزيد من المال، فالواحد منهم لا يملك من الوقت إلا ما يستطيع أن يجمع فيه المال لنفسه. ومن ثم فهو لا يستطيع أن يحمل مسؤولية أحد غيره ابنةً أو زوجةً.

على كل فرد في المجتمع الغربي، أن يطرق باب العيش منفرداً لنفسه. واجتماع الزوج والزوجة تحت مظلة الحياة الزوجية لا يعني أي مسؤولية متبادلة بشكل من الأشكال؛ ومن هنا فإن المرأة الغربية لا خيار لها في العمل عندما تبلغ سن الرشد، لابد إن أرادت أن تعيش، أن تخرج فتطرق باب عمل ما.

وليت أنها تملك انتقاء ما يناسبها من الأعمال.. إذن لما كان في ذلك أي إشكال، ولكن واقع مجتمعها القاسي يلزمها أن تبحث عن أي عمل تكتسب من ورائها رزقها!.

ربما صادف البعض العمل المناسب الذي يروق لهن، لكن الغالبية العظمى منهن لا يجدن إلا العمل المضني الذي يضطرهن الحال إلى قبوله!.

ولعلك تذهب إلى الغرب فتجد قشرة اجتماعية تتألف من مظاهر أعمال يسعد بها عدد من النساء، لكن هذا إنما يشكل المظهر الخارجي فقط، اخترق هذا المظهر وانظر إلى ما وراء ذلك، تجد الحياة المأساوية التي تُطحن بها قدرات المرأة طحناً.

ذلك لأن المرأة هناك مضطرة إلى أن تبحث عن العمل الموجود سواء اتفق أو لم يتفق مع أنوثتها، وسواء طحن إمكاناتها أو استبقاها.. وما أكثر ما تجد في الغرب نساء فقدن آخر بقايا أنوثتهن، تحت ضغط الأعمال المرهقة التي ألجأتهن الضرورة المشقية إليها. بوسعك أن ترى الكثير من العاملات في أنفاق المترو وبعد أنصاف الليالي، بوسعك أن تراهنَّ وهن يكسحن القمامة، بوسعك أن ترى المرأة وهي تشترك مع الحمالين في نقل الأثقال المرهقة!.. بوسعك أن ترى النساء وهن يقدن تكاسي الأجرة ويحملن إليها الحقائب الكبيرة!..

وقد رأيت نماذج كثيرة من كل ذلك، أذكر أنني رأيت في مدخل أحد المطارات في أحد بلدان أوربا سيارة تاكسي وقفت، ونزل منها شخص يلبس (أفارول) العمل، وسرعان ما التفت واستدار، ففتح الصندوق الخلفي للسيارة، وأخرج منه عدداً من الحقائب الثقيلة ألقاها أرضاً!.. لم أتبين أن هذا الشخص امرأة إلا بعد أن سمعت صوتها، وهي تكلم الزبون، ونظرت.. وإذا هي فقدت آخر قطرة من أنوثتها!.

ما الذي ألجأها إلى أن تقوم بهذا العلم المضني؟ أهي سعيدة حقاً بذلك؟ أهي سعيدة بأن تمزق رأس مالها في الحياة؟

قطعاً لا ، لكن المجتمع هو الذي ألزمها بذلك!.. لا يتحمل مسؤولية الإنفاق عليها زوج إن كانت زوجة، ولا يتحمل مسؤولية الإنفاق عليها أب إن كانت ابنة، ومن ثم فلا خيار لها في أن تخرج فتتحمل هي مسؤولية النفقة على نفسها.

هذا هو مصدر واجبات المرأة في المجتمع الغربي. مصدر ذلك المصالح المادية التي يطوف المجتمع الغربي حولها في قدسية وعبودية تامة. فهل أسعد المجتمع الغربي المرأة بذلك؟

والآن ننتقل إلى حقوق المرأة في الغرب، ما هو مصدر حقوقها هناك؟

مصدر حقوق المرأة في المجتمعات الغربية أنوثتها!.

أجل.. هذه الأنوثة هي التي تجعل المجتمع الغربي يدللها، وتجعل المجتمع الغربي يكرمها، وتجعل الأضواء الساطعة في الليل تطوف حولها بالتقدير والترحاب، هذه الأنوثة هي التي تجعل الرجل ينحني أمام المرأة ليقبل يدها، وبالجملة فهذه الأنوثة هي مصدر ما يسمى بحقوق المرأة في الغرب!..

وإني لأرجو أن تتأملوا فتتساءلوا : أهو في الحقيقة رعاية لحقوق المرأة أم لحقوق الرجل؟! ستجدون بعد التأمل أنه ليس إلا رعاية لحقوق الرجل!.. فأنا عندما أكرم المرأة لأنوثتها، إنما أمتع نفسي من خلال تكريمي لها، ذلك لأن الأنانية هي التي تسوقني إلى أن أطوف حول أنوثة الأنثى بالتقرب والتبجيل، وهذا شيء واضح للعيان، ولكن إذا أردتم أن تعلموا البرهان العملي والمحسوس على ذلك، فلاحظوا ما يلي :

علاقة الرجل بالمرأة في الغرب تكون عن طريق الصداقة أو الزواج، وقد غدت الصداقة في السنوات الأخيرة هي الطريقة الغالبة، وقد اطلعت على مقال

نشرته مجلة « Newsweek» في عددها الصادر يوم ٢٠ كانون الثاني عام ١٩٩٧ بعنوان «The Death of Marriage» أي: موت الزواج، وعنوانه الفرعي:

More European women are having children out of wedlock and no one seems to mind

أي: معظم النساء الأوربيات يحصلن على الأطفال بعيداً عن الزواج، دون أن يبدو أي اكتراث من أي منهن بذلك!..

أقول: وحتى عندما يقبل الرجل إلى الزواج، لا يقبل إليه إلا بعد أن يقضي معظم وطره من النساء، ويكون قصده من الزواج على الأغلب استقراراً بعد نشاط أو راحة بعد تعب أو نحو ذلك.. وهو الأمر الذي يجعل الفتاة التي لم تنل حظها من الرجال تبتعد عن الزواج، إذ هي تعلم أنها لن تجد في أولئك الأزواج بغيتها.

وأياً كانت الفتاة أو المرأة التي يسكن إليها الرجل الغربي، صديقة أو زوجة، يقبل إليها ما دامت في مقتبل العمر وريعان الشباب، فإذا دبت إليها الكهولة وغاض عنها رونق الشباب، يملها الزوج أو الصديق ويتبرم بها، ثم يعرض عنها إن لم يتمكن من أن يطلقها رسمياً، أي: فيطلقها بالهجر دون إعلان ولا إعلام، والأمر في الإعراض في غاية اليسر إن كان الموثق الذي بينهما موثق صداقة.

ذلك لأن رأس مالها الذي كان يخولها حياة مشتركة مع رجلها الصديق أو الزوج إنما هو أنوثتها، فلما خسرت رأس مالها هذا أصبح عليها أن تعلم أنها وقد أفلست، لم تعد تملك أي شركة معه. لا سيما وإن العروض المغرية من حوله رخيصة وكثيرة.

وتجرب حظها المسكينة بأن تقاوم بدافع من الغيرة أو الكرامة.. تجادل دون جذوى.. تغلظ له في الكلام.. ربما تهدده بكلمات فارغة من ضعفها.. فما الذي يفاجئها من الرجل الذي كان يقدسها.. يسبح بحمد حقوقها.. ينحني لها في الحفلات والمناسبات؟ ما الذي يفاجئها من هذا الرجل؟ . . .

يفاجئها منه الضرب واللكم والإيذاء الجسدي بكل أنواعه!.. ولقد تكاثر هذا الوضع حتى عم المجتمع الغربي كله، وظهر من جرَّاء ذلك المجتمع المأساوي المتمثل في النساء اللائي بلغن أواخر عهد الكهولة!.

وينتهي مصير أكثرهنَّ عادة إلى الملاجئ الكثيرة الخاصة بهن، هرباً من الأذى الذي يلاحقهن من أولئك الذين كانوا إلى الأمس القريب يتغزلون بهن ويدافعون عن حقوقهن.. وتتكاثر اليوم هذه الملاجئ الفريدة من نوعها في الغرب عامة، وفي أمريكا بصورة خاصة، وهي خاصة للنساء اللائي يهربن من ضرب الأصدقاء أو الأزواج السابقين، وتقام عادة وراء ديكورات اصطناعية، أو حواجز وهمية مضللة كي لا يجد الزوج الوحش أو الصديق الضاري سبيله إليها في ملجئها الذي لاذت منه به. وبوسع الذين يزورون أمريكا أن يجدوا الكثير والكثير من هذه الملاجئ.

إذن مصدر حقوق المرأة في الغرب أنوثتها لا إنسانيتها!..

ونظراً إلى أن أنوثة المرأة تغيب إذا انطوى شبابها، فلابد أن تغيب معها حقوقها.. تغيب في الواقع العملي كما قد أوضحت، وإن كانت مسطورة على الورق محبوسة في الأدراج!..

والمقالات التي تكتب اليوم في الغرب عن هذا الوضع المأساوي الذي يمزق كرامة المرأة ويهدد حياتها، مقالات كثيرة لا تحصى.

وأضع أمامكم على سبيل المثال واحداً منها؛ مقال كتبه ريتشارد جونز الأستاذ في معهد القبالة وأمراض النساء في أمريكا.. كتب مقالاً في المجلة العائدة لهذا المعهد والذي تصدر باسمه في عدد يناير عام **١٩٩٢** بعنوان:

Domestic Violence Let our Voices be Heard

أي: العدوان المنزلي، فلندع أصواتنا تسمع.

يقول كاتب المقال: هناك وباء يجتاح بلادنا، إنه لشنيع، وإنه غير قابل للتجاوز عنه، أو للتساهل في أمره إنه يجب أن يوقف. إنه في كل اثنتي عشرة ثانية في الولايات المتحدة الأمريكية؛ امرأة تضرب إلى درجة القتل أو التحطيم من قبل زوج أو صديق!.. وفي كل يوم نرى آثار هذا الضرب والتحطيم، نرى آثار ذلك في مكاتبنا في غرف الطوارئ لدينا، وفي عياداتنا.. إلى آخر الغرائب المثيرة التي يفيض بهذا هذا المقال، وهو واحد من مقالات وشكاوي كثيرة لا تحصى!..

هل للغرب أن يتكلم بعد هذا عن مصير حقوق المرأة، وأن يُنصِّبَ من نفسه قاضياً يقاضي الشريعة الإسلامية في ذلك؟!..

أنا لن أتحدث عن المرأة والغرب في الماضي البعيد أو القريب، لن أتحدث عما قبل ثمانين عاماً، يوم كان القانون الفرنسي ينص على: أن المرأة لا تملك أن تتاجر بمال أو ترفع دعوى أو تقاضي أحداً إلا بتوكيل زوجها أو والدها بذلك، ولن أذكِّر باليوم الذي ألغي فيه هذا القانون الفرنسي، وكيف ازدهى الفرنسيون ورأوا أنهم قد خطوا خطوة عظيمة لم تخطها الإنسانية من قبل.

لن أتحدث عن هذا الماضي البعيد أو القريب.

ولكني سأتحدث عما يجري اليوم في عمق العالم الغربي.

عندنا في الشريعة الإسلامية، إذا عملت المرأة استحقت ما يستحقه الرجل من الأجر. أي: إن أنوثة المرأة لا تتدخل في الحط من أجرها بأي حال. اقرؤوا باب الجعالة، باب الإجارة في موسوعات الفقه الإسلامي تجدوا القانون القائل: الأجرة تقابل نوع العمل ومدى إتقانه، ولا تقابل شخص العامل أو نوعه، أي: أن هوية العامل رجلاً أو امرأة ساقطة عن الاعتبار.

أما الغرب الذي يقاضي الإسلام لإهماله حقوق المرأة، فأكثر بلدانه ودوله لا يزال إلى اليوم يحطُّ من أجر المرأة لأنها امرأة، ومهما تساوى العمل والجهد بينهما فالقانون يقضي بأن تكون المرأة أقل أجراً من الرجل!.. وكم قامت المرأة هناك ولم تقعد، وكم شكت واحتجت وسارت مظاهرات نسائية، ومع ذلك فلا يزال جلُّ المجتمع الغربي يُصِمُّ أذنيه عن الإصغاء إلى هذا الحق!..

وإليكم طائفة من الاحتجاجات والكتابات التي تقدم بها كُتَّابٌ ومفكرون غربيون من نساء ورجال:

يقول الدكتور شارل فيتس أستاذ ومدير المعهد الأمريكي للدراسات الإسلامية، في محاضرة ألقاها في الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي الذي عقد في الجزائر تحت عنوان: (الدور المفيد للمرأة في المجتمع الغربي اليوم) يقول: «كثير من الرجال وافقوا على قدرة المرأة في القيام بوظيفة الرجل، إلا أنهم رفضوا في الغرب قبول تقاضيها نفس راتب الرجل لنفس العمل، هذا الاعتقاد بالمساواة في القدرة، وعدم المساواة في التعويض ما زال سائداً في معظم الأقطار الغربية بما فيها الولايات المتحدة. وقد نجم عن ذلك كثير من الحقد».

وتقول الكتابة الفرنسية (فرانس كيري) في المؤتمر ذاته:

«إن المرأة الغربية تفقد حق المساواة المهنية، وتفقد حق الكرامة الزوجية أو المنزلية..» ثم تمضي قائلة: «إنه مع تساوي المؤهلات، فإن المرأة لا تجد نفسها إلا في وضعية جائرة، تتمثل في أعمال أكثر رتابة وسلطات أقل وأجر أدنى» ثم تمضي الكاتبة فتتحدث عن مأساة المرأة الغربية في فقدها لحق الكرامة الزوجية والمنزلية والحقوقية العامة فتقول: «لماذا يفشل الكثير من الأزواج والزوجات، ويكفُّون سريعاً عن التحابب؟ ذلك لأن علاقاتهم تقتصر على علاقة ما بين المُسيطِر والمُسيطَر عليه، فالرجل يأمر، والمرأة تطيع، لكن ما من شيء هو أكثر تقويضاً للحياة من سلطة مجمّدة. إننا غالباً ما نشاهد هذا المخلوق الحر، تتحول إلى يأس وقنوط» ثم تمضي قائلة: «إننا نتطلع إلى وجه آخر من وجوه الحضارة أحنى على المرأة، وأكثر رعاية لحقوقها، ذلك لأن المكتسبات الشخصية المحددة لم يغمرها بأي نعيم، إنها ستظل مضطهدة ما لم نعد النظر في طريقة حياتنا وفي ثقافتنا عاجلاً لا آجلاً».

هذا الواقع أيها السادة واقع بسيط جداً من مظاهر بؤس المرأة في المجتمع الغربي. وهذا باختصار ما يجري هناك: تتجاوز المرأة مرحلة الشباب والكهولة، فيتخلى عنها الرجل الصديق أو الرجل الزوج، ويؤول الأمر بها إلى أن تعيش منفردة في بيتها الصغير في أحسن الأحوال، وقد تخلى عنها من كانوا يُبجِّلونها بالأمس، ويُقبِّلون يدها وينحنون لها، وتمضي بقية حياتها وهي تجتر ذكريات أيامها السعيدة التي غابت ولم تعد!..

أما في حالات كثيرة أخرى فمآلها إلى أن تمضي بقية حياتها في إحدى الملاجئ المعدَّة خصيصاً لهؤلاء البائسات.

ماذا أقول لكم عن الغرب الذي يفيض اليوم بمجتمع المطلقات.. مجتمع العوانس.. المجتمع المأساوي الذي لا يشعر به سُمَّار الليالي الحمراء،

واللاهثون في زحمة المنافسة على مزيد من الرفاهية والمال.. ومع ذلك ففي المجتمع الغربي من لا يبالي أن يتربع ـ متلبساً بهذا كله ـ على أريكة القضاء، ليحاكم الشريعة الإسلامية بتهمة إهدارها حقوق المرأة وعدم إنصافها لها!..

أليس هذا من أغرب غرائب القرن العشرين؟!..

هذه الأوضاع والكلمات التي نقلتها لكم قليل من كثير.. وكلها دخان لنار هذا الظلم الذي تصطلى به المرأة في الغرب، وكم أودُّ من السذَّج الذين يسبِّحون بحمد الغرب في بلادنا، ويردِّدون معهم فن الاحتجاج على مصير حقوق المرأة في الإسلام، إذا زاروا أي صقع أوربي أو أمريكي، أن يتجاوزوا ويخترقوا المظاهر الخداعة اللماعة على سطح تلك المجتمعات، وأن يراقبوا عن كثب حال المجتمع المأساوي المتمثل في دنيا العوانس والمطلقات والمتقاعدات، عن عرش التكريم الذي كن يتبوأنه (أيام زمان).

تعيش الواحدة منهن كما قلت منفردة في بيتها الصغير، ليس معها فيه سوى كلبها الوفي الذي تأنس به، وقد أثبتت خلف الباب أكثر من رتاج واحد، كي تطمئن إلى أن أحداً لن يسطو على بقايا مدّخراتها..

تخرج صباح كل يوم مصطحبةً كلبها إلى التسوُّق لتشتري ما تحتاج إليه من قوت وطعام، فإذا عادت استراحت في طريقها مع كلبها في بعض الحدائق، ثم تواصل سيرها عائدة إلى مثابتها في تلك الدار. وحيدة إلا من ذكرياتها التي تطوف بذهنها يوم كانت أنوثتها مقبلة، وكان الرجال يصفقون لها ويهتمون بحقوقها، ويفرشون ورود الحب القانية تحت قدميها..

فإذا ألَمَّ بها مرض ما، فإن كانت لها بقية مال لحسن الحظ، اتجهت إلى أحد المشافي لتمرَّض فيه، ونظراً إلى أنها لن تجد هناك أباً أو أخاً أو زوجاً أو ولداً يحنو عليها، فلابدَّ من أن تستأجر من يكون إلى جانبها للخدمات التي لا

مندوحة عنها.. أما إن كان المال قد نضب من بين يديها، فلابدَّ أن يضطرها الحال إلى إحدى دور العجزة لتحنو عليها، وتنهض بما ينبغي من شأنها.

وهل أتيح لكم أن تدخلوا إحدى هذه الدور؟.. حاولوا ذلك إن بدافع من حب الاطلاع، وإن بدافع الوقوف على المأساة الإنسانية الهائلة التي تختفي وراء خطوط الدعاوي والإعلانات اللماعة الكاذبة!...

إذا أتيح لك أن تدخل إلى إحدى هذا الدور، فستجد مظاهر الراحة وأسباب المتعة متوفرة بأنواعها، ولا شك أن لسان حال النساء اللائي تفيض بهن الدار تنطق بالشكر لأولئك الذين وفروا لهن ذلك كله.. ولكن نظرة واحدة إلى وجوههن تطالعك بالمشاعر التي تجول في خواطر كل منهن!. إنها تعلم أنها تقيم من هذه الدار الجميلة الفخمة في صالة انتظار.. قد تكون في جمالها وأسباب الراحة التي فيها من الدرجة الأولى، ولكنها على كل حال صالة انتظار، كالتي يحشر فيها المسافرون في انتظار طائراتهم.. فهي تقيم فيها معزولة عن صخب المجتمع وأيامها الخوالي معه، في انتظار الرحيل، الرحيل إلى النهاية فيما قد تتخيله، وإلى العالم الثاني فيما نعلم ونستيقن.

فتصور حجم الكآبة التي تهيمن على مشاعر هؤلاء النسوة، وقد حوصرت بين لهيب محرق من ذكريات الماضي، وخيال مخيف من ظلمات المستقبل الآتي!!.

هذا هو واقع التعامل مع المرأة في الغرب، وهكذا تتم رعاية حقوقها!!.

أما ما يقابل ذلك من حال المرأة في ظل المجتمع الإسلامي الذي يتهم من قبل الغرب بهدر حقوق المرأة، فإن المرأة في ظل الإسلام كلما امتدَّ بها الأجل وتقدَّم بها السن في ظل هذا المجتمع، تكون الأسرة والمجتمع أكثر تقديراً واحتراماً، بل تقديساً لها. ادخل إلى بيت أي أسرة يهيمن عليها النظام الإسلامي

إن كلياً أو جزئياً، تجد أن المرأة كلما تقدم بها السن، كان الذين من حولها أكثر تقديراً لها، هي الآمرة والناهية في الدار.. فلا يقطع دونها بأمر، وكل من في الدار من شباب وبنات وفتيات كبار وصغار، خدم وحشم لها.

أجل هذا هو حال المرأة في المجتمع الإسلامي. فلماذا؟

لأن مصدر حقوق المرأة في الإسلام إنسانيتها، لا أنوثتها، ونظراً إلى أن إنسانية الإنسان تصحبه إلى الموت، بل تزداد مع الزمن صفاء ونضجاً، فإن الحقوق المنبثقة عنها لابد أن تستمر، بل أن تزداد أهمية، كلما تقدمت المرأة بالسن.

ألم يكن أولى بالغرب أن يحال هو إلى قفص الاتهام، وأن يكون هو المجرِّم في هذه القضية الواضحة التي لا تحتاج إلى بينة ولا إلى شهود؟!..

كان هذا واحداً من آثار ما قد قلت لكم من أن أنوثة المرأة هي مصدر حقوقها في المجتمعات الغربية، وهنالك آثار مأساوية خطيرة أخرى.

ولقد قلت لكم: عندما يكرم الرجل المرأة لأنوثتها فهو في الصورة يكرمها هي، ولكنه في الواقع والحقيقة إنما يكرم نفسه.

ومما يكشف عن ذلك ويحيل مظهر التقدير إلى أخطر أنواع الإجرام؛ أن المجتمع الغربي كثيراً ما يقتنص المرأة اقتناصاً بوسائل شتى ويجعلها سلعة لتجارة الجنس في سوق النخاسة!!.. وما من امرأة غربية في أي صقع من أصقاع المجتمعات الغربية إلا وهي معرضة للوقوع في شباك واحدة من شباك النخاسة الكثيرة هناك، وهي تعني التجارة بالرقيق!.. واستمعوا معي إلى هذا التقرير الذي يوضح لنا مدى ما انحدر إليه المجتمع الغربي من استهانة بالمرأة وإجرام في حقها، نتيجة للواقع الذي ذكرته وأكدته، من أن مصدر حقوق المرأة في الغرب إنما هو أنوثتها.

في عام ١٩٩٢ كانت ثمة شبكة نخاسة واحدة تنشط ما بين هولندا وبلجيكا وألمانيا، نجحت في اصطياد ثلاثة آلاف امرأة جمعتهن من أمريكا اللاتينية وآسيا!.. وجُرِّدن من جوازاتهن وهوياتهن، وزج بهن رقيقات في سوق النخاسة.

تؤكد تقريرات لمؤتمر المنظمات النسائية الذي عقد عام ١٩٩١ أن هناك ما لا يقل عن ثلاثين مليون امرأة تم اقتناصهن وبيعن، وفرض عليهن الرق لتجارة الجنس في شبكة تمتد إلى سائر أنحاء العالم.

وكيف يتم ذلك؟.. تستدرج المرأة عن طريق الإغراء بعقود أعمال متنوعة سخية الأجور، حتى إذا صدقت وتم خداعها واستدراجها، سرعان ما تقع في الشباك التي تنتظرها، وعندئذ يحاط بها من كل جانب، وتستلب منها مقومات شخصيتها وهويتها وجوازها، ويلتصق بها اسم آخر، وتنقطع صلتها عن وطنها وأرضها ومجتمعها وبلدتها التي هي مسقط رأسها. ومن ثم لا تملك إلا أن تنقاد لهؤلاء الذين اصطادوها رقيقة للتجارة في سوق النخاسة الجنسية!..

هذه الأعداد الهائلة تتزايد الآن، وهذا الإحصاء إنما كان في أواخر عام ١٩٩١، أما اليوم فالأعداد مضاعفة، وأولياء الأمور في المجتمعات الغربية يرون وينظرون ويشاهدن.. وليس هنالك من يعالج هذا الواقع بأي طريقة فعالة أبداً. ومن أصغى السمع بَلَغته زفرات النساء من خلال صيحاتهن.. من خلال بكائهن واستنجادهن، في المقالات والكتابات!.

أين هي حقوق المرأة في المجتمعات الغربية، وهذه هي الحال؟!..

العجيب جداً أيها الناس أن الذين يوجهون إلى الشريعة الإسلامية أصابع الاتهام، ويصطنعون الغيرة على المرأة وحقوقها، هم إما ممن يشتركون بطريقة ما في ممارسة هذه الفظائع، وإما ممن يشاهدونها ولا يقفون عندها بأي معالجة أو تحريك لإصبع اتهام!...

وإني لأرجو أن تتأكدوا أن ما قد ذكرته ليس نسيج خيال، وليس صادراً من معين حقد يصطنع الأكاذيب، إنها أمور واقعية جارية تستند إلى وثائق ومعلومات ثابتة، لم نتقولها على الغرب، وإنما قالها الغرب عن نفسه. ثم إن بوسع كل من يغشى تلك البلاد أن يرى بعينه مصداق ما قد ذكرت.

والآن، بقي أنَّ فيكم من يقول: ولكنك لم تشر إلى نقاط الاتهام التي توجه إلى الشريعة الإسلامية في هذا الصدد فما جوابك عنها؟

نعم سأتحدث عنها.. ولكن ما قلته لكم مقدمة تبرز المغالطة الكبرى التي يجب أن لاتغيب عنا، يجب أن نتأكد من هذه المغالطة المصطنعة أولاً. وها أنا أجيب بعد ذلك عن نقاط الاتهام:

**النقطة الأولى**: مسألة القوامة، قد يقول أحدهم: كل هذا الذي تقوله جميل نظرياً، ولكن الشريعة الإسلامية في أول مصدر لها تقول: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] وهذه القوامة مظهر من أجلى مظاهر الإساءة إلى المرأة، فما الجواب؟

الجواب عن هذا: أن القوامة التي شرعها الله عز وجل ليست قوامة تسلط، وليست قوامة تجبر من الرجل على المرأة، ولكنها قوامة إدارة، قوامة إمارة، وهي من قبيل قوله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فأمروا عليكم»، والأسرة التي هي الخلية الأولى للمجتمع، لابد أن تكون قائمة على نظام، ولكي تكون قائمة على نظام، لابد أن يكون في الأسرة من يدير شؤونها، ولعلك تقول: فلماذا كان الرجل هو الذي يدير شؤونها لا المرأة؟

أسألكم سؤالين اثنين، يتبين من خلال الإجابة عنهما حكمة الشارع فيما شرع!..

السؤال الأول: من الذي ينفق على الأسرة، والجواب معروف، الرجل هو الذي ينفق، والقانون الدولي يقول: من ينفق يشرف.

السؤال الثاني: إذا شعر كل من الزوج وزوجته في جنح الليل، وقد أسلم كل منهما عينيه للرقاد، بأن باب المنزل قد فتح، وأن لصاً قد داهم الدار، من الذي يهب منهما ليقوم فيقاوم اللص، ومن الذي يلتجأ إلى زاوية من زوايا الظلام في الدار؟.. من المعلوم للجميع أن الرجل هو الذي يقوم ويغامر، والمرأة هي التي تحتمي بزاوية مظلمة في الدار، أو تحتمي بظل رجُلها الذي يحميها..

ذلكم هو نظام الفطرة الإنسانية، الذي يخضع له القاصي والداني في سائر الأمكنة والأزمان.. وإنما المنطقي والمعقول أن تتبع شرعة الإسلام هذا النظام الفطري والإنساني.

هذا هو الجواب عن هذه النقطة مختصراً واضحاً مفيداً.. ومع ذلك تعالوا نزد هذا الجواب الواضح وضوحاً من خلال شيء من التفصيل.

إذن ليست القوامة كما يتخيل كثير من الناس، قوامة تسلُّطٍ من الرجل على المرأة، هذا التسلط موجود كما رأينا في الغرب، أما في ظل الشريعة الإسلامية، وفي البيت المسلم فلا يوجد ذلك إطلاقاً وإنما هي قوامة إدارة، والنظام يقتضي أن يكون في البيت مدير مشرف يرعى شؤونه. والحكم الشرعي يقول على لسان رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فأمروا عليكم»، ولا يعني هذا أن الذي نؤمِّره على أنفسنا خير منا جميعاً، لا؛ بل ربما كان المأمور أفضل من الآمر، ولكنها مسألة اجتماعية تنظيمية، هذا أول ما ينبغي أن نعلمه.

بل ليست ثمة ولاية مطلقة من الرجال على المرأة قط.. وإنما يوجد في الشريعة الإسلامية ما يسمى: «الولاية المتبادلة» ومصدر هذا النوع من الولاية

قول الله عز وجل: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] أي: الرجل يرعى المرأة ويتحمل مسؤوليتها، والمرأة ترعى الرجل وتتحمل مسؤولياته وهذا هو معنى الولاية المتبادلة، وهي ولاية من نوع فريد لا نعلم وجوداً لها في القوانين الوضعية قطّ. أما القوامة فهي حماية وإدارة تنظيمية مجردة أناطها الله بالرجل دون المرأة.

والجواب التفصيلي عن السؤال القائل: فلماذا لم تكن هذه الحماية والإدارة التنظيمية للمرأة دون الرجل، هو التالي:

أولاً: إن الفطرة تقتضي ما شرعه الله، لا أدل على ذلك من الفطرة الإنسانية التي تتجسد واضحة في المثال الذي ذكرته.. من المعلوم أن الرجل هو الذي يملك مقومات الدفاع عن الأسرة، وعن الحقوق، وهو الذي يقاتل إن اقتضى الأمر، ويذود عن حمى الدار وما فيها بوسائل لا تملكها المرأة.

أليس هذا منطق الفطرة قبل أن يتنزل حكماً من الشرع. فما الإشكال في شرع وافق الفطرة، بل جاء على قدرها؟!..

سلوا المرأة: أيهما أكثر إسعاداً لها، أن تكون المرأة في كنف الرجل، أم أن يكون الرجل في كنفها، يأتِ الجواب من نساء العالم أجمع: بل الذي يسعد المرأة ذاك الرجل الشهم الطويل القوي الذي يتاح لها أن تتضاءل في حماه وكنفه!.. وتلك هي الترجمة الدقيقة للقوامة التي عبَّر بها القرآن.

ثانياً: إن الشريعة الإسلامية قضت أن يكون الرجل هو المنفق، لأسباب كثيرة قد يطول شرحها، والقانون الدولي المعروف يقول: من ينفق يُشرف.

ومهما كانت المرأة غنية، ومهما كان الرجل متوسط الغنى أو فقيراً، فإن كرامة المرأة تقتضي أن يظل الرجل هو المسؤول عن الإنفاق عليها. إذ إن كرامة المرأة تستدعي إذا توجهت إلى عمل خارج المنزل، أن تتجه إلى العمل عن رغبة

واختيار لا عن ضرورة واضطرار، لكي لا تزجها الضرورة في أعمال ترهقها ولا تناسب أنوثتها، كما هو الحال في أوروبا وأمريكا.. وسبيل ذلك أن لا تتحمل مسؤولية الإنفاق لا على نفسها ولا على غيرها. إذ هي في هذه الحالة تملك حرية العمل الشرعي السليم، وتملك في الوقت ذاته أن تنتقي من الأعمال ما تشاء، دون أن يضطرها الحال إلى تحمل ما لا يناسبها من الأعمال، ودون أن تجد نفسها مضطرة إلى إهمال دارها وتربية أولادها، وتركهم تحت رحمة المربيات والخادمات.

**النقطة الثانية**: من نقاط الاتهام تلك الكلمة القرآنية التي صاغ الجهال منها قانوناً كلياً لا يشذّ: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾ [النساء: ١١] هذه كلمة قرآنية، ولكن الجهّال تصوروا أن هذه الكلمة القرآنية تعبير عن قانون دائم، فكلما تقاسم الرجل والمرأة حقاً من الحقوق أو حظاً من الحظوظ، كان للرجل ضعف ما للأنثى!!.. من قال هذا أيها الناس؟!.. قانون ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾ [النساء: ١١] في الميراث خاص في حالة صغيرة جداً، عندما يكون الورثة أولاداً أو إخوة ذكوراً وإناثاً، يعصب الذكور الإناث، عندئذ تأتي قاعدة ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾ [النساء: ١١] لأسباب خاصة بهذه الحالة، ومن ثم فهي لا تقبل أي قياس عليها.

أما ما عدا هذه الحالة فالأمر يختلف، وأنا أضرب لكم بعض الأمثلة: إذا مات الإنسان، وترك أولاداً وأباً وأماً، ماذا يأخذ كل من الأب والأم؟ يقرر القرآن أن لكل منهما السدس أي الرجل والمرأة سواء، أين هو قانون ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾ [النساء: ١١]؟.

إذا مات الرجل، وترك أخاً لأم وأختاً لأم كل منهما يأخذ السدس، إذن فالرجل والمرأة سواء، أين هو قانون ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾ [النساء: ١١]؟.

إذا مات الرجل وترك عدداً من الإخوة الذكور لأم أو عدداً من الأخوات النساء لأم، فالإخوة يشتركون في الثلث، والأخوات يشتركن في الثلث، أين هو قانون للذكر مثل حظ الأنثيين؟!. وتابعوا في هذا واقرؤوا أحكام الميراث، إذن تجدوا أن قانون: للذكر مثل حظ الأنثيين يطبق في حالات استنثائية، لأسباب يعرفها من درس أحكام الميراث، وهي تعود إلى أدق معاني العدالة التي ينبغي أن تنهض ما بين الرجل والمرأة، ليتساويا في الرصيد.

إذن هذا خطأ كبير جداً مصدره الجهل، ومن عجب أن تكون الجهالة هي مصدر الاتهام.

**النقطة الثالثة**: اعتراض يردده بعضهم على قول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

يلاحظ أن البيان الإلهي عالج نشوز الزوجة بثلاث مراحل؛ المرحلة الأولى: الوعظ والنصح، والمرحلة الثانية: الهجر في المضجع أي: عند النوم، لا في المكالمة أثناء النهار، المرحلة الثالثة: الضرب.. ومحل الاعتراض هو المعالجة بالمرحلة الثالثة التي هي الضرب!..

والجواب: بعد أن علمت أن علاج الضرب يأتي بعد عدم الجدوى من العلاجين، الأول والثاني، هو أن الشذوذ لا يكمن في الضرب الذي يخوله الشرع ويقرّ به، ولكنه يكمن في عناد الزوجة واستهانتها بالمحاورة والنصح، ثم استهانتها بالهجران الليلي في المضجع، الذي هو أشبه بالمداعبة منه بالجفاء!..

إن الضرب الذي يبيحه الشارع في هذه الحال (والمشروط فيه أن يكون ضرباً غير مبرح) لا يكون سبة عار لجنس المرأة قط، وإنما هو سبة عار للمستهترة الشاذة عن أمثالها من النساء!.. وأقول بعبارة أخرى: إن هذا الضرب

غير المبرح ليس امتهاناً للمرأة ذات الفطرة السوية، بل هو في الحقيقة دفاع عنها، أن لا يصيبها سوء أو رشاش من سوء حال تلك المرأة الشاذة في واقعها وفطرتها.. أي: إنه ليس تأديباً لأنوثة المرأة في جنس المرأة وجوهرها، ولكنه تأديب لشذوذ تسرب وحاول أن يشوه سمعتها ويُنزل من مكانتها.

ولكن لعل الإشكال لم ينته بعد.. كأني بكم تقولون: فافرض أن الزوج هو الذي نشز، لماذا لم يعط الشارع المرأة الحق ذاته لها؟ لماذا لا يحق للمرأة أيضاً أن تضرب زوجها إذا أمعن في الإساءة والنشوز؟

وأقول في الجواب: لو أن الله عز وجل فاطر الإنسان وفاطر طبيعة كل من الرجل والمرأة، علم أن ضرب المرأة للرجل الناشز يحل المشكلة، ويُؤَدِّبُ الرجل، لشرع ذلك، ولكن الله وهو العليم الذي فطر المرأة على ما فطرها عليه من أنوثة وضعف ورقة، وفطر الرجل على ما فطره عليه من رجولة وخشونة وعنف، علم أن المرأة لو مدت يدها بضرب إلى الرجل، لتحول الرجل ربما إلى وحش شرس ضار يفتك بها، ومن ثم فإن المشكلة الصغيرة، تتحول إلى مصيبة كبيرة، وكبيرة جداً، ومن ثم، وحمايةً لكرامة المرأة وأنوثتها اللطيفة الضعيفة، عهد الله بالانتصار لها ولرعاية حقها إلى من يريحها ويكفيها هذه المؤونة.. عهد بذلك إلى القاضي، ترفع دعواها إليه وتبين له إمعان زوجها في النشوز الذي أقدم عليه، ثم لم يقلع عنه، وعندئذ فإن القاضي يضربه إذا اقتضى الأمر، ويجلده أو يسجنه إذا رأى ذلك، وتبقى المرأة مكلوءة في حصن كرامتها، لا تمتد إليها يد بإساءة أو خطر.

ما الذي يمكن أن يقوله أيضاً المتشدقون بأن المرأة مهضومة الحقوق في ظل الشريعة الإسلامية؟.. لعلّ فيهم من يقف بالنقد والاستنكار أمام حديث لرسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أخلب للب الرجل من إحداكن».

كثيرون هم الذين يقومون ويقعدون بهذا الحديث، ويرون أن الشريعة الإسلامية أجرمت أي إجرام في حق المرأة، عندما قال رسول الله ﷺ عنها هذا الكلام.

تعالوا نطو الكلام عن هذا الحديث بادئ ذي بدء.. ولنتذكّر ما قرأناه يوماً في كتب علم النفس وعلم النفس التربوي عن نفسية كل من الرجل والمرأة، وطبيعة كل منهما وخصائصهما الذهنية والفكرية..

تقول هذه المراجع: إن المرأة أدق وأشد عاطفة من الرجل، ولكنها أضعف تفكيراً منه، وإن الرجل أشد عقلانية من المرأة، ولكنه أضعف عاطفة منها.

هل فيكم من لم يقف على هذه الحقيقة ممن درس شيئاً من علم النفس؟.. ولكن تعالوا نتساءل: أولم يكن الله حكيماً في هذا التوزيع بين طبيعتي الرجل والمرأة؟.. وهل كانت تتم سعادة كل منهما بالآخر لولا هذا التوزيع الذي نراه وندرسه اليوم؟.

إن هذا النقص والكمال في الرجل من جهة، مع النقص والكمال المعاكس في المرأة من جهة أخرى، هو الشرط الذي لابد منه للتكامل الذي لابد منه عند تلاقي الرجل والمرأة.. الرجل يسعده أن يركن إلى امرأة تتمم عاطفته المنقوصة، والمرأة يسعدها أن تركن إلى رجل يشحذ عقلانيتها اللدنة.. ولو أن الأمر كان على خلاف ذلك لما سعدت المرأة بالرجل، ولا سعد الرجل بالمرأة.

على أن الشذوذ موجود في سائر قواعد العلم النفسية وغيرها.. فقد تجد امرأة عقلانية المحاكمة والتفكير تركن إلى تتبع العمق الفلسفي في كل الأمور، ومن ثم تكون باردة العواطف والأشواق، أفتظن أنها تستطيع أن تكون مصدر إسعاد للزوج الذي يقترن بها؟!.. معاذ الله، سيعاني منها شقوة ما مثلها شقوة. ذلك لأنه لا يجد في الركون إليها ما يتمم نقصه.. وقد تجد رجلاً شاذاً في بني

جنسه، يتمتع بعاطفة رقيقة جياشة، ومن ثم فهو لدن التفكير سريع التبرم بالمحاكمات العقلانية، أفتظن أنه يستطيع أن يجعل من نفسه مصدر سعادة للزوجة التي تقترن به؟!.. معاذ الله، ستجد نفسها منه أمام امرأة مثلها في الطبيعة والمضمون، وإن كان رجلاً في المظهر والشكل. ومهما صبرت وبحثت، فلن تجد فيه ضالتها المنشودة!.

إذن فرسول الله لم يصف المرأة بأكثر مما هو ثابت ومقرر علمياً، وهو مظهر كمال لها عند الاقتران بالرجل كما أن نقيصة الرجل مظهر لكماله عندما يقترن بالمرأة!..

على أن الرسول ﷺ إنما قال هذا الكلام للنساء في جو من المباسطة معهن، بل في سياق التعبير بالإعجاب بهن!.. فكأنه يقول: ويحكن إنكن مع هذا الضعف النسوي والأنثوي سرعان ما تخلبن قلوب الرجال!.. فهو كقول الشاعر إذ يتغزل بالعيون الحوراء:

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

ولكم ردد مثل هذا الكلام الذي قاله رسول الله في هذا السياق، أناس كثيرون، في مناسبات من هذا القبيل، دون أن يخالف ذلك علماً أو يواجه معترضاً.

لعلكم تتهمونني بأنني أنطلق إلى هذا الكلام من عصبية الرجولة، التي تتسامى على النساء، ولعل فيكم من يقول: إن المرأة لا تقرّ بهذا الكلام..

إذن تعالوا نُصْغِ إلى ما تقوله المرأة في هذا الصدد، وأنا لن أختار إلا امرأة غربية، طبيبة واعية مثقفة ذات اعتداد بجنسها النسوي؛ هي الطبيبة والكاتبة الألمانية المعروفة (استرفيلر) تقول في كتاب لها: «إن كانت القوة البدنية حرية بأن تكون عامل ضغط وتحكم في طبقة اجتماعية ما، فهي لا يمكن البتة أن

تنجح في إخضاع جنس إلى جنس آخر، إن الشخص الذي يستطيع اضطهاد شخص آخر هو الشخص الضعيف، المحتاج إلى المساعدة، وليس الشخص الأقوى بدنياً أو فكرياً، فليس العاشق هو صاحب السلطة، وإنما المعشوق!..».

هل لاحظتم هذا الكلام الدقيق، ثم تقول: بالنسبة للنساء.

«فإن بإمكانهنّ بسط سلتطهن على الرجال، وذلك بالتحكم في غرائزهنّ الجنسية، مما يجعل الرجال تابعين لهن، وبما أن النساء في أغلب الأحيان هنَّ أضعف جسمياً وفكرياً من الرجال، فإنهنّ يستطعن إضافة إلى إمكانية امتناعهنَّ جنسياً عنهم، أن يلفتوا انتباه الرجال إليهنَّ بمثابتهن مواضيع رعاية» ثم تزيد هذا الكلام إيضاحاً فتقول: «المعروف في النساء جميعاً قول الواحدة منهن: «إن الرجل الذي أبتغيه هو ذاك الذي باستطاعته أن يكون قادراً على حمايتي، ذلك الذي أشعر أنني أعيش في كنفه، وهو لن يقدر على ذلك إلا إذا كان أطول مني قامة وأقوى بنية وأشد ذكاء»، وتقول: «إن الرجل الذي أبتغيه هو ذاك الذي أستظل بقامته، وأرفع عيني لمشاهدة وجهه»(١).

هذا الكلام لم تستخرجه هذه الكاتبة والطبيبة الألمانية من القرآن، ولا من كلام رسول الله، ولكن من العلم الذي درسته. فما الذي زاد أو نقص رسول الله في هذا الحديث عن هذه الحقيقة؟!..

لعلكم تقولون: عرفنا هذا بالنسبة لما يتعلق بفكر المرأة وعاطفتها، ولكن ما بال الدين؟ ولماذا كانت المرأة ناقصة في دينها؟..

إن نقصان الدين يأتي بأحد معنيين:

المعنى الأول: الإعراض عن الواجبات الدينية، وعندئذ يتحمل هذا المعرض جريرة إعراضه ونقص الدين فيه.

---

(١) من كتاب «شرعية تعدد الزوجات» للطبية الألمانية استرفيلار ترجمة: الهادي سليمان.

المعنى الثاني: أن الله عز وجل لم يُكلِّف هذا الإنسان بمزيد من الأعباء الدينية كما كلف غيره، فنقصان الدين يعني أن التكاليف الإلهية في حقه أقل من التكاليف التي خاطب غيره بها.

وهذا هو المعنى الثاني هو الذي قصد إليه رسول الله ﷺ.

إذ المرأة لا تُكلَّف بالصلاة والصوم في الدورة الشهرية، وفي مدة النفاس، ثم لا تكلف بأن تقضي الصلاة بعد ذلك، والمرأة لا تكلف أيضاً بكثير من الواجبات، في كثير من أوقاتها الاستثنائية التي تمر بها، بينما الرجل يكلف بذلك وإذا ترك الصلاة مثلاً يجب أن يقضيها.

ومما هو معلوم أن المرأة لا تتحمل إثماً بسبب أنها لم تُؤَدِّ كثيراً من فرائضها في تلك الأوقات المعينة، لأن الله رفع التكليف عنها.

بل أقول لكم: إن المرأة عندما تريد ان تقرأ القرآن، وهي تمر بالدورة الشهرية، فتتذكر أن الله منعها من ذلك في تلك الحالة، فتمسك عن القراءة انقياداً لأمر الله عز وجل، فإن الله يكتب لها أجر ما كانت تريد أن تقرأه، نظراً إلى قصدها الذي يعلمه الله عز وجل.

كذلك الأمر عندما يأتي وقت الصلاة، وتجد أن الناس من حولها قد هبوا قائمين إلى الصلاة، فتشوقت إلى أن تقوم فتصلي مثلهم، ولكنها قعدت منقادة لأمر الله وحكمه، فإن الله يكتب لها الأجر على قعودها عن الصلاة، لأن ذلك منها ليس إلا انقياداً لأمر الله عز وجل، وانقيادها هذا عبادة وإن كانت سلبية.

إذن فليس معنى نقصان الدين فيها تقصيرها في أمر من أموره وإنما المعنى أن الله لم يحمِّلها التكاليف الكثيرة التي حمَّلها الرجال، كالطفل الذي لم يبلغ بعد سن الرشد. لا يحمله الله التكاليف، ولكن الله يكتب له الأجر على نياته وقعوده، فيصبح بذلك كالرجال البالغين تماماً.

هل بقيت مشكلة ما تتعلق بهذا الموضوع؟؟...

لعل فيكم من يذكرني بحديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» متصوراً أن فيه انتقاصاً للمرأة!..

وأقول: دعوا حديث رسول الله ﷺ هذا جانباً، تعالوا بنا إلى أكبر دولة في العالم اليوم، تتباهى بأنها مظهر لرعاية حقوق الإنسان، وليت أنها كانت فعلاً كذلك، إنها أمريكا!.. لماذا لم يتح للمرأة فيها، إلى يومنا هذا أن تشترك مع الرجال في دورة ما من دوراتها الانتخابية لتتبوأ سُدَّة الرئاسة فيها، أو لترشح لهذه السدة على أقل تقدير؟..

قبل أن نسأل الإسلام، ينبغي أن نسأل أمريكا هذا السؤال!..

ثم ينبغي أن نسأل سائر المجتمعات التي تعترض على الإسلام في أوربا وغيرها: كم هنَّ عدد النساء اللاتي ارتفعن في العالم إلى قمة المسؤولية، أي: إلى أعلى درجات الحكم؟ لن تستطيعوا أن تعثروا فيما أعتقد على أكثر من عدد أصابع اليدين!..

إذا كان الأمر يجري في واقعه على هذا المنهج، فما بال هذه المجتمعات تنتقد رسول الله ﷺ في أمر يخضع واقعها المرئي لحكمه؟

إن الإسلام لم يحجب المرأة من بين الوظائف والأعمال كلها، إلا عن هذا العمل!.. وسبب ذلك هو السبب ذاته الذي جعل مجتمعات العالم كله تحذو حذو رسول الله ﷺ في العمل والتنفيذ، وإن لم تعترف به بالنطق والإقرار.

أقول لكم مرة أخرى: ما ينبغي أن يكون الإسلام هو المتهم، أمام هذا الموضوع الذي يجعل الغرب من نفسه قاضياً فيه، بل يجب أن يكون الإسلام هو صاحب السلطة القضائية في هذا الأمر، وعلى المجتمعات الغربية الضالعة في ظلم المرأة أن تقف في قفص الاتهام لأنها هي التي تسيء إلى المرأة، ولأن

المجتمع المأساوي الذي يتمثل في نساء شقيات بائسات، إنما تراهنَّ في المجتمع الغربي، لا في المجتمع الذي يستظل بظل الشريعة الإسلامية.

لعل في محترفي الغزو الفكري من يعيش باحثاً عما يعود به من تهمة صائبة يفرح بها، فيعثر على ما يخيل إليه أنه قد عثر منه على شيء.. فيقول: وشهادة المرأة؛ ألم يؤكد القرآن أنها بنصف شهادة الرجل، إذ قال: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ...﴾ [البقرة: ٢٨٢]؟..

وقبل أن أجيب عن هذا التصور الوهمي الآخر، ألفت النظر إلى نقطة هي في غاية الأهمية تغيب عن بال كثير من الباحثين، وهي أن القرآن عندما يتحدث عن الشهادة وأثرها في الأحكام القضائية إنما يتحدث عنها من حيث إنها بيِّنة كاملة، إذا وجدت صدر الحكم بموجبها وحدها، دون حاجة إلى ما يفترض أن يصحبها من ضميمة أخرى، كالإقرار ونحوه.

أي: فإن الشريعة الإسلامية عندما تقوِّم الشهادة فهي لا تقومها في مجال التحقيق قبل المحاكمة القضائية، وإنما تقومها من حيث إنها بينة تامة كاملة، بحيث إذا وجدت بشروطها المطلوبة على من قد اتهم بالسرقة مثلاً؛ فإنها تصبح كافية لصدور الحكم على هذا الإنسان بالسرقة، ولخضوعه للعقاب الذي يرسمه الله سبحانه وتعالى لها، كذلك إذا شهد أربعة شهود بارتكاب فلان من الناس فاحشة، وكانت شروط الشهادة وافية كاملة في كل من هؤلاء الشهود الأربعة، فإن الحكم يصدر بموجب هذه الشهادة وحدها.

أما الشهادة وقيمتها في مجال التحقيق، فإن الشريعة الإسلامية تقف في ذلك على قدم المساواة مع القوانين الوضعية كلها.

المحقق يستدعي الشهود، رجالاً كانوا أو نساء، ويُقَيِّمُ شهادة كل من الرجل والمرأة على حد سواء، لا تعلو أو تهبط شهادة عن أخرى.

ذلك لأن الشهادة في هذه الحال، ليست إلا أداة تحقيق، ووسيلة اكتشاف لأبعاد الجريمة، وظروفها وملابساتها. ولذلك ينبغي أن نعلم أن القوانين الوضعية والشريعة الإسلامية في التعامل مع الشهادة، فيما يتعلق بسبل التحقيق تسير على نهج واحد، وتنظر إليها نظرة واحدة.

بل إن أكثر القوانين الوضعية إنما تعتد بالشهادة في مجال التحقيق فقط، دون مجال القرار والحكم.

إذن، فإذا تكلمنا الآن عن الشهادة وشروطها وأهميتها، فلنعلم أننا إنما نتحدث عنها عندما تُرَشَّحُ لتكون وسيلة إلى النطق بالحكم بموجبها.

بعد هذا يحين لنا أن نتساءل: ما هي شروط الشهادة؟.. وهل للذكورة والأنوثة مدخل في هذه الشروط؟..

أقول لكم سلفاً، لا علاقة للذكورة ولا للأنوثة بقيمة الشهادة من حيث هي، لا إيجاباً ولا سلباً، وإنما هنالك شروط موضوعية يجب أن تتحقق.

أولاً: يجب أن يكون الشاهد عادلاً.

ثانياً: ينبغي أن يكون ضابطاً، أي: ينبغي أن يكون واعياً للمسألة التي يشهد فيها.

ثالثاً: ينبغي أن لا تكون شهادته على من بينه وبينه خصومة، وأن لا تكون لمن بينهما قرابة، أي: ينبغي أن لا يكون المشهود عليه خصماً للشاهد وأن لا يكون المشهود له قريباً له.

والشرط الأخير: أن تظهر وتتحقق علاقة وطيدة قوية بين الشاهد وبين الموضوع الذي يشهد فيه، فإن لم تتبين ثمة علاقة معرفية كافية بين شخص الشاهد والمسألة التي تتم الشهادة فيها، فإن الشهادة لا تقبل، سواء كان الشاهد رجلاً، أو كان امرأة.

هذه الشروط التي ترسمها الشريعة الإسلامية يجب أن نتبعها ونسقطها على الذين يشهدون، ذكوراً كانوا أم إناثاً.. فلو أن امرأة جاءت فشهدت أمام القاضي على مسألة جرمية، أي: شهدت أن فلاناً من الناس أمسك بسكين وذبح فلاناً فإنّ شهادتها لا تقبل.. أو لو أنها قالت رأيت فلاناً أخرج مسدساً وشهره في وجه فلان، وأطلق عليه طلقات، فأردته قتيلاً، فشهادتها لا تسمع.

أما في مجال التحقيق فيجب أن تسمع، ولها قيمة كبرى دون أي فرق بينها وبين شهادة الرجل.

والسبب في عدم قبولها مستنداً للحكم. أن الانسجام خفي بل مفقود بين طبيعة المرأة وهذا الموضوع الجرمي الذي تشهد فيه. إذ من الواضح أنها بمقتضى فطرتها وطبيعتها النسوية، لا تستطيع أن تصمد أمام مثل هذا المشهد، فضلاً عن أن تستوعبه لتشهد فيه. والراجح أنها إن فوجئت بهذا المنظر فلسوف تفر مبتعدة عنه، أو ربما تسقط مغشياً عليها!..

ومن ثم فإن الشريعة الإسلامية عندما ترفض شهادة المرأة في هذا الجرم، لا ترفضها من أجل أنها أنثى، وإنما لوصف عارض، ألا وهو أنها لا تستطيع أن تصمد أمام مثل هذا المشهد.

ونحن قد نعثر على شذوذ، فربما عثرنا على امرأة تتمتع ـ على خلاف أمثالها ـ بقسوة في العاطفة وبقلب متماسك.. ومن ثم فبوسعها أن تصمد أمام هذه الوقائع وأن تستوعبها أكثر من كثير من الرجال.. ولكن القوانين لا ينظر في اعتمادها على الحالات الشاذة والنادرة، وإنما يلاحظ فيها ما هو الأعم الأغلب. وهذا معنى القاعدة الشرعية: «تُنَزَّلُ المَظِنَّةُ منزلةَ المَئِنَّةِ» أي: تُنَزَّلُ الظروف والأوضاع الغالبة منزلة الأوضاع المحققة الدائمة، ويلغى النادر من الاعتبار. على أن يلاحظ في ذلك مصلحة التحقيق ومقتضى الحيطة فيه. ولو أن رجلاً ثبت أن فؤاده يفيض بالرقة والعاطفة، ولم يكن يتمتع بالتماسك النفسي

والقدرة على الصمود أمام مشاهد الإجرام، فإن على القضاء أن لا يقبل شهادته وإن كان رجلاً.

إذن، فلا مدخل للذكورة أو الأنوثة، من حيث هي، بأمر الشهادة رفضاً أو قبولاً، وإنما العبرة بثبوت أهلية الشاهد لاستيعاب الموضوع الذي يشهد فيه..

يتبين هذا الذي نقوله من نقيض المثال الذي ذكرناه. لنفرض أن امرأة جاءت تشهد في مسألة تتعلق برضاع، أو حضانة، أو نسب أو نحو ذلك مما يغلب أن تطَّلع عليه النساء، فإن الشريعة الإسلامية ترحب بشهادتها، بل إنها لتعد شهادة المرأة أوثق من شهادة الرجل. بل إن في علماء الشريعة من قالوا: إن مثل هذه المسائل لا يصح فيها إلا شهادة المرأة، ومنهم الإمام الشعبي رحمه الله.

وعلى هذا الأساس ذاته يسري حكم الشهادة في الشؤون المالية، كالبيوع والشركات وأنواع التجارة والصفق في الأسواق والبورصات ونحوها.. فهذه الأمور مما يشترك في ممارسته الرجال والنساء، ولكنا جميعاً نعلم أن الرجال أوغل فيها وأكثر ممارسة لها من النساء. ومن ثم فإن الشريعة الإسلامية قبلت شهادة المرأة في قضايا المال، على أن تكون شهادتها بنصف شهادة الرجل لا لأنها أنثى، ولكن لأن علاقتها بأمور المال وأنشطته أقل من علاقة الرجل بذلك.. ولا تنسوا أننا إنما نتحدث عن الشهادة عندما تكون مستنَداً مستقلاً للحكم القضائي، لا عندما تكون قرينة من قرائن التحقيق.

ولعل فيكم من يقول: لم تعد المرأة اليوم أقل توغلاً في الأسواق التجارية ونحوها من الرجل، بل المرأة والرجل في هذا الأمر سواء.

وأقول: أما أن المرأة تشترك مع الرجل في الأنشطة المالية فهذا صحيح، وأما أنها تقف في ذلك على قدم المساواة مع الرجل، فهذا ما لا يقوله باحث موضوعي أبداً.

أذكر أنني زرت نيويورك منذ سنوات، ودفعني حب الإطلاع الى أن أزور مركز البورصة فيها، ولما دخلت المركز ولاحظت الضجيج وشدة الاهتمام، والأعصاب المشدودة، دفعني الفضول إلى أن أبحث بين ذلك الحشد كله، عن امرأة تنخرط وسط ذلك الضجيج وتشترك في عظيم ذلك الاهتمام.. فما عثرت عيناي على امرأة واحدة تشترك مع الرجال في ذلك الزحام!..

فما الذي تدل عليه هذه الظاهرة؟..

إنها تدل على أن الشريعة الإسلامية دقيقة في حكمها، صائبة في ملاحظاتها. والنتيجة التي ننتهي إليها هي أن الشريعة الإسلامية تجعل قيمة الشهادة تابعة لمدى علاقة الشاهد بالموضوع الذي يشهد فيه، فلما كانت علاقة المرأة بالقضايا المالية أقل من علاقة الرجل بها، كانت شهادتها في هذه القضايا بنصف شهادة الرجل.. ولما كانت علاقة المرأة بمسائل النسب والحضانة والرضاعة ونحوها، أقوى من علاقة الرجل بها، كانت شهادتها فيها هي الأكثر اعتماداً وقبولاً، بل لا تصح شهادة الرجل فيها عند بعض الأئمة الفقهاء.. إذن لا علاقة لجوهر الذكورة والأنوثة بالموضوع.

قد يقول فيكم قائل: فلنفرض أن مهنة من المهن كانت فيما مضى من شأن الرجال، ثم إنها اليوم غدت من شأن النساء، كالصيدلة مثلاً، لنفرض أن علاقة الرجل تقلصت عنها، وحلت النساء محل الرجال في ذلك، أفتصبح شهادة النساء فيها كشهادتها في أمور النسب والرضاعة من حيث القبول والاعتماد؟

أقول: إذا ظهر الأمر على هذا النحو، وفرض هذا الواقع نفسه، فإن الحكم يتبع الوضع الجديد، ذلك لأن الشريعة الإسلامية تدور على هذا المحور كما قد رأينا من دليل الاستقراء.

لعلكم ستقولون: بقي موضوع الحجاب!.. لماذا قيد الله المرأة من الحجاب

بهذه القيود التي تعوقها عن النهوض بدورها الثقافي والاجتماعي إلى جانب الرجل؟

وأقول في الجواب: إن الحجاب الذي شرعه الله عز وجل، ليس فيه ما تنوء به المرأة، أو ما يعوقها عن القيام بمهامها الثقافية أو الحضارية، أو أي واجب من واجباتها الإنسانية. بل هو يتفق اتفاقاً تاماً مع النهج الحضاري الإنساني السليم، كل ما في الأمر أن من شأنه أن يخفي مفاتن المرأة عن الرجال، ولا يعوقها في الوقت ذاته عن الحركة، وعن النشاط الإنساني أياً كان نوعه ما دام مشروعاً ومتفقاً مع المبادئ والقيم.

بل إن هذا الحجاب إنما شرعه الله تأكيداً لمساواة الرجل مع المرأة، وحماية للمرأة أن تُنتقَص، وأن ينظر إليها الرجل نظرة ازدراء، أو نظرة دون، أو يلاحظ فيها المعنى الغريزي الذي يبحث فيه عن إشباع نهمه.

إن الحجاب هو الذي يضمن أن ترتفع المرأة، حتى تقف مع الرجل على قدم المساواة في سائر الأعمال والأنشطة الثقافية والصناعية والحرفية والفكرية والحضارية كلها، وعندما يغيب هذا الحجاب ضمن الحدود التي شرعها الله سبحانه وتعالى، فلن تبقى أي ضمانة لوقوف المرأة على قدم المساواة مع الرجل، ودعوني أشرح لكم هذه الحقيقة التي تغيب عن بال الكثيرين.

المرأة لها شخصيتان: أما الأولى فتشترك بموجبها مع الرجل في سائر الوظائف والأعمال الإنسانية؛ التي ينهض بها كل من الرجل والمرأة على السواء، وهي شخصيتها الإنسانية العامة بمقوماتها الفكرية والعلمية والعضلية.

وأما الثانية فهي: الشخصية الأنثوية، التي تتميز بها عن الرجل وتستثير فيه غرائزه ونحوها.

والمرأة بموجب شخصيتها الأولى تشترك مع الرجل في النهوض بالواجبات

الإنسانية والوظائف الدينية والحضارية، التي جعل الله مسؤوليتها قسمة عادلة بينهما، وهي بموجب شخصيتها الثانية تلتقي مع الرجل على ارتشاف المتعة السارية بينهما، الرجل يتمتع منها بالأنوثة التي يهفو إليها، والمرأة تتمتع من الرجل بالرجولة التي تركن إليها.

وقد قضى الشارع جل جلاله أن يتوفر لكل من وظائف هاتين الشخصيتين مناخه الذي يناسبه، فإذا اجتمع الرجل مع المرأة بموجب شخصيتها الإنسانية العامة التي تشترك فيها مع الرجل، على بعض الوظائف الإنسانية كالدراسات العلمية والجهود الصناعية أو الحضارية المتنوعة، فينبغي أن لا يظهر من المرأة امام الرجل إلا شخصيتها الثقافية والفكرية والإنسانية العامة، التي تشكل جامعاً مشتركاً بينها وبين الرجل، إذ لو واجه الرجل من المرأة في هذه الحال مظاهر أنوثتها، لحُجب بها عن مزاياها الإنسانية التي يلتقي معها على تلك الوظائف المشتركة، ولما رأى الرجل فيها إلا كتلة غريزة تناجي غريزته؛ إذن فلابدَّ أن تكون مفاتنها غائبة عن الرجال عند اجتماعها معهم؛ على الجهود العلمية والاجتماعية والأنشطة الإنسانية المختلفة، وإنما سبيل ذلك أن تنضبط المرأة بالحجاب الذي شرعه الله ودعاها إليه.

أما عندما تلتقي المرأة مع الرجل في مناخ شرعي نظيف، على تبادل المتعة فيما بينهما، فمن الحق أن تبدو عندئذ منها شخصيتها الأنثوية والغريزية، وأن يبدو له منها كل ما قد يستثيره ويغريه. إذ لكل مقام تصرف يناسبه ومظهر يوائمه ويكمِّله.

فهل ترى في هذا الذي شرعه الله إلا أدق معاني النظام الهادف، البعيد عن فوضى التناقضات، والسلوكات المتشاكسة التي يبطل بعضها بعضاً، ولا تنتهي إلا إلى اضطراب وخسران؟..

تصور أن امرأة أقبلت بارزة المفاتن والمغريات من جسدها، تشترك مع

الرجال في موضوع علمي أو مشكلة اجتماعية، ما الذي يبصره هؤلاء الرجال منها؟ أيبصرون منها الباحثة العلمية والخبيرة الاجتماعية، أم يغيب ذلك كله عن أبصارهم ولا يرون فيها إلا أنوثة تغري وتستثير الغرائز؟..

الجواب معلوم للجميع لا يحتمل تجاهلاً ولا جدلاً.

ودعوني أضعكم أمام مثال واقعي: كنت في أحد ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تعقد في الجزائر وكان بين المدعوين امرأة ألمانية ذات اختصاص اجتماعي صحافي، قامت فتكلمت وألقت بحثها وكانت كاشفة الصدر وكثير من الظهر، بادية المفاتن، وكانت خلال حديثها تفضي على حركاتها مزيداً من الإغراء، أخذت أنظر إلى الرجال يميناً وشمالاً، أبحث في وجوههم عما يشغلهم منها، فلا والله لم أر فيهم من تتبع كلامها بفكره، وإنما كان الجميع مشغولين عن حديثها بمفاتنها، وكأن لسان حال كل منهم يقول لها: إنك لجديرة بشيء آخر، حسبك أنك أداة رائعة لاستجابة الغرائز وحاجات الرجولة!.. وما أعتقد أن فيهم من استوعب كلامها قط.

ولو أن هذه المرأة قامت فتكلمت وهي محجبة بالحجاب الإسلامي السليم الذي أمر الله به، طبق الحدود المرسومة، إذن لاتجه الرجال إلى شخصيتها الفكرية والثقافية، ولشعروا فعلاً أنها تقف في مستوى الرجال وتمارس نِدِّيَّة علمية معهم.

إذن أفترون أن الحجاب الإسلامي الذي شرعه الله هبط بالمرأة إلى التخلف والتعثر، أم سما بها إلى التقدم والندِّية الحقيقة مع الرجال؟ إن المثل الواقعي الذي ذكرته يجيب عن هذا السؤال بأبلغ مما قد يسمو إليه المنطق والبيان.

إذن فلنعد إلى تأكيد الحقيقة القائلة: إن المجتمع الغربي هو الذي يجب أن يقاضَى في هذه المسألة، وأن يوضع في قفص الاتهام. ولن تجد قاضياً عدلاً يحاكمه إلا الإسلام.

يُغَالِطُونَكَ إِذْ يَقُولُونَ :

# ٱلْإِسْـلَامُ...
# إِنَّمَا ٱنْتَشَرَ بِسُلْطَانِ ٱلْقَهْرِ وَٱلسَّيْفِ

وهذه أطروحة جديدة.. هي قول أحدهم: «الإسلام إنما انتشر بسلطان القهر والسيف»!.. وهي ليست أطروحة جديدة، وليست غريبة عن أسماعكم أيضاً.. كثيرون هم الذين قالوها ولا يزالون يرددونها .

ومصدرها؛ كأكثر المقولات التي تشبهها هو الغرب، ولعلنا جميعاً نعلم ذلك، ثم إن أصداءها تنتشر آلياً على ألسنة الأُجراء والتابعين لهم، بشكل آلي، ودون أي تأمل أو تمحيص.

فهل صحيح أن الإسلام انتشر في الأصقاع التي وصل إليها عن طريق القهر والسيف، أي عن طريق القتال والتهديد بالقتل؟.

والجواب عن هذا السؤال يقتضينا أن نعود فنتساءل عن معنى الإسلام، أهو شارة تلصق طوعاً أو كرهاً بالمظهر واللسان، أم هو عقيدة تغرس بمحض الاختيار في باطن العقل والفؤاد.

الإسلام كما تعلمون، عقيدة، والعقيدة لا تسمى عقيدة، إلا إن احتواها العقل، وعانقها الفؤاد، ولا يتم هذا ولا ذاك، بالقسر أو الاضطرار، وإنما يتم بمحض الاختيار الذاتي الذي لا دخل للإجبار فيه، بشكل من الأشكال.

فأنا لكي أُعَدَّ مسلماً مؤمناً، ينبغي أن أفكر ثم أقتنع بمقومات دين الله عز وجل ومبادئه، فيمتص عقلي هذه الحقائق، ويوقن بها، وعندئذ أُعدُّ في ميزان الله عز وجل مؤمناً مسلماً، فلو أن إنساناً شهر عليَّ سلاحاً، وأرغمني إرغاماً تحت التهديد بالقتل، أن أستسلم لهذا الإسلام، وأن أؤمن به، ما الذي يملكه هذا الإنسان مني؟.. إنما يملك مني هذا اللسان، وهذه الجوارح، تحت وطأة التهديد.

شيء طبيعي أن أقول له خوفاً من القتل: لقد أسلمت، ولك مني ما تشاء.

فهل هذا الكلام يقربني إلى الله ويجعلني في ميزانه مسلماً؟ هل هذه هي الهداية التي أمر الله بها الرسل والأنبياء؟! هل هذه هي الهداية التي قال عنها رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: «لأن يهدي الله بك رجلاً وحداً خير لك من حُمْر النعم»[١].

وفي رواية أخرى صحيحة أيضاً: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت». هل الهداية أن يجبر الإنسان صاحبه قسراً على أن يرضيه بقول: لا إله إلا الله؟

من المعلوم أن هذه ليست هي الهداية، وليست هي الإسلام، ولا يتقرب صاحب هذا الإسلام إلى الله بذلك شروى نقير.

وهذه الحقيقة مقررة بوضوح في كتاب الله عز وجل. انظر إلى قول الله عز وجل لرسول الله ﷺ ـ وقد كان يتألم من أنه يحاور المشركين ويبرهن لهم على سوء معتقدهم وعلى أن الإسلام حق، فيمعنون في الإعراض ولا يلتفتون إليه بأي استجابة، فيحزن ويأسى لحالهم ـ انظر إلى قول الله له: ﴿فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمصيطر..﴾ [الشورى: ٤٨] وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وانظروا إلى قوله عز وجل وما فيه من العتب: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] كأنه عز وجل يقول لرسوله: إذا كنتُ ـ وأنا القادر على إكراه الناس، وجعل الهداية غريزة لهم ـ لم أشأ أن أكرههم، أفأنت تريد من دوني أن تكرههم على ما لم أكرههم عليه؟!..

---

(١) الحديث بهذا اللفظ متفق عليه.

وانظروا في هذا إلى الآية الأخرى المعروفة المشهورة والتي ما منا إلا من قد سمعها، وهي التي يقول الله عز وجل فيها: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦] في الناس من يظنون أن لا هذه ناهية، أي: لا تكرهوا أحداً على الإسلام، والواقع أنها ليست ناهية، وإنما هي نافية والجملة إخبار، وليست إنشاء. ومعنى الجملة: لا يتأتى الإيمان بالإكراه، إذ الإيمان عقيدة، والعقائد لا تلتصق بالعقول بالجبر والإكراه، وإنما تدخلها بالقناعة الذاتية. ولو أنك حاولت أن تُكرِهَ.. فلن يقوى إكراهك إلا على لسان تجبره على النطق، أو على أعضاء تجبرها على الحركة والعمل، والدين في جوهره ليس هذا، وإنما هو اليقين الذي يستقر في العقل، وإنما يكون هذا بقرار اختياري، يتخذه الإنسان بينه وبين نفسه.

ومن هنا كانت «لا» في الآية نافية، لا ناهية. ولو أنك صرفتها إلى معنى النهي، لاستلزم ذلك إمكان الإكراه على المعتقد الديني، إذ النهي عن الشيء فرع عن إمكان فعله، ومن ثم فإن النهي عما لا سبيل للإنسان إليه لغو من الكلام الباطل، كما لو قلت: لا تنقل هذا الجبل من مكانه.

إذن فالجملة خبرية، ولا نافية، كما قال جل المفسرين، ويؤكد ذلك قول الله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦] أي: من أراد أن يعمل عقله وفكره، وأن يمزق حجب الكبرياء والعصبية والأنانية من نفسه سيرى الحق وسيصل إليه، وستستأنس نفسه به وتركن إليه. ومن أصر على أن يسدل حجاب الكبر أو العصبية أو نحو ذلك، بينه وبين الخالق، فلا عليه أن يفعل ذلك، ولا تكرهه، ولا تسر وراء هذا الإنسان الذي اتخذ قراره هذا بينه وبين نفسه، فلن تملك إلى ذاته وعقله سبيلاً.

ثم تعالوا فانظروا إلى آيات أخرى تزدكم تبصُّراً بهذه الحقيقة، تأملوا في قول الله عز وجل: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا

لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩] ودونكم فانظروا إلى قول الله عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢].

لو كان الإسلام نظاماً كالأنظمة الوضعية، مذهباً ماركسياً، أو مذهباً إمبريالياً، أو أياً من هذه المذاهب التي يتبناها بعض الناس، لكان إرغام الناس عليه وإلصاقهم به أمراً ممكناً ويسيراً، لأن أصحاب هذه المذاهب لا يهتمون بإدخالها قناعة في العقول، وإنما همهم أن يخضعوا واقع المجتمعات لأحكامها. فكأن صاحب هذا المذهب والمروِّج له يقول للناس: سواء عليكم آمنتم بهذا الذي أدعوكم إليه أو لم تؤمنوا، فالأمر سواء عندي، إذ ليست لي علاقة بعقولكم ولا بقلوبكم، إنما المهم أن أصل إلى الحكم، ثم أطبق هذا المذهب عَنوةً على المجتمع آمن الأفراد به أم لم يؤمنوا.

أجل، فلو كان الإسلام مذهباً، لا جذور اعتقادية له، لصح أن يُفرض على الناس عن طريق القسر والإرهاب كسائر المذاهب الأخرى.

لكن الإسلام في أعلاه أغصان من الأحكام التشريعية، وفي جذوره قاعدة كبرى من الاعتقادات الدينية، وهو قبل كل شيء دينونة لله عز وجل تصبغ المشاعر بصبغة العبودية الراضية له، ثم إن هذه العبودية تثمر بدورها الالتزام بالشرائع والأحكام.

تعالوا بعد هذا إلى دلائل التطبيق، هل رأيتم في تطبيقات الدعوة الإسلامية، في عصر رسول الله ﷺ، إن في مكة أو في المدينة أو في أنحاء الجزيرة العربية، أو في انطلاقة المسلمين إلى آفاق العالم، إلى الحضارة الساسانية، إلى العراق، إلى بلاد الشام، حيث الحضارة الرومانية، هل رأيتم أن المسلمين قادوا الناس قسراً، وأجبروهم إجباراً على أن يخلعوا ربقة دين، وأن يعانقوا ديناً آخر؟.. متى

حصل هذا؟ وفي أي مشهد من المشاهد عثرتهم على هذا الموقف؟! أما أنا فلم أعثر إلى الآن، على الرغم من بحثي، وعلى الرغم من تتبعي، لم أعثر على شيء من هذا، قط..

في مكة كان المصطفى ﷺ يدعو بالنصح والحوار.. يؤذيه المشركون فيتلقى الإيذاء صابراً راضياً، ثم يمضي ويستمر في الدعوة.. يتلقى أنواعاً من الصد والرد والسخرية والهزء، هو وأصحابه القلة، فيتطامنون ويخضعون للأذى، دون أن يقعدوا عن الدعوة إلى الله عز وجل. وكان المصطفى ﷺ يقول لهم إذا ضيق المشركون عليه الأمر، وحاولوا أن يقنعوه بالبديل، كالملك، الزعامة، المال: «ما جئتكم بما جئتكم به أبغي مالكم، ولا الشرف فيكم، ولا السؤدد عليكم، ولكن الله جعلني رسولاً، وأنزل علي كتاباً فبلغتكموه، فإن تؤمنوا فذلك حظكم مني، وذلك حظي منكم، وإن ترفضوا أصبر لحكم الله، حتى يقضي الله بيني وبينكم».

فأين هو الإرغام؟ وأين الإجبار؟ ولقد لازم ﷺ هذا الأسلوب في الدعوة إلى وفاته ﷺ، وكان رائده ودستوره دائماً: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

عندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، كان موقفه الموقف ذاته، لكنه أخذ يدافع عن نفسه وعن الممتلكات التي أدخلها الله في حوزة المسلمين، امتلك لأول مرة أول دار الإسلام، وهي المدينة المنورة، أوجد نظاماً سلطوياً تمثل في الوثيقة، أي: الدستور المكون من قرابة خمسين بنداً، ووُجِدت الكتلة البشرية المسلمة التي فاضت بها أرض المدينة المنورة، إذن فقد ولدت الدولة الإسلامية التي تتألف من هذه العناصر الثلاثة، لابدّ إذن من الدفاع عنها والوقوف في وجه من يتربص بها شراً، ومن أجل ذلك بدأ القتال بعد أن لم يكن له وجود في مكة.

وتلاحقت سلسلة الغزوات التي واجهها رسول الله ﷺ فقد كانت كلها حماية

للدولة الإسلامية، وحماية للدعوة إلى الله إلى أن تبلغ مداها من الآذان والعقول، وللناس بعد ذلك أن يستجيبوا إن شاؤوا، أو أن يركبوا رؤوسهم إلى النهج الذي يشاؤون.

ودونكم فتأملوا في العوامل التي أدت إلى كل غزوة من غزوات رسول الله ﷺ، فإنكم لن تجدوا بينها أياً من عوامل القهر والإرغام على الإسلام، وإنما كانت رداً لعدوان واقع، أو درءاً لعدوان كان يخطط له.

سمعت من يقول: أخرج الرسول اليهود من المدينة: يهود بني قنيقاع ويهود بين النضير ثم يهود بني قريظة، فتجمعوا آمنين في دورهم، في أرض خيبر، وإذا برسول الله ﷺ يلاحقهم إلى مأمنهم هذا ويفاجئهم بالغزو دون سابق عدوان منهم، أليس هذا إجباراً؟!

راجعوا السيرة، وتبينوا بعمقٍ السببَ الذي جعل رسول الله يتجه إلى خيبر، ستجدون أن يهود خيبر، خططوا مع قبيلة غطفان لقتال رسول الله ﷺ، ووضعوا معاً خطة كالتي رسموها في غزوة الأحزاب، وعلم المصطفى ﷺ ذلك بواسطة استخباراته التي كان يبثها، فقطع الطريق بين غطفان وبين خيبر، ثم اتجه بعد ذلك إلى خيبر ليقطع دابر العدوان الذي كان يهود خيبر يعدُّون له بالتعاون مع قبيلة غطفان.. فهذا هو سبب توجه رسول الله ﷺ بالغزو إلى خيبر.

أرني أي غزوة غيرها، قَصَد من خلالها رسول الله ﷺ أن يجبر الناس على الدخول في الإسلام!!!.

ولو كان من شأنه أن يجبر الناس على الإسلام، إذن لقاتل القبائل المشركة التي كانت بجوار المدينة وما حولها، ولما عقد رسول الله بين المسلمين وبينها عقود حلف وأمان، على غرار ما فعل مع قبيلة خزاعة. ولكنه كان ينفذ في سياسته معها قول الله عز وجل: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

أجل. لم يكن النبي يألو جهداً في إرسال السرايا من أصحابه ليعرفوا الناس بالإسلام، ويبلغوا رسالة الله لعباده عن طريق الحوار والنقاش، مع الصبر على ما قد ينالهم على ذلك من الشدائد والأذى..

أرسل ﷺ يوم الرجيع سبعة من عيون أصحابه، ليبلغوا الناس ما بعث به النبي ﷺ فقُتلوا جميعاً.

ثم أرسل في العام ذاته سبعين آخرين من عيون أصحابه إلى قبائل من نجد للمهمة ذاتها، فأحيط بهم وقتلوا عن بكرة أبيهم، إلا واحداً منهم هو «عمرو بن أمية الضمري» وكأن الله استبقاه ليعود فيقص خبر إخوانه على رسول الله ﷺ!..

ولقد صادف أن رأى عمرو بن أمية هذا، في طريق عودته إلى المدينة رجلين ظنهما من القبيلة التي اعتدت على أصحابه، فلقي منهما غِرة وقتلهما.

ولما عاد إلى رسول الله ﷺ أخبره بالأمر، وبقتله هذين الرجلين، فسأل رسول الله عنهما وبحث عن أصلهما، فعلم أنهما شخصان من قبيلة بني كلاب، وأن لا علاقة لهما بالقبائل التي اعتدت على أصحابه بالقتل ظلماً فقال له: «لقد قتلت اثنين من مشركي بني كلاب لأدينهما»، أي: لابد أن أدفع ديتهما لأهليهما.

فلو أن الله عز وجل أمر رسوله بأن يلاحق الشرك والمشركين أينما كانوا، فيقضي عليهم ويقتلهم، ليجبرهم بذلك على الإيمان، إذن لرحب بهذا الذي فعله عمرو.. ولما وجد ما يكلفه بأن يقدم الدية كاملة لأهل كل من هذين القتيلين.

هذا ما كان عليه الأمر في عهد رسول الله.. كل الغزوات التي جهز رسول الله ﷺ أصحابه للقيام بها، إنما كانت حماية للدعوة، ودفاعاً عن الدولة الإسلامية، ورداً لغائلة عدوان.

تعالوا بنا ننظر إلى ما آل إليه هذا الأمر بعد وفاة رسول الله ﷺ حيث انتشرت الفتوحات، وامتد شعاع الحضارة الإسلامية، فوصل إلى أعماق بلاد الشام وبلاد فارس، وغيرها.. هل أجبر المسلمون الناس خلال كل ذلك على الإسلام؟

لعلكم تقولون: إذن فيم كانت تلك الغزوات؟ وما هي أهدافها؟

كانت تلك الغزوات لأمر بدهي معلوم، أزيده بياناً بما يلي: الحضارة أو الدولة الفارسية رأت خطر الإسلام، وعلمت أنه يزداد قوة وانتشاراً، وأحست أن وجود الدولة الإسلامية التي كانت مفقودة بالأمس، وأصبحت ذات أهمية وإشعاع حضاري اليوم يشكل خطراً عليها. فكان لابد للامبراطورية الساسانية أن تخطط للوقوف في وجه هذا الخطر، وذلك بأن تسابق المسلمين وتبادئهم بالعدوان.. وهذا ما ساور الإمبراطورية الرومانية أيضاً، ومن ثم فقد اتخذت السبيل ذاته.

ويرحم الله حجة الإسلام الغزالي إذ يقول في كتابه «المنخول»: «الروم إن لم تُغزَ غزت» أي: إن لم تشاغلها بالغزو فلسوف تسبقك إليه.

وانظر، كم تبدو هذه الحقيقة واضحة في هذه المحاورة التي قامت قبيل غزوة القادسية بين المسلمين يمثلهم ربعي بن عامر، وبين الامبراطورية الفارسية ممثلة في رستم، الذي كان قائد الحملة في غزوة القادسية.

قال رستم: ما الذي دعاكم إلى الولوع ببلادنا، والخروج لقتالنا؟

أجابه ربعي بن عامر: جئنا لنخرج من شاء منكم من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد الديان، ولم يقل: جئنا نحملكم على الدخول في الإسلام، ولو أن الفرس فتحوا السبيل أمام المسلمين لحرية الدعوة وإبلاغ رسالة الله إلى الناس، لما وجد المسلمون ما يحوجهم إلى أي قتال.

على أن المسلمين لو قبعوا في ديارهم ولم يلتفتوا إلى الأخطار المحيطة بهم، لاجتاحتهم الغزوات من هنا وهناك، ولقضي عليهم وعلى الإسلام الذي ائتمنهم عليه رسول الله ﷺ.

ولقد انتشر الإسلام واستقر في مناطق جنوب شرق آسيا، دون أن يلتمع فيها بارقة سيف أو أن يقع في جهة منها أي حرب مع المسلمين، ودون أن يمارس المسلمون أي ضغط على أهل تلك المناطق لإجبارهم على الإسلام.

ذلك لأن الشأن في شعاع الإسلام أن يدخل بشكل ذاتي إلى الفطرة، ومن شأنه أن يتفق مع موازين العقول، تلك هي طبيعة الإسلام!..

والدليل على هذا، الواقع المرئي اليوم.

إننا لنرى كيف أن الإسلام ينتشر في أوروبا وفي أ مريكا انتشاراً سريعاً كبيراً، ولا يستطيع الوصف أن يعبر عن الواقع. ولربما جاء الغد القريب، فرأيت جل تلك البلاد قد اعتنقت الإسلام، وإذن فلا يبعد أن يأتي من يكرر القول: بأن الإسلام إنما انتشر في تلك البقاع أيضاً بالقهر والسيف.

إن قصة انتشار الإسلام اليوم في الغرب كقصة انتشار الإسلام بالأمس القريب، أو الأمس البعيد في تلك المناطق المختلفة النائية كلها .

لقد انتشر الإسلام في الأندلس عن طريق عبد الرحمن الداخل، فماذا صنع عبد الرحمن الداخل؟ هل حمل أسلحة، وهل أشهر الحراب في وجوه الناس يجبرهم بها على اعتناق الإسلام؟ وهل كان بوسعه (ولم يكن معه إلا قلة من الرجال المجردين عن العتاد والسلاح) أن يفعل ذلك، وأن يعلنها حرباً على الأسبان ابتغاء إجبارهم على الإسلام. لو فعل ذلك، لما وجد سبيلاً للبقاء في تلك البقاع!..

إن السلاح الذي استعمله عبد الرحمن الداخل إنما هو سلوكه الإسلامي..

خلقه.. صدق التزامه.. ثم دعوته الحوارية المحببة. وشأن انتشار الإسلام في الأندلس، هو شأن انتشاره في سائر البقاع الأخرى التي استقر فيها الإسلام.

إذن ليس لهذه المقولة أصل من الصحة.. وبوسعي أن أحدثكم عن مصدرها :

مصدر هذه الأكذوبة ما دوَّنه كثير من الكتاب الأجانب؛ من مستشرقين وغيرهم من القول بأن محمداً ﷺ كان يضمر قدراً كبيراً من الحقد على الأعاجم، وأن دعوته كانت تهدف إلى نقل الزعامة الأعجمية التي كان يتمتع بها الفرس والروم، إلى أيدي العرب وأنه كان ينام ويستيقظ على هذا الحلم الذهبي الذي كان يراوده، وأن غزواته إنما كانت حروباً توسعية تهدف إلى هذا الغرض.

ومن قرأ كتاب «السيادة العربية» لفان فلوتن رأى فيه غرائب الأكاذيب التي يستهين كاتبها بألف باء التاريخ العربي، ويستخف فيها بعقولهم وثقافاتهم.

والحاقد الأجنبي معذور بحقده، ولكن ما هو عذر المسلم الذي يمارس عمالة دنيئة لأحقاد أولئك المنحرفين؟..

الآن، وقد تبين لنا بطلان هذه المقولة التي يروجها محترفو الغزو الفكري، ويتلقفها عملاؤهم وسماسرتهم في العالم العربي والإسلامي، بقي أن نصغي السمع إلى شبهات الذين يصرون على الأخذ بها والوقوف عندها، ما هي شبهاتهم التي يستندون إليها ويستدلون بها؟.. لابد من عرضها ومناقشتها، وبيان وجه بطلانها.

يقول بعضهم: إن الأسباب التي أدت إلى غزوة بدر، تنطق بنقيض ما تقولون!.

ويقولون: إن السبب الأول فيها هو أن محمداً ﷺ سمع أن قافلة تجارية، توشك أن تعود إلى مكة آتية من بلاد الشام، فأهاب ﷺ بأصحابه أن يتصدوا لهذه القافلة، وقال لهم: «لعل الله أن ينفلكموها فخرجوا لملاقاتها..

وهكذا فقد مارس المسلمون بأمر من رسول الله ﷺ ما يفعله قطاع الطرق.. ولو أن قضاء الله عز وجل اقتضى أن تفلت هذه القافلة من أيديهم، وأن تصل آمنة مطمئنة إلى مكة، لكانت غنيمة للمسلمين، دون أن يصدر من رجالها أي عدوان عليهم.

والجواب أن المهاجرين الذين هاجروا إلى مكة تاركين وطنهم بأمر من رسول الله ﷺ، بل بأمر من الله عز وجل، قد تجردوا من كل ما يملكون..، جُردوا من أوطانهم وعقاراتهم وبيوتهم، تحول ذلك كله إلى المشركين، وحتى أموالهم المنقولة التي كان بوسعهم أن ينقلوها ويحملوها معهم، مما خف ثقله، جُردوا منها جميعاً، ولم يُمكَّن واحد منهم تحت أبصار المشركين أن يصطحب معه بُلْغة طعام أو شراب، ولعلكم تعلمون أن في الصحابة من خرجوا مهاجرين سراً متسللين، ولكن سرعان ما خرجت عليهم فلول المشركين الذين كانوا يتبعونهم في الطرقات، فجردوهم من كل ما معهم من أمتعة ونقود وبُلْغة طعام.

صهيب الرومي على سبيل المثال كان قد خرج هو وزوجته سراً، متجهاً إلى المدينة المنورة، وفي الطريق خرجت عليه ثلة من المشركين فأغلقوا عليه السبيل، وأمسكوا بزمام دابته قائلين: تذهب إلى محمد، وتمضي بصاحبتنا معك (وكانت زوجته عربية من أهل مكة) ولم يتركوه حتى جردوه من زوجته ومن ضروريات ما كان بحوزته من طعام ومتاع، فواصل رحلته إلى الله مفارقاً أهله، مجرداً من بلغة طعامه الذي لابد له منه في الطريق، وما حاق بصهيب حاق بأكثر الذين هاجروا إلى المدينة من الصحابة رضوان الله عليهم..

إذن فقد تحولت أموال المسلمين الذين هاجروا إلى المدينة المنورة، إلى المشركين، ولم تسلم لهم حتى أمتعتهم الضرورية والدراهم والأطعمة البسيطة التي كانت في حوزتهم.

ولقد كان رسول الله كثير الشفقة عليهم إذ يراهم وقد حرموا من سائر أموالهم وممتلكاتهم، ليلحقوا برسول الله ويكسبوا شرف الهجرة معه، فكان يدعو الله لهم قائلاً: «اللهم إنهم عراة فاكسهم، وإنهم حفاة فاحملهم، وإنهم جياع فأشبعهم»[١].

فما هي المشكلة في أن يُهيب رسول الله ﷺ بثلة من أصحابه، (وقد سمع بأن قافلة تجارية تعود من الشام إلى مكة لهؤلاء المشركين، الذين استلُّوا من المهاجرين كل ما وقعت عليه أيديهم من ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة). بأن يخرجوا إليها فيستردوا منهم بعض ما استلبوه منهم؟؟!.

حربيون، يناصبون المسلمين حرباً ظالمة قاسية خلال ثلاثة عشر عاماً، الأمر الذي اضطرهم إلى أن ينجوا بدينهم وأرواحهم مهاجرين، إلى حيث يجدون فيه السلم والأمان، أي شرعة في الدنيا تمنعهم من أن يعاملوهم بالمثل، فضلاً عن أن يعملوا فقط على استرداد بعض ما قد سلب منهم؟!.. ومَن من هؤلاء المنتقدين يتردد في استعادة كل أو بعض ما استلب منه ظلماً بدون حق إذا تمكن من ذلك؟

إذن، فقد كان هذا الذي ندب إليه رسول الله ﷺ أصحابه أمراً مشروعاً، وهي معاملة مبررة في سائر القوانين الدولية، ومتفقة مع سائر القيم والأعراف والأخلاق الإنسانية.

ومع ذلك، فإن الله عز وجل سما بهم عن اللحاق بما هو حقهم المشروع، ورغبهم فيما هو أبقى لهم، وأوسع فائدة، وأبعد مدى، فقضى بأن يُفلت من بين أيديهم العير، وأن يواجَهوا بدلاً منه بالنفير، فما ضاق المسلمون بذلك ذرعاً، ولم يأسفوا للدنيا التي فاتتهم إذ فاتهم العير. بل

---

(١) رواه أبو داود في «سننه».

واجهوا النفير المقاتلين الذين توجهوا إليهم من مكة بمنتهى الطمأنينة والحماس.

وقالوا لرسول الله، وقد استشارهم ولم يجبرهم: «لقد صدقناك وعلمنا أن ما جئت به هو الحق، فامض بنا، فوالله لو خضت بنا غمار هذا البحر لخضناه معك».

فكان أن أكرمهم الله بما هو أغلى وأثمن من العير بمئات الأضعاف، ألا وهو النصر الذي جعله الله فاتحة الفتوح والانتصارات للمسلمين من بعد.

ثمة شبهة أخرى يرددها كثير ممن يتوهمون أن الإسلام إنما انتشر بالقهر والإلزام، هي قول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري ومسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها».

يقولون: فهذا نص واضح على أن رسول الله ﷺ جاء يلاحق الناس، ويجبرهم إجباراً على أن يستسلموا ويُسلموا، وإلا تعرَّضوا للقتل والإهلاك.

ولابد أن أبدأ أولاً فأسأل أصحاب هذه الشبهة: أفقال رسول الله: أمرت أن أقتل الناس، أم قال: أمرت أن أقاتل...؟ ومعلوم أن نص الحديث في كل الروايات هو «أمرت أن أقاتل».

وعندئذ نتساءل: أبين كلمتي أقتل وأقاتل فرق في المعنى أم لا؟

والجواب الذي يعلمه من له أدنى بصيرة باللغة العربية هو: أن بين الصيغتين فرقاً لغوياً كبيراً، «فالقتل» يتضمن معنى ابتداء القتل دون مشاركة من الطرف الآخر، و«القتال» تحمل الدلالة على المشاركة.

وعلى هذا، فلو أن رسول الله قال: «أمرت أن أقتل الناس..» لكان المستشكلون محقين، ولما كان سبيل منطقي سليم للجواب عن إشكالهم، بل لما وسعنا إلا الانضمام إلى رأيهم.

ولكنه ﷺ إنما قال: «أقاتل». وهذا الوزن مبني للدلالة على المشاركة، أي: يدل على مقاومة المتوجه بالعدوان أو بقصده، أي يدل على ما تفهمه من قول الرجل: «قاتلت اللص.. » والمعنى أن اللص داهمه بالعدوان، فقابله بما يردُّ به عدوانه، ومعنى الحديث: إن أقبل الناس إليّ مسالمين يصغون إلى دعوتي تركتهم، آمنوا أو لم يؤمنوا، وإن صدُّوني عن ذلك ومنعوني إبلاغ رسالة ربي، إذن فأحاول جاهداً أن أقابل صدَّهم بمثله، وإن اقتضى الأمر قتالاً قاتلتهم على ذلك.

وانظروا كيف يتجلى هذا المعنى بأعلى درجات الوضوح في قول رسول الله ﷺ لبديل بن ورقاء يوم صلح الحديبية: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرَّت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلُّوا بيني وبين الناس.. وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره»(١).

لاحظوا كلمة «لأقاتلنهم» من أين جاءت، وما المعنى الذي تحمله؟

رسول الله ﷺ يدعوهم إلى المسالمة، وإلى أن يغمد كل طرف سيفه، ويقول: إن الحرب قد نهكت قريشاً، ونهكت الآخرين أيضاً، فلنسترح جميعاً ولنلجأ إلى السلم والحوار ثم يقول: ولكن إن أصرت قريش على الحرب فسأقاتلنّهم، أي: فسيكون موقفي مجابهة العدوان بقتال. ولو قال: لأقتلنهم، لتناقض كلامه هذا مع دعوته لهم إلى السلم.

إذن فقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي نحن بصدده: أمرت أن أقاتل الناس، معناه: أمرت أن أجابه صدَّهم لي، ومقاتلتهم لي بمثل ذلك، لأن هذا واجبي، أما إذا فسحوا أمامي المجال، وتركوني أبلغ رسالات ربي سبحانه

(١) من حديث طويل رواه البخاري في «صحيحه».

وتعالى، فلا شأن لي بقتال أحد منهم، إنني أطلب منهم شيئاً واحداً، أن لا يمنعني أحد من أن أبلغ رسالات الله سبحانه وتعالى.

ولو أراد أن يقول: أنا لابد أن أجبر الناس كلهم على الدخول في الإسلام؛ لاقتضى التعبير العربي أن يقول: أمرت أن أقتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله.

نعم، قد يخرج وزن (فاعل) عن معنى المشاركة إلى معان مجازية أخرى، كقولهم: (طابقت النعل)، ولكن لا يجوز إخراج الكلام عن معناه الحقيقي إلا عند وجود قرينة تضطر إلى ذلك.

أعتقد أن في أصحاب هذه المقولة من يعود ربما إلى كتاب الله سبحانه وتعالى، وينبش فيه عن آيات ربما تثير شبهة في هذا الصدد، ويخيل إليهم أنهم يقفون من كتاب الله عز وجل، لدعم تصورهم هذا، أمام آية واحدة، هي قول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥] رب قائل يقول: ها هو ذا القرآن يأمر رسول الله ﷺ بمقاتلة المشركين، إذا انتهت الأشهر الحرم، ويجعل غاية القتال شيئاً واحداً، هو أن يتوبوا ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، وهذا دليل على ما نقول.

وأقول لإزالة الشبهة عن هذه الآية: إذا كانت الغاية التي ترسمها هذه الآية للقتال هي التوبة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فهذا لا يعني أن القتال من أجل الكفر، بل تظل الدلالة قائمة على أن سبب قتال المسلمين لهم هو الحرابة.

ولاشك أن المحاربين، إذا تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فلن يعودوا محاربين، بل سيصبحون مسالمين.

أما مفهوم المخالفة فساقط عن الاعتبار، أي فلا يجوز أن تحمل الآية معنى سلبياً أيضاً، وهو: فإذا لم يتوبوا، ولم يقيموا الصلاة، ولم يؤتوا الزكاة، وسالموك، فينبغي أن تستمر في مقاتلتهم ولا تبالي بسلمهم.

قد يقول الإخوة المستشكلون: إن المفهوم المخالف من الدلالات المعمول بها. والقواعد العربية والأصولية تنص على ذلك. ونقول في الجواب: مفهوم المخالفة يشترط للعمل به أن لا تعارضه دلالة المنطوق. فإن عارضته هذه الدلالة فالأولوية لدلالة المنطوق، لأنها أقوى من المفهوم المخالف.

وقد جاءت من وراء هذه الآية مباشرة آية تحمل بمنطوقها ما يناقض هذا المفهوم. وهي قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]. تقول هذه الآية بمنطوقها: إذا أراد واحد من المشركين أن يدخل بلدك مستجيراً، يجب أن تفسح له المجال ليدخل، واتركه يسمع كلام الله ويتبين واقع المجتمع الإسلامي وحال المسلمين، فإن أسلم فذاك، وإن أبى أن يسلم، فلا تكرهه على مالا يريد، بل عليك أن ترعى سلامة حياته، وأن تتحمل مسؤولية إعادته إلى مأمنه آمناً مطمئناً.

فكيف ينسجم مضمون هذه الآية مع دعوى أن الجهاد القتالي إنما شرع لحمل الناس على ا لإسلام، وأن الإسلام إنما انتشر بالسيف؟ أي: كيف ينسجم منطوق هذه الآية مع المفهوم المخالف الذي تريد أن تحمِّله للآية التي قبلها، وبينهما من التناقض الصارخ ما لا يغيب عن ذهن أي عربي عاقل؟!

ولننظر بعد هذا إلى الآيات الأخرى التي تتحدث عن سبب مشروعية القتال الجهادي، أو الجهاد القتالي، فسنجد أنها جميعاً تبرز هذه العلة بشكل بين لا يقبل اللبس، من ذلك قول الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

ومن ذلك قول الله تعالى في سورة البقرة، وهي من أواخر ما نزل من القرآن: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] ومن ذلك قول الله تعالى في سورة براءة، وقد نزلت بعد سورة البقرة: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

أما الآيتان اللتان جاءتا مطلقتين في الأمر بمقاتلة المشركين، في أوائل سورة التوبة وهما الآيتان ٥ و **٢٩**، فمن المعلوم أن النصوص المطلقة تفسر على ضوء المقيدة لا العكس، وهذه من القواعد الأصولية المتفق عليها، والتي لا أعلم أي خلاف فيها.. هذا بالإضافة إلى الآيات الكثيرة التي تخيِّر الناس بين الانقياد لأمر الله، والوعد الذي قطعه لهم بالسعادة الأبدية الخالدة، والشرود عن تعليماته وأوامره مع الوعيد الذي قطع لهم به من الشقاء الأبدي الذي لا مفر لهم منه، والآيات التي تكرر على سمع رسول الله ﷺ أن مسؤوليته تقف عند حدود التبليغ والتذكير، وأن عليه أن لا يذهب نفسه على المستكبرين والمعاندين حسرات.

تضاف إلى ذلك كله الأحاديث الثابتة والآثار التاريخية التي تبرز وتجسد علة الحرابة في مشروعية الجهاد القتالي:

جاءت أم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما إلى المدينة، وهي مشركة لتزور ابنتها، حاملة إليها معها طُرفاً وهدايا، فأبت أسماء أن تستقبلها حتى تستشير في ذلك رسول الله ﷺ، فأمرها عليه الصلاة والسلام أن تبرَّ أمها وتحسن استقبالها وتقبل هداياها.. ولا شك أن هذا يناقض القول بوجوب ملاحقة الكافرين بالقتل لمجرد كونهم كافرين..

كانت قبيلة خزاعة، وهي مشركة، دخلت في عقد المسلمين وعهدهم يوم

صلح الحديبية، وقد لقيت هذه القبيلة الأمن والطمأنينة في ظل هذه الحماية والعهد، إلى أن غدر بهم رجال من قبيلة بني بكر مع ثلة من مشركي قريش ناكثين بذلك وثيقة صلح الحديبية، فقام رسول الله ينتصر لهم قائلاً «لا نصرتُ إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي..» وكان ذلك هو السبب المباشر لفتح مكة. فأين هذا الحلف بين مشركي خزاعة ورسول الله ﷺ، من القول بأن الجهاد القتالي شرع لمقاتلة الكافرين بسبب كفرهم؟

كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه غلام نصراني يخدمه، وكان يحاوره دائماً ويهيب به أن يسلم ويقول له: لو أسلمت لاستعنّا بك في بعض الأمور والمصالح، فيعتذر الغلام ويرفض الإسلام. فيقول له عمر: لك شأنك، لا إكراه في الدين.

وهذا دليل بيِّن من سيدنا عمر على أن آية: «لا إكراه في الدين..» لم تكن منسوخة بآية السيف كما قال البعض، إذ لو كانت منسوخة لما استشهد عمر بها أيام خلافته.

إذن فالقرآن والسنة ووقائع التاريخ، كل ذلك مليء بالدلائل الناطقة بأن الجهاد القتالي إنما شرع درءاً للحرابة والعدوان الواقع أو المتوقع. وهذا هو مذهب جمهور الفقهاء.

على أن الإسلام لا يكون إسلاماً إلا أن غُرِسَ اختياراً في حنايا الفؤاد، وهيهات أن يكون القسر والإجبار سبيلاً للوصول إليه.



يُغَالِطُونَكَ إِذْ يَقُولُونَ:

# مَجَالِسُ ٱلذِّكْرِ
# تَوَرُّطٌ فِي ٱلْبِدْعَةِ وَمَلْهَاةٌ عَنِ ٱلْعَمَلِ ٱلْإِسْلَامِيِّ -١-

هنالك من يقول: مجالس الذكر تورط في البدعة، وملهاة عن الاشتغال بالعلم وأسبابه!..

من المؤسف أن هذه المقولة لا نسمعها من الشاردين عن الإسلام، ولا نسمعها من المعرضين عن ميزان الشريعة الإسلامية، ولا نسمعها من الدعاة إلى العلمانية، وإنما نسمعها من طائفة من الإسلاميين الحركيين، الذين ينشطون في أعمال الدعوة، والقضايا الإسلامية!!..

أقول: نسمعها من طائفة كبيرة منهم، فلا جرم أن فيهم من يبرأ إلى الله من هذا الكلام.

بادئ ذي بدء، تعالوا نصغ إلى وجهة نظرهم، وإلى الدافع الخفي الذي يحملهم على هذا التصور، ومن ثم يحملهم على هذا الكلام..

إنهم يتصورون أن مجالس الذكر، من شأن العوام من الناس، من شأن أولئك السذج، الذين لم يتمرسوا بمعرفة حقائق الإسلام، ولم ينهضوا ليرتفعوا إلى مستوى الإبداع العلمي، والوقوف في مصاف الدعوة إلى الله والمجاهدين لإقامة المجتمع الإسلامي.. ولعل أحدهم يقول: إن وقتاً ينفقه أحدهم في مجلس ذكر كان ينبغي أن يُنفق في عمل إسلامي علمي.. في عمل حركي.. في شأن من شؤون الإسلام.. في خدمة لإقامة المجتمع الإسلامي، يقولون: إن شأن هذه المجالس كشأن الفعل اللازم في اللغة العربية، ولا يتجاوز ذاته ولا يتعدى إلى غيره، أي: ففائدة هذا الإنسان إنما هي لنفسه، وليست للمجتمع. هذا بالإضافة إلى أن فيهم من يرى أن هذه المجالس بدعة طارئة على الدين.

وإني لأتامل حال كثير من هؤلاء الإخوة، فأراهم معرضين كل الإعراض عن سبيل التبتل، وعن واجب الاصطباغ بالعبودية الضارعة لله عز وجل، تائهين عن مراقبة الله، غافلين عن ذكر الله وتَذَكُّرِهِ!.. أجدهم ـ ويا للعجب ـ مشغولين عن هذا كله بالإسلام والحديث عن الإسلام، وعظمة الإسلام!.

انظر إلى مجتمعاتنا الإسلامية فأراها تعج بالحركات والأنشطة الإسلامية، وألتفت إلى محاريب ذكر الله، فإذا هي خاوية منسية من أكثر هؤلاء العاملين في الحقل الإسلامي.

تلك هي باختصار وجهة نظر هؤلاء الإخوة!.. فهل هو موقف سديد؟ وهل تتفق مبرراتهم تلك مع أوامر الله وتعليماته؟..

لكي نجيب عن هذا السؤال، ينبغي أن نعود فنتذكر حقيقة معروفة لدى علماء النفس، وربما درسها ووعاها كثير منكم، وهي ما هو ثابت من أن الإنسان يعيش خاضعاً لنوعين من الدوافع:

النوع الأول: دوافع القناعات العقلية.

والثاني: دوافع الرغبات النفسية.

وبينهما كما تلاحظون تخالف مستمر؛ فالإنسان واقع بين هذين الدافعين، وأنا إنما أعني بدافع الرغبات النفسية، الشهوات الجانحة.. الأهواء.. العصبية.. الأنانية.. حب الانتصار للذات.. إلخ.. أما القناعة العقلية فمعروفة.

ترى أي هذين الدافعين يتغلب على الآخر في حياة الإنسان؟

الجواب الذي ينبغي أن يعرفه كل منا، هو أن الدوافع النفسية أكثر تغلباً على الإنسان من الدوافع العقلية، ومن ثم فإن من شأنه أن يستجيب لرغباته النفسية أكثر مما يستجيب لقناعاته العقلية.. انظروا إلى تصرفات الناس في الشوارع، في الميادين والمجتمعات، وتأملوا أنشطتهم المختلفة، والدوافع التي تحفزهم

إليها، ستجدون أن ستين بالمائة من هذه الحوافز حوافز نفسية، رغبات، شهوات، أهواء، عصبيات، أنانية، حب الذات. وتتأمل في صوت العقل، في غمار ذلك كله فلا تجده مستبيناً إلا بنسبة ثلاثين أو أربعين في المائة، هذه المشكلة قديمة متجددة في حياة الناس جميعاً، ومن هنا ظهرت ضرورة التربية..

وما هي التربية في مجملها؟

هي من أقدم العصور إلى اليوم، عبارة عن الطريقة التي يسلكها الإنسان تجاه نفسه أو الآخرين، لجعل النفس الإنسانية خاضعة لوحي العقل، منسجمة مع قراراته وأحكامه.

وتنبع الحاجة إلى ذلك من أن الإنسان إن لم يتلق هذه التربية، فإن رعوناته النفسية هي التي تقوده غالباً، ومن ثم فلابد أن تجنح به ..

فمن أجل ذلك كانت حاجة المجتمعات ماسَّة إلى التربية، أي: إلى أن يخضع الإنسان نفسه لقناعات عقله، بدلاً من أن يخضع قناعات عقله لقرار نفسه.

ووسائل التربية كما تعلمون كثيرة ومتنوعة ومتطورة، ولكني أقول: مهما تطورت وسائل التربية هذه، فغايتها ومطمحها هو هذا الذي أوضحته بإيجاز.

عندما يكون الإنسان سائراً في طريق الدعوة إلى الله عز وجل، ناشطاً في مجال الحركات الإسلامية المتجهة إلى إقامة المجتمع الإسلامي، لاشك أنه يسير من ذلك في طريق مقدس، وعمل مبرور، ولكن لهذا التوجه آفات يصعب التحرز عنها لمن لم يأخذ نفسه بالإكثار من ذكر الله عز وجل، آفة هذا التوجه أن الإنسان الذي لم يتلق بواسطة الذكر هذه التربية الكافية، سرعان ما تجمح به نفسه، فيستجيب لرعوناتها، يستجيب لعصبيته.. لأنانيته.. لحب انتصاره للذات.. ومن ثم يسخر أنشطته الإسلامية وأنشطته الحركية، وما إلى ذلك، من أجل أن

يفوز هو في هذا السباق، فَيُغَلِّبَ مذهبه على المذاهب الأخرى، وينتصر لاجتهاداته، ويسعى إلى الفوز بالرئاسة على غيره، وربما اتخذ من الإسلام والدعوة إلى الله عز وجل مطية ذلولاً من أجل جمع مال، من أجل زعامة، من أجل قيادة، وما أكثر من يفعلون ذلك.

ومن ثم فإن الذين ينشطون في القيام بأعمال الدعوة إلى الله، والشؤون الحركية التي تتجه إلى السبل التي ينبغي اتخاذها لإقامة المجتمع الإسلامي، بعيداً عن علاج التربية الربانية بالإكثار من ذكر الله عز وجل، سيصطدمون بآفات تقصيهم عن اجتناء ثمرات أعمالهم، كما هو الواقع المرئي في أكثر مجتمعاتنا اليوم، ينشطون وينشطون ثم تنظر، وإذا هم يراوحون في أماكنهم.

ولأضرب المثل بنفسي: عندما اتجه للقيام بعمل إسلامي، كالدعوة إلى الله، كمناقشة السبل الحركية المختلفة من أجل إقامة الدولة الإسلامية أو المجتمع الإسلامي، لابدّ أن أجد بين جوانحي رغبات عارمة، كلها تعود بالفائدة إلى نفسي: أحاول جاهداً أن أنتصر لذاتي، أو لمذهبي أو للجماعة التي أنتمي إليها، أو التي تنتمي إلي!. ذلك أني إنسان نزاع إلى الشهرة.. نزَّاع إلى القيادة.. إلى أن أكون قائداً لا مقوداً.. تواق إلى جمع المال والمدَّخرات.. ومن ثم فما أيسر أن «أتكتك»، وأن أسخر العمل الإسلامي لذلك كله، لكن بدقة ومهارة فائقتين؛ بحيث لا تستبين أهدافي الخفية هذه لأحد من الناس!.

فما الذي يعنيه سلوكي هذا؟.. إنه يعني أنني سخرت عقلي لرعونات نفسي، وسخرته لعصبيتي، لأنانيتي، سواء كانت أنانية فردية، تتمثل في الذات أو أنانية جماعية، تتمثل في الحزب الذي أنا منه وهو مني، ومن ثم فلن أنتصر في هذه الساحة، ولن ينتصر أحد ممن هم على شاكلتي، ستتوازعنا السبل المتعددة، ولسوف تختلف الجماعات وتتسابق إلى تلك الأهداف الخفية، المستورة بغطاء

الدين والعمل الإسلامي، ولسوف تتصيد كلُّ جماعة النقائص والعيوب للجماعات الأخرى، كما هو الواقع المشاهد في ساحات العمل الإسلامي اليوم.

أليست هذه آفةً تستدعي المعالجة؟.. وهل فينا من يقول: إن هذا ليس داء يجب المبادرة إلى اجتثاثه؟..

لابدَّ أن يبدأ كل منا فيعالج هذه الحالة التي لديه، وأن يأخذ نفسه بالوسائل التي تجعله يتسامى بكيانه إلى مستوى الإخلاص لله عز وجل.

فما هو السبيل إلى ذلك؟ ما العلاج الذي ينبغي أن أتخذه حتى أروض جماح نفسي، وأقضي على رعوناتها، وأجعل عصبيتها وأنانيتها خاضعة لأوامر الله وسلطانه، ذائبة في ضرام عبوديتي وحبي لله عز وجل؟

السبيل هو المراقبة الدائمة لله، ولن يتحقق ذلك إلا من خلال كثرة ذكر الله سبحانه وتعالى.. الإكثار من ذكر الله هو العلاج الذي يقلم أظافر الرعونات النفسية، ويقضي على جموحاتها.

ولكن إياكم أن تتصوروا، أنني أعني بذكر الله سبحانه وتعالى فرقعة السبحة في اليد، أو ترديد اللسان لكلمات جعل صاحبه منها ورداً لنفسه كل يوم لا أكثر. أنا أقرُّ بأن الذكر اللساني ذكر، وبأن الإنسان يثاب عليه.. لكنه مجرد فرع لجذع!.. ألا وهو تذكر الله سبحانه وتعالى بالقلب وحضوره في الذهن.

إنني أعني بالذكر ما يعنيه بيان الله سبحانه وتعالى عندما يقول: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. أعني بالذكر يقظة القلب إلى مراقبة الله للعبد، ومن ثم الانتقال إلى مراقبة العبد للرب.. والوصول إلى ربط النعم كلها بالنعم في ملاحظة مستمرة دائمة..

أرأيتم إلى الإنسان ينهض بأعمال الدعوة الإسلامية، ويخوض غمار الأنشطة الحركية لإقامة المجتمع الإسلامي، ولا يكون له نصيب كبير من ذكر الله، بهذا المعنى الذي أقول: هل ينجح؟ هل يجني شيئاً من النتائج؟ هل يمكن للذين ينشطون في هذا الطريق أن يتفقوا ولا يختلفوا؟

لن يتفقوا، ولن ينجحوا.. ذلك لأن جموحات النفس وأهواءها، ومشاعر الأنانية المهتاجة ستتكفل بإثارة الخصومات فيما بينهم، وستباعد سبلهم بعضها عن بعض.

وانظروا إلى سيد الدعاة رسول الله ﷺ، هل شغله أمر الدعوة إلى الله عن ذكر الله في البكور والآصال؟

هل شغلته الدعوة. (وكانت حياته كلها حياة دعوة وجهاد في سبيل الله عز وجل). هل شغله ذلك كله ساعة واحدة عن المثول في محراب مراقبة الله، والتبتل بين يدي الله؟!.. لو انفصل هذا عن ذاك لتقطعت به السبل إلى إقامة المجتمع الإسلامي، وهو رسول الله المؤيد من قبل الله فكيف بغيره؟!..

هذا بالإضافة إلى أنه كان في عمله ذاك مُشَرِّعاً خطط لنعلم.. وسلك لنقتدي به.

إذن؛ ذكر الله سبحانه وتعالى هو الذي يسحق مشاعر الأنانية بين جوانحي، ذكر الله عز وجل هو الذي يذيب حب الدنيا ويخرجها من قلبي، والدنيا ليست مالاً فقط، بل هي أيضاً حب للرئاسة والزعامة، وتنافس على حظوظ الشهرة والأنانية، كل هذا من الدنيا.

ذكر الله عز وجل، أي: تذكر العبد للرب سبحانه هو الذي يذيب من كيان النفس هذه الدنيا كلها.. كيف يذيبها؟ أنا أعلم أن فيكم من يسأل متعجباً: وما هو هذا الأثر السحري لذكر الله عز وجل؟

أقول لكم في الجواب: أنا عندما أراقب الله دائماً، بأن أربط دائماً بين الخلق والخالق، بين الأكوان والمكوِّن، بحيث كلما رأت عيناي صورة من صور المكونات أرى فيها صفات الله سبحانه وتعالى، كلما التفتُّ إلى نعمة من النعم، ذكرتني بالمنعم المتفضل.. أي: عندما أجلس إلى مائدة الطعام، يذكرني الطعام بنعمة الله عز وجل، التي تتمثل في السماء التي تمطر، وفي الأرض التي تنبت، وفي الأنعام التي سخر الله لي لحومها واللبن الذي في ضروعها.. إذا ظمئت وأخذت كأساً من الماء لأشرب، تذكرت الله المنعم وتذكرت نعمته في هذا الماء العذب العجيب الذي يرويني، ويشعرني بنشوة ما مثلها نشوة، عندما يسري الري في عروقي كلها!!.

إذا قمت لأمارس أي عمل من الأعمال، أتذكر نعمة القوة والعافية الآتية من الله عز وجل.

إذا خرجت إلى السوق؛ ورأيت الغادين والرائحين فيه، رأيتني من هذا المظهر أمام مرآة تتجلى فيها صفات الله سبحانه وتعالى.

إذا عدت إلى داري، وتمددت في فراشي، تذكرت نعمة الرقاد، وعظيم فضل الله في ذلك عليَّ، إذا استيقظت من الرقاد، تذكرت عجيب هذه المنة الإلهية عليَّ وهكذا.

فإذا سار المسلم على هذا المنوال، يربط نعم الله كلها بالمنعم، يتذكره بها ويحمده عليها فتلك هي أفضل طريقة لذكر الله عز وجل. وهي الطريقة التي كان يلازمها رسول الله ﷺ، وهي مصدر التربية والتزكية في حياة الإنسان المسلم، ومن ورائها تتحقق النتائج العظمى في حياته.

وإليك بياناً موجزاً لهذه النتائج: يتحول القلب إلى وعاء لمحبة الله، التي لابدّ أن تطرد منه محبة سائر الأغيار. ثم إنه يفيض بتعظيم الله، هيبةً له ومخافةً منه. ومن ثم تتعاظم فيه الثقة بالله وينمو الرضى عن الله.

وعندئذ تذوب أنانيتي في غمار عبوديتي لله، وتتحول آمالي ورغباتي الدنيوية، إلى التعلق برضى الله وعطائه، وتدعوني الثقة بالله إلى الاستسلام لحكمه واليقين بعدله وحكمته.

وعندما يصبح قلبي وعاء لهذه المشاعر، ستكون صلتي بالناس صلة رحمة بهم، لا صلة تأبٍّ عليهم، ومنافسة لهم.. حتى التائهون عن صراط الله عز وجل، أدعوهم إلى الله من خلال رحمتي بهم، ومن خلال شفقتي عليهم، وسأضحي بمصالحي العاجلة وحاجاتي الدنيوية، في سبيل هذا الذي شرفني وأمرني به ربي، لا العكس كما كنت أصنع من قبل.

هذا هو أثر ذكر الله في النفس، وهذا هو معنى معالجة الإنسان نفسه بذكر الله، للتخلص من رعوناتها والتحرر من أهوائها.

ما أعتقد أن فيكم بعد هذا من يجهل هذه الحقيقة، وإن كان فيكم من لا يزال يجهل.. لا يزال يتصور أن هذه وظيفة العوام من الناس، وليس شأن كبار الدعاة إلى الله عز وجل، إذن فقفوا أمام كلام الله، اقرؤوا وصاياه لرسوله وتأملوا فيما يأمره كلما حزبه أمر..، كلما وقف أمام مشكلة في طريق دعوته إلى الله..، يأمره دائماً بالإكثار من ذكر الله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ ـ ٤٠] ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الدهر: ٢٤ ـ ٢٥].

بهذا يوصي الله رسوله في مجال العمل الجهادي والدعوة إلى الله!!..

ومن هو رسول الله؟ إنه ذاك الذي فطر قلبه على ذكره دائماً، وهو الذي كان يقول: «إنه ليغان على صدري فأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[1] ومع ذلك،

---

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي، من حديث الأغرّ المزني.

فإن الله يأمره بأن يستزيد من هذا العلاج الذي كان بالنسبة إليه غذاءه، فما هو تصورك لمدى أهمية هذا العلاج وضرورته بالنسبة إلينا؟

ثم إنه ما من رسول أرسله إلى قوم إلا وكانت فاتحة حديثه لهم الدعوة إلى التزكية، تجدون هذا واضحاً مكرراً في القرآن. وما التزكية؟ إنها تطهير النفس من رعوناتها وأمراضها التي سماها الله تعالى: ﴿بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وأنتم تعلمون أنها أمراض خفية، ما أيسر أن يتجمل صاحبها أمام الناس بنقائضها.

فبم يستطيع الإنسان أن يزكي نفسه ويطهرها من أمراضها الخفية تلك؟ لا علاج لذلك إلا المثابرة على ذكر الله، أي: على تذكره ودوام مراقبته، وهو الدواء الذي وصفه الله كما علمتم لرسوله ﷺ.

إذن فالمهمة الأولى التي يجب على الإنسان أن يأخذ نفسه بها، بعد الإيمان، هي السعي الحثيث إلى تزكية النفس، فإذا زُكِّيتَ وطُهِّرَت من الأدران التي نبَّه إليها بيان الله عز وجل، زالت العقبات كلها، ونجحت أعمال الدعوة وأنشطة الحركات الإسلامية، وبلغ العاملون في الحقل الإسلامي على هذا النهج أهدافهم، ومتَّعهم الله بنعمة الإخلاص لوجهه عز وجل. وسبيلُ التزكيةِ ـ كما قلنا ـ هو الإكثار من ذكر الله.

ومرة أخرى أقول: إنني لا أعني بالإكثار من ذكر الله مجرد حركة اللسان، واستعمال السبحة في تعداد مرات التسبيح أو التهليل أو الاستغفار، بل أعني بالذكر الغاية التي يجب أن يصل إليها الذاكر بذكر اللسان وضبط مرات التسبيح ونحوه. إنه تَذَكُّرُ القلب للرب!.. ومراقبته في سائر الأحوال والتقلبات.

ولا يشترط لأخذ المسلم نفسه بهذا العلاج القدسي على طريق تزكية النفس، أن يسلك على يد شيخ من شيوخ الطرق الصوفية، لا سَيَّما في هذا العصر الذي كثر فيه محترفو وظائف الإرشاد والطرق الصوفية، ابتغاء الحصول

على مغانمهم الدنيوية، وقلَّ فيه أولئك الذين كانوا يترفعون فوق مغانم الدنيا كلها، بحثاً عن مرضاة الله.. أولئك الذين إذا رأيتهم جذبتك إلى الله أحوالهم الصامتة قبل أن يتوجهوا إليك بنصائحهم القولية.

بل أيسر وأقصر طريق إلى ذلك، أن تتخذ من رسول الله ﷺ مرشداً، فتنهج منهجه في ذكر الله ومراقبته، وبكلمة مختصرة جامعة: كان منهجه ربط النعم دائماً بالمنعم، والحذر الدائم من أن يسكر بالنعم عن المنعم.

وانظر إلى هذه النماذج من عمله ﷺ في ربط النعم بالمنعم، ثم قس على ذلك بقية النعم التي لا يضبطها الحصر:

كان إذا تمدد على فراشه ليستقبل نعمة الرقاد، ذكر فضل الله عليه في ذلك وناجى الله قائلاً: «اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وألجأت ظهري إليك وفوضت أمري إليك، لا ملجأ ولا مَنْجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت، اللهم إن أمسكت روحي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

فإذا استيقظ واستقبل نعمة اليقظة بعد الرقاد، ذكر فضل الله عليه في ذلك قائلاً: «الحمد لله الذي أحياني بعدما أماتني وإليه النشور».

فإذا دخل الخلاء ذكر هذه النعمة الجليلة الأخرى، والتي تتمثل في تطهير الجسم من سمومه وآفاته فقال عند الخروج: «غفرانك غفرانك، الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني».

وإذا وقف بعد ذلك يتوضأ أو يغسل يديه بالماء، تَذَكَّرَ هذه النعمة العجيبة الأخرى، نعمة الماء، هذه النعمة التي لو قطعها الله عنا ثمانياً وأربعين ساعة لاستحال أحدنا إلى كتلة عفونة ولاشمأز من ذاته، فيقول عليه الصلاة والسلام شاكراً مثنياً على الله عز وجل: «الحمد لله الذي جعل الماء طهوراً والإسلام

نوراً، اللهم إني أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون».

فإذا جلس إلى مائدة الطعام انتقل إلى التأمل في هذه النعمة الأخرى، هذه الأطعمة كلها مهما كثرت وتنوعت هي حصيلة سماء أمطرت، وأرض أنبتت، وأنعام سخر الله لنا ألبانها ولحومها.. يجلس رسول الله إلى الطعام جلسة العبد إذ يستقبل نعمة ربه، مُسَمِّياً ثم قائلاً: «اللهم بارك لي فيه وزد لي منه» وربما أكثر من هذا الدعاء بعد شربه اللبن فإذا شعر بنعمة الشبع بعد الجوع، عاد فشكر الله قائلاً: «الحمد لله الذي أطعمني وسقاني وسوّغه، وجعل له مخرجاً من غير حول مني ولا قوة».

وإذا لبس ثيابه واتخذ أهبته للخروج إلى عمله، تَذَكَّرَ نعمة الكسوة والكساء، وحمد الله قائلاً: «الحمد لله الذي ألبسني هذا وجعلني من المؤمنين».. فإذا خرج من داره معافى نشيطاً صحيح البدن، عاد إلى حمد الله وشكره وقال: «اللهم إني ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا رئاء الناس، اللهم إني أعوذ بك أن أذِل أو أُذلّ، أو أظلم أو أُظلم، أو أكذب أو أُكذب، أو أهون أو يهان عليّ».

هذا الربط الذي كان يثابر عليه رسول الله ﷺ بين النعمة والمنعم جل جلاله، سيد أنواع الذكر، وإذا اقتدى المسلم برسول الله ﷺ في ذلك، فثابر عليه كما كان يثابر، يفيض قلبه حباً لله وتعظيماً ومهابة له، ويتقلص عنه سلطان الشواغل الدنيوية والأهواء النفسية، وهو السلّم الذي يرقى به إلى ما يسمى بوحدة الشهود، وهي الحال التي تصبح فيها المكونات كلها بالنسبة إليه مرايا؛ تتجلى عليها صفات الله تعالى وآلاؤه، بعد أن كانت حجاباً بينه وبين الله عز وجل.



يُغَالِطُونَكَ إِذْ يَقُولُونَ:

# مَجَالِسُ ٱلذِّكْرِ

## تَوَرُّطٌ فِي ٱلْبِدْعَةِ وَمَلْهَاةٌ عَنِ ٱلْعَمَلِ ٱلْإِسْلَامِيِّ -٢-

ونزيد في بيان أهمية ذكر الله في حياة الإنسان فنقول:

كما أن لربط النعم بالمنعم دوراً في إحياء القلب بذكر الله، فإن للمصائب التي قد يتعرض لها الإنسان دوراً أيضاً في شدِّ الإنسان إلى ذكر الله عز وجل..

أما دور النعم فهي ـ كما قلنا ـ تنبه إلى المنعم بالشكر والحمد والحب، وأما المصائب فمن شأنها أن توقظ القلب إلى الله، للالتجاء إليه وللفرار من آلامها وآثارها، إليه.. وهكذا فإن الإنسان في كل أحواله أمام فرص تشده إلى الله وتذكره به.. إذ هو دائماً بين إحدى حالتين: نعمة تستوجب أن يتذكر بها الله شاكراً حامداً، أو مصيبة تستوجب أن يتذكر بها الله تعالى لائذاً ومستغيثاً به من شرها.

فكيف يستهين المسلم بعد هذا بذكر الله عز وجل؟.. وكيف يمكن أن يكون مؤمناً حقاً، دون أن يجعل لنفسه ورداً دائماً من التنعم بذكر الله عز وجل؟.. بل كيف يتأتى له أن يسمع هذا الكلام الحلو الذي يخاطبه الله به، ثم يعرض عن ذكره: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١] ألا ترى إلى هذه المقابلة الأخاذة: «أذكروني أذكركم»؟!.. أي: اذكروني بالدينونة بالعبودية والشكر لي والالتجاء إليّ أذكركم بالرحمة وبمزيد من الإنعام والعطاء والحماية من البلاء..

بل كيف يستهين المسلم بذكر الله بعد أن سمع الحديث القدسي المتفق عليه: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه»؟!..

أعتقد أن لا داعي إلى أن أطيل بعرض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي تهيب بالمسلم أن يكثر من ذكر الله عز وجل، فهي معروفة، وما من مسلم صادق في إسلامه إلا وقد مرّ بها أو وقف عليها. وإنما المطلوب أن نتحرر من هذا التصور، الذي يهيمن على أفكار كثير ممن يتوهمون ويوهمون أن مجالس الذكر شأن العوام من الناس الذين يقبعون في المساجد.. أما العاملون في الحقل الإسلامي فهم منصرفون عن ذلك إلى ما هو أهم وأجل، وهو أعمال الدعوة، والأنشطة الإسلامية الحركية من لقاءات وندوات وكتابات واجتماعات.. الخ.

وأقول: إن هذا كله رائع وعظيم ومفيد، لكنه كالنبات الذي إن انفصل عن جذوره، ذبل ثم مات، وتحول إلى هشيم.

بقي أن أقول شيئاً آخر: الإنسان ثلاثي التركيب، مركب من ثلاثة عناصر: الروحِ، الغريزةِ؛ أي: النفس الغريزية، التي تشكل جامعاً مشتركاً بين الإنسان والحيوانات والجمادات، وهذا القفصِ الجسدي الذي يشكل هيكل الإنسان.

ومن الثابت يقيناً أن الروح أقدس هذه العناصر الثلاثة.. ومن الثابت يقيناً أن الروح الإنسانية تختلف عن أرواح البهائم والأحياء الأخرى. وحسبك من قدسيتها أن الله قد نسبها إلى ذاته العلية إذ قال حاكياً لنا خطابه للملائكة: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢] نسب الحق عز وجل الروح التي تخفق بين جوانح الإنسان إلى ذاته العلية؛ وهي نسبة تكريم وتفضيل وتمييز.

إذن فالروح التي نتمتع بها هابطة إلينا من الملأ الأعلى، تعاني في هذا القفص الجسدي من غربة ما مثلها غربة، ومن ثم فهي تظل في حنين دائم إلى العالم العلوي الذي أهبطت منه، بل هي تعاني من شوق دائم إلى بارئها الذي تنتمي وتنتسب إليه.

وقد عبر أبو علي ابن سينا عن هذه الحقيقة أجمل تعبير في قصيدته المعروفة التي يتحدث فيها عن الروح قائلاً:

هبطت إليك من المَحَلِّ الأرفع ... ورقاءُ ذاتُ تدلُّلٍ وتمنُّعِ
محجوبةٌ عن كلِّ مقلةِ عارفٍ ... وهي التي سَفَرَت ولم تتبرقعِ
وصلَت على كُرهٍ إليكَ وربَّما ... كرهَت فِرَاقك وهي ذات تفجُّعِ
أنِفَت وما أَلِفَت فلمَّا واصلَت ... ألفَت مجاورةَ الخَرَابِ البَلقَعِ
وأظنُّها نسيَت عُهوداً بالحِمى ... ومنازِلاً بفِراقها لم تقنَعِ
حتى إذا اتَّصلت بهاءِ هُبُوطِها ... عن ميم مركزِها بذاتِ الأجرَعِ
علِقَت بها ثاءُ الثَّقيلِ فأصبَحَت ... بين المَعالِمِ والطُّلوعِ الخُضَّعِ
تبكي وقد ذَكَرَت عهوداً بالحمى ... بمَدَامعٍ تهمي ولمَّا تُقلِعِ
حتى إذا قَرُبَ الرُّجوعُ إلى الحمى ... ودنا الرَّحيلُ إلى الفضاءِ الأوسعِ
أخذَت تغرِّد فوقَ ذِروةِ شاهِقٍ ... والعلمُ يرفَعُ كلَّ من لم يَرفَعِ
قد كان أَهبَطَها الإلهُ لحِكمَةٍ ... خَفِيَت عن الفَطِنِ اللَّبيبِ الأَلمَعِ
فكأنها برقٌ تألَّقَ في الدُّجى ... ثم انطفا فكأنَّهُ لم يلمَعِ

وهذا يعني أن روح الإنسان إنما تهفو إلى محبوب وجميل واحد؛ هو الله عز وجل، ذلك لأن نَسَبَ ما بينها وبين الله قائم ومستمر، وهيهات أن نعلم لذلك أي كيفية أو تحليل.

ولكن الذي يحجب الإنسان عن مشاعر الروح والعالم العلوي الذي تحنُّ إليه، هو النفسُ الغريزية التي تظل نزاعةً إلى رعوناتها، باحثة عن شهواتها وأهوائها في عالمها الأرضي الذي تركن إليه.

ومن شأن هذه النفس أن لم تتلقَّ التربية الكافية، أن تصادر أشواق الروح وحنينها إلى العالم العلوي الذي أُهبِطَت منه، وأن تترجمها لحسابها، فالروح

تبحث عن الجمال الخالد، ولكن النفس الحيوانية تقف بها على صور الجمال الدنيوي الفاني، وتسدّ الطريق المتجه بها صعداً إلى سدة الجمال العلوي.

والروح تبحث عن المحسن الأوحد الذي لا ثاني له، ولكن الأهواء النفسية تضعها أمام صور وأشكال للمحسنين الزائفين..

والروح تبحث عن العظيم الأوحد، الذي ما زالت تعرفه منذ العهد القديم، ولكن النفس الأمارة تصادر مشاعر الروح، وتضعها أمام هياكل للعظماء الزائفين.

ولابد أن يقوم من جراء هذا صراع بين الروح النزاعة إلى العالم العلوي، والنفس الهابطة إلى العالم الترابي، فإن لم تصادف النفس تربية تلاحقها بالتزكية المطلوبة، فلابد أن تتغلب النفس على الروح في هذا الصراع. ومن آثار هذا التغلُّب أن الإنسان لا يشعر بشيء من تطلعات الروح وأشواقها، وإنما يشعر بما تمليه عليه النفس من رعوناتها وأهوائها، فتراه مأخوذاً بالصور والأشكال متوهماً أن إليها حنين روحه، مع أن الروح مغلوبٌ على أمرها، ضائع صوتها وسط ضجيج الأهواء والرعونات النفسية، وأشواقها الأرضية الهابطة.

ولكن إن استطاع هذا الإنسان لحسن الحظ، أن يتعرف على هذا الدواء ويثابر على استعماله، وهو الإكثار من مراقبة الله عز وجل وذكره، فإنه يكون انتعاشاً بذكر الله، وتتراجع ضراوة النفس ويخمد مع الزمن أوراها، فتتغلب الروح أخيراً في حلبة هذا الصراع، وتتحرر من أسر النفس التي كانت تحبسها عند صور الجمال الزائف الفاني، وعالم الأسباب الوهمية التي تحجب عن رؤية مسبب الأسباب.

فتتجاوز الروح بصاحبها صور الجمال الزائف لتنتهي به إلى معين الجمال، إلى الجميل الأوحد وهو الله، حيث يمنحه هناك كامل حبه، وصادق حنينه

وشوقه.. وتتجاوز به صور المحسنين فيما كان يتوهم، لتوصله إلى المحسن الحقيقي الأوحد ألا وهو الله عز وجل، فيمنحه وحده ولاءه وتعظيمه.

وهكذا تنقطع علاقة هذا الإنسان بالمخلوقات لترتبط بالخالق وحده، ويؤول حاله إلى مثل ما قال ذلك العالم الرباني الذي تجاوزت به روحه (عن طريق هذا العلاج) إلى سدة هذا العرفان، بل سدّة هذا الشهود:

كانت لنفسي أهواءٌ مفَرَّقةٌ فاستجمعتْ مذَ رأتكَ العينُ أهوائي
فصار يحسُدُني من كنتُ أَحسُدُهُ وصرتُ مولى الورى مُذ صرتَ مولائي
تركتُ للنَّاسِ دنياهم وشأنهمُ شغلاً بذكركَ يا ديني ودنيائي

وإنما وصل إلى هذا المقام بعد رحلة طويلة شاقة عانى منها، كما يقول عن نفسه، كان رأس ماله خلالها تربية النفس، وكانت سبيله إلى هذه التربية: الإكثار من ذكر الله عز وجل. ومع الاستمرار والدوام انتشله هذا الذكر من وهدة الرعونات النفسية وسما به عن أوضارها، فأتيح لروحه أن تتجه صعداً، وأن تمرَّ بصور الجمال ومواقف المحسنين والعظماء دون أن تقف عندها. إذ كانت تدرك أنها ليست إلا مرايا تنعكس عليها أشعة الشمس المستقرة في كبد السماء، وأن عليها أن تعرض عن المرآة والصورة التي فيها، وتتجه إلى الشمس المتلألئة ذاتها..

فلما وصلت الروح بصاحبها إلى المعين.. معين الجمال والعظمة والإحسان، وشاهد عندئذ بعين بصيرته الله عز وجل، وقف يشدو عندئذ في نشوة بالغة هذه الأبيات، يذكر فيها ماضيه عندما كان قلبه أوزاعاً تتوازعه محبة الأغيار، تائهاً بين الجداول والسواقي، ثم تجاوز ذلك كله ليصل إلى المعين والمصدر، وإلى صاحب الفضل والمنة في كل شيء، ألا وهو الله عز وجل.

وعندما يأخذ الداعي إلى الله نفسه بهذا المنهاج الذي هو غذاء للروح ودواء للنفس، ينجح في دعوته وجهاده، ويتلاقى عمله مع الدعاة الآخرين من أمثاله على طريق واحد، وتتساقط مما بينه وبينهم محبة الحظوظ ودوافع التنافس عليها، وتتجه المشاعر منهم إلى الطمع في مرضاة الله وحده.

ثم إن الله يخلق في كلام هؤلاء الدعاة قبساً من التأثير يسري إلى قلوب الناس كلهم، باستثناء المستكبرين على الله عز وجل.

فإذا كان هذا هو أثر ذكر الله عز وجل في حياة المسلمين عامة، والمشتغلين بشؤون الدعوة الإسلامية خاصة، فكيف يستجيز أناس منهم لأنفسهم هذا الاستخفاف العجيب بذكر الله، بل كيف يتأتى لهم أن يعرضوا عن هذا الواجب الذي جعل الله منه غذاء ودواء للمسلم بآن واحد؟!..

أخيراً، بقي أن أوضح لكم شيئاً، هل يتوقف أخذُ الإنسان نفسَهُ بذكر الله على أن يكون متمسكاً بإحدى طرق التصوف؟ أي: هل يعني هذا أن يكون الذاكر صوفي النزعة، بالمعنى الذي قد يفهمه بعض الناس اليوم.

لا أيها الإخوة؛ إنني أتكلم الآن عن الجامع المشترك.. أنا أعزف من حديثي هذا على وتر لا خلاف فيه.. دعك من هذه المصطلحات التي يتيه الناس في جنباتها بين موافق ومخالف، أنا أتحدث عن الجذع، الواحد والموحد.

المسلم أياً كان اجتهاده أو اتجهت نزعته أما ينبغي أن يكون ذاكراً لله عز وجل؟.

والجواب الذي لا اختلاف فيه: نعم، لا يكون الإنسان مسلماً حقاً إلا إذا كان كثير الذكر لله، ذلك أنه لن يرقى من درجة الإسلام إلى الإيمان الحقيقي إلا إن كان محباً لله، وصدق الله القائل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] إن

كنت مشغولاً ومحجوباً عنه بنعمه؟.. كيف أحبه إن كنت مشغولاً عنه بشهوات نفسي؟...

والحب، كيف ينمو ويزدهر في النفس ويأخذ بمجامع القلب؟.. إنه ينمو ويزدهر بدوام تذكر المحبوب وتذكر مزاياه ومننه وصفاته...

وقد أمرنا الله عز وجل بأن نسلك هذا الطريق الموصل إلى حبه، ثم علمنا رسول الله ﷺ بسلوكه الطريقة المثلى لممارسة هذا الذكر وأخذ النفس به، كما قد رأينا قبل قليل.

فهل يحتاج المسلم بعد هذا إلى طريقة أخرى يبصره بها معلِّم آخر أو مسلِّك آخر من دون رسول الله؟

ولقد بلغني أن في الناس الذين يعُدُّون أنفسهم مرشدين، من يمنعون الناس عن الاقتداء برسول الله في الأذكار التي كان يأخذ نفسه بها ويوصي بها أصحابه، حتى يأذن هو لهم بممارستها!..

فهل يعدُّ هذا نسخاً لتعليمات رسول الله أم تصحيحاً لأوامره ووصاياه؟!.. وليت شعري من هو الذي تلقى بعد رسول الله ﷺ من الوحي الإلهي ما يبرر له ذلك؟!..

على أني لا أزعم أن المسلم لا يحتاج إلى مرشدٍ مُخلصٍ ناصحٍ يسلِّكه في الطريق السليمة الموصلة إلى رضوان الله عز وجل. بل إنني لعلى يقين بأن هذه الحاجة قائمة، ولا أشك أن للمرشدين دوراً كبيراً في هداية التائهين وتقويم المنحرفين.

ولكن لكل شيء آفة، وآفة الإرشاد أن يتحوَّلَ المرشِدُ من عمله إلى حرفة، يستدرُّ بها الرزق، ويبتغي بها الشهرة، ويستثمر منها التوقير والتعظيم.

وهذا ما قد آل إليه الإرشاد بالنسبة لأكثر من يسمون: مرشدين.

المرشد إنسان رباني النزعة، قد فرَّغَ قلبه من محبة الدنيا بكل مظاهرها، فاستوى عندهُ إقبالها وإدبارها، وهانت عليه نفسه فاستوى عنده المدح والقدح، منضبط بأحكام الشرع وقيوده من منطلق دراية وعلم، لا بدعوى حديث القلب وإلهام النفس!!..

يرى نفسه موغلة في العصيان والتقصير، ولكن الله أقامه في وظيفة النصح والإرشاد، فعليه أن ينهض بالوظيفة التي كُلِّفَ بها.

فإذا عثرت على المرشد الذي تجمعت فيه هذه الصفات، فتمسك به واشدد بيمينك عليه، فهو خير دال على الله عز وجل، وإنه لقطع نادر في هذا العصر.

ولكن أين هو هذا المرشد الذي يتميز بهذه الصفات؟ وفي أي صقع من أصقاع العالم الإسلامي يوجد واحد تلاقت فيه هذه المزايا؟

إن جلَّ الذين ينادون ويدللون اليوم على أنفسهم باسم الإرشاد، حرفيون مرتزقة يتقنون فنَّ الدعاية والدعوة لأنفسهم، بدعوى الخوارق والكرامات، وعلوِّ المرتبة والدرجات، ويسلكون مريديهم وتلامذتهم في أصول التبجيل والتقديس لهم، أكثر مما ينبهونهم إلى عبادة الله، وإفراده بالتعظيم والتقديس، ووحدانية الذات والصفات.

وعندما يعزُّ المرشد الصادق، فالسبيل كما قال العلماء الربانيون: أن تتخذ لنفسك أخاً نصوحاً صالحاً تتعاونان في السير على صراط الله، والوقوف عند حدوده، وأن تجعل من اتباعك لرسول الله ﷺ عوضاً عن المرشد الصادق الذي لم تتمكن من العثور عليه.



يُغَالِطُونَكَ إِذْ يَقُولُونَ :

# رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ
# إِنَّمَا كَانَتْ ثَوْرَةً عَرَبِيَّةً وَلَمْ تَكُنْ وَحْيًا إِلَهِيًّا

وهذه مقولة أخرى، يقول بعضهم: إن رسالة محمد ﷺ إنما كانت ثورة عربية، ولم تكن وحياً ربانياً، وأعتقد أن فيكم كثيرين سمعوها، من أناس ينزعون إلى أفكار قومية، أو يسارية.

ومن المعروف أن الفريقين يلتقيان على هذه الأطروحة: أن بعثة الرسول ﷺ كانت ثورة عربية، انعكست من أفكار العرب ومشاعرهم الثورية، إلى شخص رسول الله ﷺ.

نحن كعادتنا في مناقشة المقولات التي وقفنا عندها وناقشناها لا نستعجل في نسبة هذه المقولة إلى خطأ، أو إلى مغالطة، بل نضعها بادئ ذي بدء، كما صنعنا من قبل، تحت مجهر النظر والبحث، مفترضين أنها قد تكون خاضعة لمنهج العلم والمعرفة، ومن ثم تكون متفقة مع المنطق، وفي هذه الحال لن يمنعنا شيء من الأخذ بها.

أما إن تبين لنا أنها مقولة شاردة عن ضوابط العلم، بعيدة عن مقاييس المنطق، وواقع التاريخ، فلابد أن نقف منها موقفاً سلبياً، ولابد أن نصنفها في قائمة المغالطات التي يجب أن نحذر منها، وأن نشطب عليها.

رسالة محمد ﷺ كانت ثورة عربية!!.

هذا يعني أن الثورة التي عبر عنها رسول الله ﷺ بدعوته إذن، كانت موجودة في أذهان العرب في مكة، وكانت تطوف حلماً برؤوسهم، وكانوا جميعاً ينتظرون الفرصة السانحة لكي يقوموا بها.

وعندما نجد أن شخصاً كمحمد ﷺ هو المعبر عن الأفكار، التي كانت

تجيش في نفوس العرب من أهل مكة، وعن القفزة الحضارية التي كانوا يطمحون إليها، ويحلمون بها، إذن يجب أن ننظر فنجد العرب الذين كانوا من حوله في مكة جنوداً أوفياء له، يصفِّقون لدعوته، ويقدمون له في سبيلها كل عون. ذلك أن دعوته ليست إلا صدى للأفكار التي كانت تجيش بها نفوسهم وتحلم بها أفكارهم.

هذا كلام منطقي، ليس في العقلاء من يجادل فيه.. عندما تكون رسالة محمد ﷺ تعبيراً عن الثورة التي تهتاج في نفوس أهل مكة، إذن ينبغي أن يزدادوا تعلقاً به، والتفافاً من حوله، بل المفروض أن يقولوا له بفم رجل واحد: هذه هي الرسالة التي ننهض بها، وهذه هي القفزة الحضارية التي كنا ننتظر من يقودنا إليها. أليس كذلك؟..

فهل فعل المشركون هذا؟.. بل كيف كان موقفهم من هذه الرسالة، التي يأتي من يزعم فينا اليوم فيقول: إنها ثورة عربية عبرت عما تجيش به أفئدة العرب المشركين من أهل مكة؟؟

الواقع الذي تعرفونه جميعاً، أن محمداً ﷺ الذي كان يسمى: الأمين في مكة، والذي كان مضرب المثل في الوفاء عند أهلها، وكانت العرب كلهم من أهل مكة تحبه وتقدره، ما إن أعلن عن رسالته هذه وطلع بها عليهم يدعوهم إليها، حتى تحولوا عن محبته إلى أقصى حدود المعاداة له، والتنكر لمزاياه التي أحبوه من أجلها، وكلكم يعلم هذه الحقيقة.

وتعالوا أضعكم أمام مشهد معروف من مشاهد سيرة النبي ﷺ عندما أمره الله بأن يصدع بالدعوة بعد مرور ثلاث سنوات من دعوته سراً، وأنزل عليه قوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] خرج لينفذ كلام الله، وصعد على رابية الصفا، وأخذ ينادي بطون المشركين من أهل

مكة بطناً بطناً، فجعل الرجل يسرع في الاستجابة لهذا النداء!.. وجعل الرجل إن لم يستطيع أن يستجيب، أرسل رسولاً، ذلك لأن أمين القوم يدعوهم إلى شيء ولابد أنه شيء هام وخطير.

فلما أحدق الناس به من كل جهة وصوب، قال لهم: «أرأيتم لو أني أخبرتكم أن عدواً في بطن هذا الوادي، يريد أن يغير عليكم، أفكنتم مصدقي»؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً، قال: «فأنا نذير لكم بين يدي عذاب شديد. والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ووالله إنها لجنة أبداً أو لنار أبداً». فماذا كانت ردة الفعل عند أولئك الذين أحدقوا به من أهل مكة؟! فوجئوا منه بشيء (تافه) لم يكونوا يتوقعونه، وأمطروه بوابل من السخرية، وقال له أبو لهب، وقد أعرض عنه مستخفّاً بكلامه: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟!..

أفهكذا يستقبل مشركو مكة الرسالة التي كانت صدى لأفكارهم، وترجمة للثورة التي تجيش بها نفوسهم؟!..

ولقد أخذت البغضاء تزداد في نفوسهم عليه، كلما ازداد إمعاناً في دعوته واهتماماً برسالته، لا سيما عندما نزل عليه قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤] فقد رأوا في هذا الكلام ما جرح كرامتهم واتهمهم بالسفاهة وضحالة الرأي، فاشتدت بذلك عدواتهم لرسول الله ﷺ وأطبق عليه الأذى منهم.

إذن، فهذا الواقع يتناقض مناقضة حادة مع تصور هؤلاء الناس.

نحن ـ كما تعلمون ـ نسير في معالجة هذه القضايا بأسلوب حواري، ومن ثم لابد أن نفترض أن الطرف الآخر يمكن أن يعترض قائلاً:

ولكن ألا تلاحظ أن المشركين من أهل مكة كانوا يتبرمون قبيل بعثة رسول الله ﷺ، بعبادة الأوثان ويعبرون في المناسبات عن استخفافهم بها ورغبتهم في الوصول إلى بديل عنها.

ألم تسمع إلى شاعرهم يقول:

أربٌ يبول الثعبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ألم تسمع إلى كلمات أمثال: قُسّ بن ساعدة الإيادي ورئاب الشني، الذين كانوا يؤكدون فيها وحدانية الله واستغناءه عن الشريك والمعين؟!. ألم يكن يطوف هذا كله بأذهان كثير من أهل مكة عندما ظهرت دعوة رسول الله ﷺ إلى المبدأ ذاته؟.. أليس في ذلك ما يدل على أن دعوة محمد ﷺ لم تكن إلا مظهراً لهذا التطور ونتيجة لهذا التيار؟

وأقول في الجواب:

نعم، كانت هناك كلمات تتبرم بعبادة الأوثان، وتسخر منها، لكن تعالوا ندرس واقع مكة أو الجزيرة العربية قبل ثلاثمائة عام ونيف من بعثة رسول الله ﷺ، إلى اليوم الذي بعث فيه، وتعالوا ننظر إلى الخط البياني الذي يرسم لنا مدى إقبال العرب على عبادة الأوثان صعوداً وهبوطاً خلال هذه الفترة، إذن سنجد أن التاريخ ينطق بما يلي:

إلى ما قبل بعثة رسول الله ﷺ بأربعة قرون تقريباً لم يكن أهل مكة يعرفون أوثاناً، ولم يكونوا يزعمون لله أي شريك.

ظهر في تلك الفترة رجل في مكة اسمه «عمرو بن لحي» وهو جد قبيلة خزاعة، سافر إلى بلاد الشام في شأن له، وكانت الشام إذ ذاك مستعمرة رومانية، والرومان وثنيون كما هو معروف، فرأى عندهم تماثيل متنوعة كثيرة يدينون لها بالعبادة والتقديس. سألهم متعجباً: ما هذه؟ قالوا: هي آلهتنا،

نستمطرها فتمطرنا، ونسترزقها فترزقنا، ونسألها فتعطينا!.. وصدَّقَ الرجل الأمي الجاهل ما يقولون، فقال لهم: أفلا تعطوني منها واحداً أعود به إلى قومي؟.. فعاد بواحد منها إلى مكة، وكأنه يحمل ـ في وهمه ـ أثمن هدية إلى أهلها. ولما سألوه عنه، قال لهم: هذا إله الرومان، يسألونه فيعطيهم ويسترزقونه فيرزقهم، ووضعه لهم قبالة الكعبة.

ولقد ساعدهم جهلهم وتخلفهم على تصديق هذه الخرافة، وعلى أن يتوهموا أن هذا الصنم وأمثاله هو سبب قوة الرومان وعظمتهم وغناهم.

فراحوا ينحتون لأنفسهم نماذج عنه، وأخذوا يتجهون إليها بالعبادة، ومنذ ذلك الحين دخلت عبادة الأصنام مكة كما يقول الكلبي في كتابه: «الأصنام» وأخذت الأصنام تتكاثر مع مرور الزمن حول الكعبة، حتى أصبح عددها عند بعثة رسول الله ﷺ ثلاثمائة وستين صنماً، وغدت عبادتها هي الدين المنتشر الغالب في مكة، وآلت عقيدة التوحيد إلى التقلص والابتعاد شيئاً فشيئاً عن المجتمع المكي، وعن قناعات الناس وأذهانهم.

فما الذي ندركه من هذه الحقيقة التاريخية؟

ندرك أن الخط البياني لعبادة الأصنام، كان في تصاعد مستمر مع دنوٍّ بعثة رسول الله ﷺ، في حين أن تيار التوحيد الذي توارثه أهل مكة من عهد أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم، كان بالمقابل في تراجع مستمر.. والأصنام التي بلغ عددها مع بعثة رسول الله عدد أيام السنة كانت تجسيداً للخط البياني الصاعد، وبقايا الكلمات التي تتضمن الحنين إلى التوحيد، والاشمئزاز من الأصنام وعبادتها، كانت تجسيداً للتيار الحنيفي المتراجع.. فإذا عثرنا على بقايا من هذه الكلمات، على ألسن قلة يسيرة جداً من رجال مكة والمعمرين فيها، فهي ليست إلا كبقايا جمر من نار خامدة عثرت على بصيص لها بين الرماد.

أي إننا لو رجعنا إلى ما قبل بعثة رسول الله ﷺ بخمسين عام، لرأينا أن صلة الناس بالتوحيد كانت أقوى، وأن الإقبال على عبادة الأصنام كانت أقل، ولو رجعنا إلى ما قبل مائة عام، لرأينا أن نزعة التوحيد تساوي ربما بدعة الشرك والتوجه إلى عبادة الأصنام، ولو رجعنا إلى ما قبل مائتي عام، لرأينا أن هذه البدعة كانت غريبة، وأن التوحيد هو العقيدة السائدة.

فلو أن بعثة محمد ﷺ كانت انعكاساً لاشمئزاز العرب من عبادة الأوثان، وأثراً لتطلُّعهم إلى التوحيد، لكان ينبغي أن تكون بعثته قبل ثلاثمائة عام، لأن العرب في مكة آنذاك كانوا لا يبغون عن التوحيد بديلاً، ولم تكن بدعة الأصنام وعبادتها قد انتشرت فيما بينهم بعد، أو استحوذت عليهم، فلماذا لم يظهر محمد ﷺ بدعوته، في ذلك الوقت، ما دام أن ظهوره بتلك الدعوة لم يكن إلا صدى وأثراً لأفكارهم وتوجهاتهم؟!..

لو كان ظهور محمد ﷺ بدعوته التي قام بها، صدى لتوجه العرب في مكة، وترجمة لأفكارهم، إذن فقد كان ينبغي أن تكون دعوتهم متجهةً إلى الشرك الذي يدعمه ثلاثمائة وستون صنماً غرست بأيدي المشركين حول الكعبة، لا إلى التوحيد الذي تراجع حتى كاد أن يختفي، والذي أصبح أثراً لتاريخ أدبر.

وهذه حقيقة بدهية ليس في الناس من يجهلها.

ومع ذلك، تعالوا نزد هذه الحقيقة الواضحة إيضاحاً وتأكيداً. تقول مصادر السيرة النبوية كلها: إن مشركي مكة لمّا يئسوا من جدوى إيذائهم لرسول الله وأصحابه اتفقوا فيما بينهم على أن يفاوضوه، اعتماداً على تقديرهم السابق له وثقتهم به، ويقينهم بأمانته، في أن يتخلى عن هذا الذي يدعوهم إليه، على أن يستجيبوا ـ من دون ذلك ـ لكل ما يرغب فيه ويدعوهم إليه.

وأرسلوا في ذلك إليه شيخاً كبيراً وقوراً، ذا مكانة فيما بينهم اسمه عتبة بن

ربيعة، فلما دخل عليه قال له: يا ابن أخي إنك قد جئت قومك بما لا عهد لهم به من قبل، ولقد سفهت في ذلك أحلامهم وسببت آباءهم وآلهتهم، وإني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل واحداً منها.

فقال له رسول الله: قل يا أبا الوليد أسمع.

فقال له عتبة: إن كنت جئت بما جئتنا به تبغي ملكاً ملكناك علينا حتى لا نقطع دونك بأمر، وإن كنت تبغي مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنانا، وإن كنت تريد نساء زوجناك من أجمل أبكارنا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئيّاً من الجن دعونا لك الطب حتى تشفى مما بك.

فقال له رسول الله: أفرغت يا أبا الوليد؟

قال: نعم.

قال: فاسمع ما أقول لك، وتلا عليه صدراً من سورة فصِّلت، إلى أن وصل إلى قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] فانقض عتبة على رسول الله وأمسك بفيه قائلاً: «ناشدتك الرحم أن تصمت.. » قال له رسول الله: «فهو ذاك، ليس عندي غير هذا الذي قلته لك».

وعاد عتبة إلى قومه متأثراً وقال لهم: يا قوم، خلوا بين هذا الرجل وشأنه، فإن يصبه غيركم فقد كفيتموه، وأن يظهر فإن عزه عزكم.

فقالوا له: سحرك يا أبا الوليد بكلامه، ولم يقبلوا بالرأي الذي ارتآه، وأرسلوا إليه يحاولون معه الكرّة، فقال لهم كلمته المشهورة: «ما جئتكم بما جئتكم به أبغي مالكم ولا الشرف فيكم ولا السؤدد عليكم، ولكن الله جعلني رسولاً وأنزل عليَّ كتاباً فبلغتكموه، فإن تؤمنوا فذلك حظي منكم وذلك حظكم مني، وإن ترفضوا أصبر لحكم الله، حتى يقضي بيني وبينكم».

أفهذا موقف من يرون أن دعوة رسول الله ﷺ جاءت استجابة لرغباتهم

وتحقيقاً لأحلامهم؟!.. إذن فقد كانوا يحاربون في شخص رسول الله ﷺ أنفسهم ويخاصمون أفكارهم!..

ولعلكم تلاحظون الآن الحكمة الإلهية من أن تأتي الاستجابة لدعوة رسول الله من بلدة بعيدة عن مكة حيث نشأ رسول الله ﷺ، وحيث قومه الذين يقول القوميون اليوم: إنهم كانوا مصدر إلهامه وأساس دعوته.

لقد شاء الله عز وجل أن يرينا كيف أن قومه هؤلاء كانوا أول الناس عداوة له، وكيف قرروا أخيراً قتله والتخلص منه، حتى اضطر إلى ترك وطنه والابتعاد عن قومه، والهجرة إلى حيث يجد لحديثه سامعاً ولدعوته مجيباً.

على أن جميع الذين اتبعوا رسول الله مهاجرين إلى مكة، كانوا من المستضعفين والفقراء والأرقاء.

إذن فنسيج الحياة النبوية في مكة من أولها إلى آخرها، ردٌّ قاطع وبليغ على هذا التصور الذي يلفظه المنطق ويناقضه الواقع.

أعتقد أن الذين ينزعون إلى هذه الأطروحة بدافع قومي، لا يملكون أن يقولوا شيئاً بعد هذا الذي أوضحناه.

لكن هنالك فئة أخرى تقول: إن رسالة محمد ﷺ، كانت ثورة يسارية اهتاجت ضد يمين متطرف يتمثل في الإقطاع أو الرأسماليين العرب، وأن الذين التفوا حول رسول الله ﷺ، كانوا من نوع «البروليتاريا» أي: من نوع الطبقة الكادحة الفقيرة، التي كانت تطمح إلى أن تنتقل الثروة من أيدي الإقطاع أو الرأسماليين العرب إلى جيوبهم الفارغة.

فماذا عن الأطروحة الثانية؟ وما الحق في ذلك؟

نبدأ فنصغي إلى وجهة نظر هؤلاء اليساريين، فيما يرون ويقررون، ثم نناقشهم فيها، فإن رأيناها سديدة أخذنا بها، وأن رأينا أن كلاً من الواقع

والمنطق يلفظها، فنحن كنا ولا نزال نسير مع ما يقرره المنطق وينادي به الواقع، والمطلوب من الآخرين أن يكونوا كذلك.

يقول أصحاب هذه النظرة:

إن كل الذين دخلوا الإسلام في مكة المكرمة واتبعوا رسول الله ﷺ وأحدقوا به، كانوا فقراء، وكانوا محرومين من أي مركز اجتماعي، ومن أي ثروة مالية، وكان الكثير منهم أرقاء، مستعبَدين، بينما لم نر واحداً من أولئك الصناديد الأغنياء الذين كانوا يمولون القوافل التجارية الناشطة ما بين الشام والجزيرة العربية، دخل هذا الدين واتبع رسوله!..

وهذا دليل واضح على أن دعوة محمد ﷺ كانت تدغدغ أحلام الفقراء والكادحين والمنكوبين اقتصادياً، لاسيما عندما كان رسول الله ﷺ يبشرهم بأن دعوته ستنقلهم من الفقر إلى الغنى، وأنها كفيلة بإخضاع ميزان الثروة للعدالة الاجتماعية، فكان هذا هو السبب الأول في استجابتهم له وإيمانهم به، وإلا فلماذا كان نصيب الإسلام خلال ثلاثة عشر عاماً مقتصراً على هؤلاء الفقراء الكادحين دون أن نجد معهم حتى ثلاثة من الأغنياء الموسورين؟.. تلك هي حجتهم ووجهة نظرهم.

وأياً كانت قيمة هذه الحجة، فإنهم ـ وقد جعلوا من عقيدة اليسار الماركسي التفسير الوحيد للتاريخ وأحداثه ـ لابدَّ أن يصطنعوا المؤيدات التي من شأنها أن تدعم مذهبهم.

غير أني أوثر حسن الظن، وأقول: لعلهم يعتمدون فعلاً على دليل، ولعله مقنع من وجهة نظرهم. ومن منطلق حسن ظني هذا أقول لهم:

لو كان الحافز الذي دعى بلالاً وصهيباً الرومي وعماراً وياسراً وأمثالهم، إلى الدخول في الإسلام، آمالاً ازدهرت بين جوانحهم، وتألقت في نفوسهم،

بأن الثروات المالية ستنتقل إليهم، وأن زمام الغنى سيصبح في أيديهم، أقول: لو كان الحافز لهم إلى ذلك تلك الآمال، لما صمدوا أمام الشدائد التي واجهتهم يوماً واحداً، لا سيما عندما يئسوا من تحول المال إليهم، ومن انقلاب خصومهم الأغنياء إلى فقراء، في مكانهم، وعندما رأوا أن الزمن لا يبشِّرُهم بهذا، وأن المستقبل لا يدل على شيء من ذلك.

لقد كان المفروض لو أن الأمر كما توهموا، أن يقولوا لمحمد عليه الصلاة والسلام: نحن اتبعناك أملاً في أن يصلح وضعنا المعيشي، ولكن ها نحن نرى أنه يزداد تردياً والمستقبل يهددنا بمزيد من العسر..

فلماذا لم يقولوا له ذلك؟ ولماذا آثروا الركون إلى مزيد من الشدائد التي أحاطت بهم ثم آثروا الهجرة من الدار والوطن، والتجرد حتى من القليل الذي كان يملكونه، ثم آثروا الصبر على ذلك كله إلى الموت؟

ومن المعلوم أن كثيراً منهم قتل، وأن فيهم من قتل تحت التعذيب، والذين نجوا من هذا وذاك بقوا في أسر الفقر والضنك، إلى أن هاجروا من مكة إلى المدينة المنورة!.. فمنذا الذي يتصور أن إنساناً يبتغي مالاً من خلال جهد يمارسه، ثم إنه تأكد أن هذا الجهد يزيده فقراً، ويزيده شدة وضنكاً، ويزداد مع ذلك معانقة لهذا النهج؟ أي منطق يقبل هذا التصور؟

وإليكم الآن هذا الدليل الآخر الذي لابدَّ أن يثير السخرية من هذا التصور المزعوم:

عندما اشتد إيذاء المشركين لرسول الله ﷺ، ورأوا أن الأذى لا يغير من حاله وحال من معه شيئاً، ولا يحملهم على الرجوع إلى ما كانوا عليه، اتفقوا على أن يقاطعوا المسلمين مقاطعة اقتصادية، وكتبوا فيما بينهم صحيفة عهد بذلك، وعلقوها في جوف الكعبة، وكانت تنص على أن المسلمين من أصحاب

رسول الله ﷺ يجب أن لا يواصلهم أهل مكة، بأي عون اقتصادي، فليس للمشركين أن يبيعوهم شيئاً أو أن يشتروا منهم أي شيء، وليس للمشركين أن يتعاملوا معهم أو أن يكرموهم بأي عطاء.

ثم ازدادوا إمعاناً في القطيعة فأخرجوهم مما بينهم، وحاصروهم في شعب من شعاب مكة، وظل الأمر على هذا النحو ثلاثة أعوام.

كان الرجل من المسلمين خلالها يخرج، وأولاده يتضورون جوعاً، متأملاً أن يرى من يبيعه طعاماً، أو يقدم له أي عون، فلا يعثر على شيء من ذلك.

ويمضي النهار، ويضطر الرجل أن يعود إلى أهله وأولاده خائباً، ليس معه لهم لقمة طعام، أو جرعة شراب، ليبيت الكل جائعين على الطوى!.. قطيعة عجيبة ما أظن أن أحداً سمع مثلها في التاريخ!..

كانوا يأكلون في هذه السنوات الثلاث الخبط ـ نوع من الشجر ـ يقتاتونه بدلاً عن الطعام، ولقد مات في هذه السنوات الثلاث من مات من الأطفال ومن غير الأطفال من جراء هذه المعاناة!..

فما الذي حبب إليهم الصبر على هذه الشدة، ما دام أن الذي أغراهم باتباع رسول الله ﷺ إنما هو الأمل في أن تنتقل إليهم ثروات الموسرين والرأسماليين من أهل مكة؟

ما الذي جعلهم يؤثرون الموت على جوعاً على ما كانوا عليه من الحياة الآمنة المفضلة، وقد أيقنوا أنهم لن يصلوا إلى حلمهم الذهبي الذي يفترضه هؤلاء اليساريون؟

لم يقل أحد منهم لرسول الله ﷺ: دعنا من رسالتك هذه التي لم نر فيها إلا الشؤم، ولم تزدنا فوق بلائنا إلا شدة وبلاء. بل كانوا سعداء بالصبر والمصابرة، وذلك لأن آمالهم كانت معقودة على شيء أغلى وأثمن، كان أملهم

معقوداً على ما عند الله، على ما ينتظرهم بعد الموت، كانوا موقنين بكلام الله سبحانه وتعالى الذي تشبعت به عقولهم وقلوبهم.

ولقد كانت كلماتهم وأحاديثهم في المناسبات صريحة بذلك. ويأتي مع ذلك كل هؤلاء اليساريون ليقولوا: لا، إن أولئك المسلمين مخطئون في التعبير عما كان تبتغيه نفوسهم من الإسلام، إنهم كانوا يبتغون تحسين أوضاعهم المعاشية، لاكما كانت تعبِّر ألسنتهم من محبة الله وإيثار مرضاته ومثوبته!!..

ثم تعالوا بنا إلى هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، وإذنه للمسلمين قبل ذلك بأن يهاجروا إليها.. لقد كلفتهم تلك الهجرة التجرد عن ممتلكاتهم كلها، عقاراتهم.. بساتينهم.. حتى ما خف وزنه من أموالهم المنقولة، حيل بينهم وبين حمله، والذين تمكنوا من حمل شيء منه في بادئ الأمر جُردوا منه على الطريق!.. إذ كان المشركون يتربصون بهم ويكمنون لهم في الأودية والشعاب، فإذا رأوا أسودة منهم على القرب أو البعد، خرجوا إليهم وجردوهم من كل ما معهم من مال وطعام، ثم تركوهم ليلقوا على الطريق عادية الموت والهلاك.

وقفوا معي أمام هذا المشهد لواحد منهم، وهو صهيب الرومي رحمه الله، هاجر من مكة خفية مع زوجته، وفي الطريق فاجأه كمين من المشركين، استوقفوه وجردوه من كل ما معه من مال وطعام، ثم استلبوا منه زوجته قائلين: جئتنا صعلوكاً لا مال لك ولا زوجة، أفتريد أن تمضي بصاحبتنا، وبالمال الذي جمعته عندنا إلى محمد، ثم تركوا الزوج يهيم على وجهه بعد أن قطعوه عن زوجته وبلغة عيشه.

كيف أيها الإخوة والأخوات أفهم أن هؤلاء الناس، إنما انقادوا لدعوة محمد عليه الصلاة والسلام رغبة في مال؟ لأن لعابهم يسيل وراء ثروات الإقطاعيين من أهل مكة؟!..

كيف يمكن أن أجعل النقيض دليلاً على النقيض؟

هل بقيت شبهة أخرى؟

أجل.. فيهم من يقول: ولكن ألم يصبح أولئك العرب الفقراء فيما بعد، هم قادة العالم وورّاث الحضارة؟.. ألم تتحول كنوز كسرى إلى جيوب أولئك الفقراء؟. ألم يصبح عمر بن الخطاب الخليفة الثاني بعد وفاة رسول الله، قيماً على الكنوز التي اندلقت إليه من أطراف العالم؟.. ونحن نقول: إن أولئك الفقراء الذين اتبعوا محمداً ﷺ كانوا يعلمون أنهم سيفوزون بهذه المغانم، وأنهم سيورثونها أولادهم وأحفادهم من بعدهم. وذلك هو الدافع الذي حملهم على اتباعه وتأييد رسالته!..

وأقول: لو أن أصحاب رسول الله ﷺ إنما اتبعوه طمعاً بتلك النتائج التي أكرمهم الله بها فعلاً، إذاً لما فازوا بشيء من تلك الثروات، ولراوحوا في أماكنهم، ولتحولوا من فقر إلى فقر، ولما استطاعوا أن يحققوا شيئاً من تلك الفتوحات، ولبقي كل من الحضارتين الساسانية والرومانية قوية راسخة تتألق.

لكن لما علم الله منهم صدق الإيمان به، ورأى منهم التضحية بالمال والحياة وبكل ما هو عزيز، والصبر على سلسلة الابتلاءات القاسية، دون أن يرتابوا أو ينكصوا على أعقابهم، أكرمهم بالنصر والتوفيق، وحقق فيهم وعده القائل:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

ولست أدري، لماذا تفسر هذه الظاهرة بثورة يسارية قامت بدافع اقتصادي، مع وجود البراهين الناطقة بنقيضها، ولا تفسر بوفاء الله عز وجل للوعد الذي

قطعه على نفسه، مع وجود البراهين الكثيرة الناطقة بهذا التفسير والمتفقة معه.

لماذا يتجاهل هؤلاء الناس قول الله عز وجل: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥] وفيه كما ترون تفسير واضح لهذه الظاهرة، وبيان قاطع للسبب الكامن وراء انتصارات المسلمين كلها، ويأبون إلا أن يخضعوها ـ رغم قرار الله وبيانه ـ لتنبؤات ماركس وأشياعه؟

عمر بن الخطاب!.. أجل سيقت إليه كنوز كسرى، لكن تعالوا فانظروا إلى المشهد التالي الذي يوضح لنا أكان عمر بن الخطاب يطرق باب الغنى من خلال إسلامه واتباعه لرسول الله ﷺ، أم كان يطرق بذلك باب مرضاة الله تعالى وإن ضحى في سبيل ذلك بماله وحياته.

عندما سيقت إليه كنوز كسرى ونظر فرأى التحف الكثيرة والعجيبة التي اندلقت إليه بكى بكاء شديداً، فقال له بعض الذين كانوا من حوله: ما يبكيك؟ فوالله إنها لنعمة تبعث على حمد الله وشكره، فقال: اللهم إنك تعلم أن محمداً كان خيراً مني فلم تكرمه بشيء من هذا، وإنك لتعلم أن أبا بكر كان خيراً مني فلم تعطه شيئاً منها، اللهم فإني أعوذ بك أن يكون عطاؤك لي فتنة أو استدراجاً.

ثم ماذا صنع عمر بتلك الكنوز؟ هل أطغته وأسكرته؟ هل تقلب منها في حال من المتعة والرفاهية.

بقي يرتدي مرقعته التي تعلمون، بقي على حاله من الزهد والاخشيشان، لم يبن قصوراً، ولم يشد لنفسه بتلك الأموال أبهة، ولما أشار عليه أبو عبيدة أن يتخلَّى عن مرقَّعته وأن يستقبل أباطرة الشام بمظهر أنيق، قال له: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما طلبنا العز بغير ما أعزنا الله به أذلّنا الله».

أفكان هذا كله من عمر مظهر ثورة من الطبقة الكادحة الفقيرة، على اليمين الإقطاعي أو الرأسمالي في الجزيرة العربية؟..

إذن فلماذا لا ينهج هؤلاء اليساريون اليوم نهج عمر في ثورته اليسارية التي حققت أعلى درجات النجاح؟..

بل لماذا لا يقتدون في ذلك بقائد هذه الثورة (على حدّ تعبيرهم) محمد ﷺ؟..

أما عمر وأمثاله ممن كانوا حول رسول الله ﷺ، فأشهد لو أنهم اقتدوا بهؤلاء الذين ينعتونهم باليسارية، فاصطنعوا الدين للدنيا، وركبوا مطية التقوى والصلاح ليبلغوا بها مآربهم من الأهواء والشهوات، إذن لجمحت بهم تلك المطية، ولعادوا بخسّتين اثنتين: فساد الدين وضياع الدنيا!!..

وإليكم هذا المشهد الآخر.. في أول أيام القادسية أرسل رستم إلى سعد بن أبي وقاص قائد جيش المسلمين أن: أرسل إلينا أحداً من مستشاريك لنتحاور معه في الأمر الذي أتيتم من أجله، فأرسل له سعد واحداً من عامة جنده اسمه ربعيّ بن عامر، فمضى إليه وقد ارتدى ثوباً بالياً، يركب فرساً عارية عن السرج، ولما وصل إلى سرادق رستم، نظر فرأى مظهراً من الأبهة والفخار لم ير مثله قط!.. ونظر إلى أرض السرادق وقد فرشت بأعجب وأثمن أنواع السجاجيد والطنافس، أما أعمدة السرادق فقد غُطِّيت بحرير ناعم مزركش!. فعلم ربعي أنه أنما دعي إلى مقابلة مع هذه المظاهر من الأبهة الباذخة، ولم يُدع إلى مقابلة مع رستم ليفاوضه ويحاوره!..

ترى لو أن ربعياً كان واحداً من هؤلاء الكادحين الحاقدين على أصحاب الثروات، الحالمين باليوم الذي ينالون فيه حظوتهم من الأهواء والمتع، كيف كان يتصرف أمام ذلك البذخ الشديد الذي فوجئ به؟ إذن لزاغت عيناه من تلك الأبهة العجيبة التي لم يتخيل مثلها في حياته قط، ولداخله من ذلك شعور بالنقص والإحباط، ولعاد إلى سعد موقناً بأن لا قبل لهم بقوة هؤلاء الناس وزخمهم المدني والحضاري، وهذا ما كان يبغيه رستم من استقدامه إليه.

ولكن تعالوا فانظروا إلى هذا الذي صنعه ربعي: نزل عن فرسه وربط زمامه بأول سارية داخل السرادق وشَدَّ الزمام عليه شداً منكراً حتى تمزق الحرير الذي عليه، ثم أخذ يمشي متوكئاً على رمحه بشدة، وقد جعل زجه إلى الأدنى، حتى أفسد كل ما مرّ عليه من الطنافس والسجاد، فلما وصل إلى رستم اتخذ مجلسه على السرير إلى جانبه!.. ولما أقبل إليه الأعوان لينزلوه، قال لهم: لم آتكم أنا، وإنما أنتم الذين أرسلتم إليّ، فإما أن أجلس حيث شئت أو أعود. فأشار لهم رستم أن يتركوه!..

ثم قال له رستم: ما الذي دعاكم إلى الولوع ببلادنا؟ ألأنا غفلنا عنكم. فأجابه ربعي قائلاً: جئنا لنخرج من شاء منكم أن يخرج من عبادة العباد، إلى عبادة الله. فإذا دخلتم في هذا الذي أكرمنا الله به تركناكم وأموالكم وعتادكم..

ونظر فوجد صفين من الرجال عن يمين رستم وشماله راكعين لا يرفعون رؤوسهم قط. فقال لهم: لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام. ولكني لا أرى الآن قوماً أسخف منكم!!.. لقد ظننت أنكم تتساوون كما نتساوى. وما كنت أتصور أن فيكم آلهة يُعبدون، وأناساً يَعبُدون!. الآن علمت أن هذا الملك لن يبقى فيكم أبداً.

أفهكذا يقول من جاء طامعاً في الثروة والمال؟

أفهكذا يجلس ويتصرف؟..

أفيقول اليساري الطامع بالمال: إن دخلتم في الدين الذين أكرمنا الله به.

تركناكم ودياركم وأموالكم؟...

ثم إن هنالك حقيقة ربى الإسلام المسلمين عليها، وهي أن المسلمين كلما كانوا أكثر زهداً في الدنيا، جعل الله الدنيا أكثر خضوعاً لهم ولحاقاً بهم.

وكلما كانوا أكثر تلهفاً عليها وسعياً وراءها، جعلها الله أكثر تأبياً عليهم وابتعاداً عنهم.

تلك سنة من سنن الله الثابتة، لا تتبدل مهما تبدلت الظروف والأحقاب.

إذن.. أين ينبغي أن نصنف هذه المقولة الآن؟

أعتقد أننا جميعاً متفقون أن علينا أن نصنفها أغلوطةً من الأغاليط، التي ينبغي أن نشطب عليها، وأن لا نعيرها من عقولنا أي اهتمام.



يُغَالِطُونَكَ إِذْ يَقُولُونَ:

وَأَخِيرًا، الْعَوْلَمَةُ...

تَعَاوُنٌ عَالَمِيٌّ نِدِّيٌّ، لَا تَبَعِيَّةَ لِقُطْبٍ مُتَسَلِّطٍ

العولمة، على وزن عربدة وشعوذة، كلمة لا وجه لها في العربية، إذ هي مصدر أو أريد لها أن تكون مصدراً لا فعل له، وهل رأيت أو سمعت في العربية مصدراً لا فعل له[١]؟.

وعلى كل فإن المعنى المراد منها هو النسبة إلى العالم، والتعبير السليم عنه عندئذ هو: العالمي أو العالمية. أي: الخروج عن التقوقع في القوم أو الإقليم أو المنطقة والاندماج عن طريق التفاعل في العالم بمعناه الشامل الواسع.

وأعتقد أن الكلمة طبعة ثانية معدّلة لكلمة «النظام العالمي الجديد» كما قلت في مقدمة هذا الكتاب.

أياً كان الأمر، ما هو موقفنا من حيث إننا أمة مسلمة ما زلنا نعتز بإسلامنا الذي ننتمي إليه رغم أخطائنا الكثيرة في حقه، من مدلول هذه الكلمة، بل مما قد حُمِّلته من مدلول؟

أما الخروج إلى العالم من دائرة القرية والإقليم والبلدة، للتعرف على الأمم الأخرى، والتفاعل معها بالإفادة والاستفادة، فذلك من أول الواجبات التي جاء بها الإسلام، وهو أول الآثار التي حققها الإسلام في حياة العرب، الذين كانوا منطوين على أنفسهم في جزيرتهم العربية طوال عصورهم الجاهلية، حتى إذا دخلوا الإسلام، كان ذلك إيذاناً لهم بأن يخرجوا من جزيرتهم الضيقة، إلى العالم الواسع الفسيح، تحرروا من أسر عاداتهم، وحطموا طوق عصبياتهم،

---

(١) قد يقول بعضهم: يمكن أن يستحدث فعل من هذه المادة، فيقال: عولم الرجل عولمة. والجواب أن اشتقاق الفعل من الاسم لا يأتي قياساً، بل هو محدود بالسماع فقط.

وانطلقوا إلى العالم المعمور من حولهم يعطونه الهداية والرشد ويأخذون منه الحكمة الصائبة أينما وجدت.

وبكلمة جامعة: أخرجهم الإسلام من جزيرتهم الضيقة، وأدخلهم في العالم الكبير المتسع لجزيرتهم ولكل ما يحيط بها.

وآية ذلك أنك ما تكاد تمر بصقع من أصقاع العالم الإسلامي اليوم، بَعُدَ أو قَرُبَ، إلا وتجد فيه قبراً لصحابي من أصحاب رسول الله.

وأساس ذلك أن الإسلام الذي يعرِّف به القرآن، جاء عالمي النزعة إنساني المبادئ والقيم، لا يتحيز في شرعه وقيمه لقوم دون قوم، يرسي العدالة العالمية التي يستوي في حكمها العربي والأعجمي والأبيض والأسود، بل المسلم وغير المسلم أيضاً.

تأمل في خطاب الله تعالى في القرآن. تجده يتجه إلى الناس جميعاً دون أي تمييز. إن تحدث عن العقائد وحقائق الكون، وجَّه خطابه إلى الناس جميعاً بقوله: يا أيها الناس، أو يا بني آدم. وإن تحدث عن الأحكام والشرائع التي يأتي دورها بعد مرحلة الإيمان وجَّه الخطاب إلى الذين سبق أن آمنوا فخاطبهم بقوله: «يا أيها الذين آمنوا..» وفي كل الأحوال لن تجده يخصُّ العرب أو أهل مكة أو المدينة، أو قريشاً أو أي فئة أو قوم من الناس، بأي خطاب يخصُّهم به دون غيرهم.

هذا من حيث الخطاب وأسلوبه.

أما من حيث المبادئ والأحكام التي يتضمنها القرآن، فالمرعيّ فيها دائماً، العدالة الإنسانية العامة ومصلحة الأسرة الإنسانية جمعاء.

فشرائعه تنطلق من قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨].

والمنهج الذي يعرّف به الإسلام للتعامل مع الكون والإنسان والحياة، ينطلق من قول الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ...﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦] ومن قول رسول الله ﷺ «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها»[1] ومن القاعدة الفقهية الشاملة: «حيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله».

ثم إن الإسلام الذي جدد القرآن أركانه وشرحته السنة المحمدية، لا يقرُّ بأي وصاية لفئة من الناس على أخرى، ولا يسمح بأي تبعية يمليها قوم على قوم.

الولاء كله، في دين الله، لله وحده، والناس كلهم عبيد مملوكون له، ومن ثم فلابدَّ أن يكونوا تحت سلطان هذه العبودية سواسية كأسنان المشط.

وفي الجملة، تتلاقى عالمية هذه المبادئ والأحكام والعلاقات كلها، في قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

إذن فالعالمية التي يدعو إليها الإسلام تقوم على أساس راسخ من النديّة المشتركة، الهادفة إلى التعاون العالمي لتحقيق أسباب الحياة الإنسانية الرغيدة، والسليمة على خير وجه. والقانون المرعي في ذلك هو قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢].

وأما الخضوع للعولمة التي ندعى إليها، دعوة السيد المتبوع لخادمه التابع، ونسخّر لها ابتغاء المحافظة على مصالح ١١٪ من سكان العالم، ونستدرج إليها لتكون حياة ٨٩٪ من العالم أسواقاً استهلاكية لمنتجات ١١٪ منه، فهو أولاً ليس اشتراكاً إنسانياً على مائدة عالمية مستديرة تتقاسم الأسرة الإنسانية جمعاء خيراتها. وهو ثانياً انقياد للحلم الاستبدادي الذي تنهج إليه سياسة القطب الواحد.

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وغيرهما من حديث أبي هريرة بألفاظ متقاربة.

إن العولمة (بهذا التعبير الذي تبرأ منه العربية وأهلها) أو العالمية التي لقَّنتنا إياها لغتنا العربية الخالدة، لا تنهض نهوضاً حقيقياً إلا على أساس من الندِّية المشتركة بين فئات الأسرة الإنسانية جمعاء، وإلا فهي استدراج إلى استعباد وهي من نوع الدجل الذي يمارسه اللصوص مع ضحاياهم، عندما لا يريدون أن يغامروا باقتحام أخطار المقاومة وجهاً لوجه، أو لا يريدون أن يُقبض عليهم خلال تسللهم، بالجرم المشهود.

نحن اليوم نُدعى إلى عولمة ثقافية واقتصادية وحضارية كما يقال..

والتعبير الصحيح أن يقال: نحن ندعى اليوم إلى تبعية ثقافية واقتصادية وحضارية، كما هو الواقع المشاهد للعيان.

فما الفرق بين هذه التبعية التي ندعى إليها اليوم، والاستعمار الذي كان سائداً بالأمس، والذي يقال: إنه قد ولّت أيامه وانطوى سلطانه؟..

نحن نقول: نعم للعولمة، ولا للتبعية.

ولا يمكن السعي إلى تنفيذ مضمون كل من: نعم ولا، إلا بعد فكِّ الاشتباك بين كلمتي العولمة والتبعية، والفصل الكلي بينهما في المضمون والتنفيذ.

أنا أدعو إلى ثقافة عالمية راشدة تتفيَّأ الأسرة الإنسانية جمعاء ظلالها.. وأدعو إلى تعاون اقتصادي عالمي ينعش المجتمعات كلها، وينتشلها من أوضار المجاعة والفقر.. وأدعو إلى حضارة إنسانية مثلى تسمو بالعالم أجمع إلى صعيد التقدم والرفاهية والسلام..

ولكن فما السبيل إلى ذلك؟

أولى الخطوات إلى ذلك أن تتبادل دول العالم أجمع، فيما بينها نظرات الاحترام الحقيقي المنبثق من واقع النديّة والمساواة السارية فيما بينها.

فإذا تحققت هذه الخطوة التأسيسية الأولى، فإن التي تليها تتمثل في أن

تتقدم كل دولة أو أمة أو مجتمع بما لديه من ذخر الثقافة الراشدة، ومنهاج الحضارة المثلى، والقيم الإنسانية التي تسعد ولا ترهق.. ومن خلال التواصل المستمر الذي هو المناخ الطبيعي الذي لابد منه لنسج شبكة العولمة، يبدأ حوار الثقافات والحضارات والرؤى الإنسانية المختلفة، دون أن يكون وراءه خلفيات خادعة وسياسات ماكرة.. ولا شك أن واقع الندية الذي تمثله الخطوة الأولى من شأنه أن يضمن ذلك.

فمن تحقق هاتين الخطوتين يمتد نسيج العولمة ليشمل الأسرة الإنسانية جمعاء.. ولسوف تبقى خصوصيات تستعصي على الزوال أو الذوبان، ولكن واقع الندية ومشاعر الاحترام يحيلها إلى خصوصيات مغنية ورؤى متنوعة مفيدة.

ولكن فلتعلم أنني إنما أرسم خطة نظرية، بل خياليةً مجنَّحةً، تستعصي على التطبيق، ما دامت قيادة العالم بيد من تحكمهم مصالحهم المادية الذاتية، ويتقلبون في أحلام الهيمنة والسيطرة على الآخرين.

وهذا هو واقع الغرب، ولا سيما الغرب الأمريكي اليوم!..

ينظر إلى الدنيا كلها، وإلى موازين القيم، وما يسمى: «بحقوق الإنسان» من خلال مصالحه الذاتية فقط. ومن ثم فإن الفقر الذي يأخذ بخناق ثلث سكان العالم، والمجاعة التي تدور برحى الهلاك على الملايين منهم كل عام، لا يتعارض شيء من ذلك في نظر الغرب الأمريكي مع آلاف الأطنان من الأغذية والأقوات المتنوعة التي يتم الإشراف على إتلافها هناك في كل عام، ولا يتعارض شيء من ذلك مع «العولمة» التي يُدعى إليها، هؤلاء الذين يترنحون ثم يتساقطون جوعاً بين سمع العالم وبصره!..

ومن ثم فلا حرج في أن يسمى النضالُ والنظامُ اللذان يلجأ إليهما المستضعفون، لرعاية حقوقهم: تطرفاً وإرهاباً وعنفاً، وأن يسمى الإرهاب والعنف المتطرفان اللذان تمارسهما أمريكا وحليفتها الصهيونية لاستلاب

الحقوق والقضاء على الحريات: نضالاً ونظاماً، دون أن يتعارض شيء من ذلك مع «العولمة» التي يفسرها النظام العالمي الجديد!!..

ومن ثم فلا حرج أيضاً في أن تنشط الشركات الأمريكية الماضية في تصنيع المزيد من أسلحة التقتيل والدمار، لتسويق أسلحتها، عن طريق سماسرتها الذين لا يفتؤون ينفخون في نيران الحروب والفتن على أوسع رقعة في عالم الأمم والدول النامية، الإسلامية منها وغير الإسلامية!.. وكم هي رائعة تلك «العولمة» التي تجعل العالم كله قسمين: آكلاً متخماً، ومأكولاً هزيلاً عاجزاً!..(١)

ومن ثم فلا حرج أيضاً في أن تسدد الولايات المتحدة ـ وهي ماضية في الدعوة إلى «العولمة» ـ الضربة القاضية إلى نمور آسيا، وأن تفكك وحدة أندونسيا وتضرم فيها نيران الطائفية، لأن سياسة العولمة تقتضي أن يكون الازدهار الحضاري والاقتصادي وقفاً على الولايات المتحدة، وأن يكون العالم كله أسواقاً استهلاكية لها.

ومن ثم فلا حرج أيضاً في أن تحشو أمريكا جوار السودان من سائر الأنحاء بأسلحة الدمار، وتلهب تلك الساحة الواسعة بلظى الحرب كلما خبت نارها وبرد أوراها، لأن ازدهار السودان بالخير القديم على أرضها، والذخر الجديد في باطنها، والسلام العادل مع جاراتها، يتنافى مع «العولمة» التي يجب أن يخضع العالم كله من خلالها لمصالح أمريكا وأطماعها.

ومن ثم فلا حرج أيضاً في النهج الذي تفرضه الولايات المتحدة على تركيا، عن طريق قواتها المسلحة (أي القوات التركية طبعاً) بأن تبعد شعبها المسلم عن إسلامه، مهما عظم الثمن، ومهما اقتضاها ذلك أن تسيء إلى الديمقراطية، أو

---

(١) كانت آخر صفقة بيع للسلاح بين الشركات الأمريكية، واحدى الدول الخاضعة لسلطان هذه العولمة والسوق الاستهلاكية لها، بقيمة ستين مليار دولار فقط!!..

حتى أن تستحقها!.. إذ إن المسلمين هناك متطرفون في ممارستهم لإسلامهم الذي ارتضوه، حتى وإن كانوا في سلوكهم مثال السلم والمسالمة.

أما الجنرالات الذين يتلاعبون بالقوانين ويخنقون الحريات، ويلاحقون حرية السلوك الإسلامي بالتضييق والعقاب فنظاميون ديمقراطيون، حتى وإن كانوا في سلوكهم مثال التطرف والاستبداد والإرهاب.. ولكي تسود «العولمة» في العالم، لابدَّ من إقامة هذا النظام المنكوس!..(١)

ومن ثم فلا حرج أيضاً في أن تمهد أمريكا للعولمة التي تدعو العالم إليها، بهذا الذي أقدمت عليه في الخليج، إذ أوغرت قلب الصديق على صديقه الجار.. ثم أغرت الواحد منهما بالآخر.. فكان على أعقاب ذلك العدوان والقتال.. ثم إنها فرضت من نفسها الحكم العدل والوليّ الشفوق، فملأت ساحة ما بين الإخوة الجيران بأسلحة الدمار المتنوعة.. ثم إنها حملتهم جميعاً أوقاراً من أثمانها الباهظة، مشفوعة بما يتبعها من ضريبة المنة في غيرتها على أمن المنطقة، وحرارة دفاعها عن المظلوم وسهرها على الحقوق!..

تلك هي الأسس التي ستقام عليها «العولمة» التي نُدعى ويُدعى العالم النامي كله إليها.. مملكة عالمية يتربع على عرش الحكم فيها ملك واحد، يحكم فيها بأمره ويسخِّر الأمم والشعوب كلها لمصلحته!..

وذلك هو منطق الواقع الذي يفرض نفسه، عندما تكون رعاية المصالح والحقوق الإنسانية في العالم بيد قطب واحد. ومهما شاء كل من اللغة والمنطق أن يسمى هذا الواقع عتواً أو تطرفاً واستبداداً، فإن منطق القوة يغدو هو الأصح عندما يسميه «عولمة» أو نظاماً عالمياً جديداً.

لماذا لا يكون للإسلام دور في فتح آفاق «العولمة» أمام شعوب العالم

---

(١) وأخيراً انتصرت الديمقراطية هناك بحمد الله، على العولمة الاستبدادية القاهرة.

ودوله، لا سيما وهو الدين العالمي الذي بعث به محمد ﷺ إلى العالم أجمع، وهو الذي يعتنقه اليوم ما لا يقل عن ثلث العالم، ويتوافد إليه الغربيون (شعوباً) من كل حدب وصوب؟.. لأن المصالح الأمريكية هي المقياس الأوحد لكل شيء!..

ويقول هذا المقياس: إن في العالم إسلامين.

إسلاماً معتدلاً مقبولاً، وهو الإسلام التراثي أو الانتمائي، الفارغ من المضمون، والذي يُهيأ لأن يتحول إلى وعاء فارغ لاستيعاب الحضارة الغربية وقبولها بشكل كيفي.. فهذا هو الإسلام الذي يتفق والمصالح الأمريكية ومن ثم فهو يشجعه، وينتصر لدعاته وأنصاره.

وإسلاماً أيديولوجيا ينطلق من جذور العبودية لله ويدعو إلى الالتزام بأحكامه وشرائعه الحضارية الشاملة، ونظراً إلى أن هذا الإسلام الثاني من شأنه أن يَحُدَّ من ساحة الهيمنة الغربية بل الأمريكية على العالم، وأن يعارض شيئاً من مصالحها، فهو إذن إرهاب وتطرف، ومن ثم فهو خطر على العولمة، فكيف يكون له دور في مدّ نسيجها؟

تأمل، كيف يتجلى هذا المقياس التحكُّمي المستبد من خلال التصريحات والوثائق التالية:

ـ يقول أنطوني ليك مستشار كلينتون لشؤون الأمن القومي، في محاضرة ألقاها في معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، في ١٧ أيار ١٩٩٦:

«رغم انتهاء الصراع بين القوتين العظميين، تبقى المنطقة ذات أهمية حيوية لمصالح بلادنا، فالتدفُّق الحرُّ للنفط من الخليج، وأمن رفاه إسرائيل، واستقرار البلدان العربية الصديقة، وحاجتنا لاحتواء العراق وإيران وليبيا والسودان، وهي الدول الرجعية والخارجة على القانون في الشرق الأوسط، وجهود الحد من

انتشار أسلحة الدمار الشامل، كل هذه الأسباب تعطي بلادنا مصلحة حقيقية وحيوية جداً، في تأمين مستقبل يضمن مصالحنا هذه».

إذن فالبند الأول في مقياس «العولمة» التي نُدعى إليها، هو مصالح الغرب في المنطقة والمقصود بالغرب هنا أمريكا حصراً.

ـ ثم إنه يقول في المحاضرة ذاتها معلناً عن خطر ما يسميه «التطرف الإسلامي» على مصالح أمريكا:

«يجب أن لا يكون هناك شكٌّ في أن التطرف الإسلامي يشكّل خطراً على مصالح أمتنا. فهناك قوى تستخدم غطاء النهضة الإسلامية لقمع الحرية والانسحاب من العالم وتبرير الأعمال العدائية. وهذه الحركات تهدد الولايات المتحدة والأسرة العالمية، لأنها تتكلم بلغة الفتنة القوية القديمة، لغة الحقد والخوف والتحامل..».

وإنه ليخيل إلينا بادئ الأمر أن هذا كلام منطقي، فنحن المسلمين في الشرق الأوسط وغيره، نشجب التطرف في فهم الإسلام والتعامل معه، ونعني دائماً بالتطرف الإسلامي الغلوَّ الذي يتجاوز حقيقته وضوابطه، إن في فهمه أو في تنفيذ أحكامه.

ولكن المراد بالتطرف الإسلامي، في قاموس مستشار كلينتون هذا، وسائر القادة الأمريكان، الإسلام الاعتقادي الذي يحمل صاحبه على الالتزام بكل ما فيه من قيم ومبادئ وأحكام.

أما الإسلام المعتدل الذي يرحبون به، فهو ـ كما قلت لك ـ ذلك الإسلام الانتمائي الفارغ من المضمون، والقابل لأن يتحول إلى وعاء فارغ يستوعب الثقافة الغربية، ويخضع للمصالح الأمريكية بشكل كيفي مجرد..

انظر كيف يتجلَّى هذا الذي أقوله صراحة في خطاب بيليترو أحد كبار

مستشاري وزارة الخارجية الأمريكية الذي ألقاه أمام مجلس العلاقات الخارجية بنيويورك في ٨/ ٥/ ١٩٩٦، يقول:

«أعتقد أن من المهم أن نحاول زيادة فهم الأمريكيين للإسلام، وفهم أهل الشرق الأوسط لأمريكا، وهنا في أمريكا، وفي موقع مثل مركز التفاهم الإسلامي المسيحي في جامعة جورجتاون، ومركز دراسات الشرع الإسلامي في جامعة هارفرد[١] وهنا في هذا المجلس وغيره من الأماكن، يأخذ الباحثون الغربيون والمسلمون في التآلف بين بعضهم البعض، للاستفادة المشتركة من اطلاع كل منهم على تاريخ الآخر وفلسفته وتشريعاته، وفيما يتزايد نوع التفاعل هذا، أعتقد أن لا مناص من بدء بزوغ تفسيرات للإسلام تتسم بالحداثة، ومن شأن هذا أن يعزز الدعاوي التي نسمعها داخل المجتمعات الإسلامية نفسها، إلى التفكير بشكل جديد في قيم الإسلام، وذلك من قادة مثل السلطان قابوس سلطان عمان، ومن كُتَّابٍ ومفكرين وداعين للإصلاح مثل عبد الكريم سوروش في إيران، ومحمد شحرور في سورية، ومحمد أركون في الجزائر، ومحمد سعيد العشماوي في مصر».

إذن فالإسلام المعتدل، في مقياس العولمة الأمريكية، هو هذا الذي يقوده محمد أركون مدير قسم الدراسات الإسلامية في السربون[٢]، ومحمد شحرور مهندس ميكانيك التربة في دمشق، والآخرون السائرون على نهجهما.

إذن فالقادة الأمريكيون لا يبحثون عن الإسلام الحقيقي الخالي من الغلو؛

---

(١) هي أشهر جامعة يهودية صهيونية في أمريكا.

(٢) لا يتردد أركون أن يسجل منته العظمى على الساسة الغربيين، كلما اجتمع إليهم ودعت المناسبة، أنه استطاع أن يبدد إسلام المسلمين بأداة «الألسنية» التي يحاكمهم إليها، ويناقش إسلامهم على ضوئها، يستجديهم بذلك مزيداً من التأييد والمنافع.. توفي أخيراً هذا الرجل بعيداً عن ذاته مجرداً عن سيادته، مختنقاً بين التناقضات الحادة في كيانه.

الذي يعبرون عنه اليوم: «بالتطرف»، ولكنهم يبحثون عن مضمون جديد لاسم الإسلام وعناوينه الفرعية الأخرى. وهكذا فمقياس العولمة، فيما يصرِّح بُه صانعو السياسة الأمريكية هو الثقافة الأمريكية وفلسفة المجتمع الأمريكي، النابعتان من المصالح الأمريكية، في «المنطقة» أي منطقة الشرق الأوسط بالنسبة للعالم العربي، ومنطقة جنوب شرق آسيا، بالنسبة لدول النمور الآسيوية، ومنطقة أفريقيا بالنسبة للدول الإسلامية فيها، ومنطقة آسيا الوسطى بالنسبة للجمهوريات الإسلامية الحديثة فيها[١].

أي: إن كلمة «المصالح الأمريكية في المنطقة» التي كثيراً ما تتكرر على أسماعنا وأبصارنا، تعني المصالح الأمريكية في العالم.. ونظراً إلى أن هذه المصالح هي المقياس، إذن فينبغي أن تكون عولمة العالم كله متقوقعة محبوسة داخل جدران تلك المصالح!!.

ونعود الآن إلى الحديث عن عالمية الإسلام التي تجمع أطراف العالم وأقطابه على مائدة مستديرة يتحاور فيها الأنداد على مستوى واحد من ممارسة المصالح والحقوق، وتتعاون فيها الأطراف لتحقيق الخير للأسرة الإنسانية جمعاء، فنقول:

بقطع النظر عن الواقع المتردي الذي تعاني منه الدول والمجتمعات الإسلامية، والذي لا يتاح فيه للمسلمين حكاماً كانوا أم شعوباً، أكثر من أن يتأوهوا بلغة الاحتجاج، تعبيراً عن آلامهم واسترحاماً لمآسيهم، أقول: بقطع النظر عن هذا الواقع، فإن الإسلام الذي ننتمي إليه نحن المسلمين، عالمي في دعوته، وعالمي في مضمونه، وإنساني في مراميه وأهدافه.

---

(١) استلمت روسيا من أمريكا هذه الأيام ٣ مليار دولار مقابل فظائعها الإرهابية في الشيشان تحت اسم «مساعدة اقتصادية» لتخليصها من أزمتها الخانقة!.. منذا الذي يشك إذن في أن أمريكا لا تحارب الإرهاب؟؟!!.. (كان هذا أيام مأساة الشيشان والمذابح التي استحرّت فيها).

فالإله الواحد الذي نؤمن به نحن المسلمين، ليس إلهاً للعرب دون العجم، ولا لعرق دون عرق أو للون دون لون، أو لقارة دون أخرى. وإنما هو رب العالمين جميعاً، يشملهم جميعاً برحمته وإحسانه.

وتعليماته ووصاياه التي يخاطبهم بها، لا يتحيز بها لمصلحة قوم دون قوم، أو أمة أو دولة أخرى.. الناس كلهم في ميزان هذا الدين عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله.

ونظام هذا الدين يقوم على أساس التعايش مع الآخرين، والاعتراف بالغير، مع الدعوة إلى الحوار والنصح باختيار الأسلم والأفضل لمصلحة المجموع، وابتغاء كل من الخيرين العاجل والآجل، دون تذرُّع في شيء من ذلك إلى تبعية فئة لأخرى، أو إلى خضوع ضعيف لقوي. يجسد ذلك ويبرزه جلياً قول الله عز وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وباختصار، بوسعنا أن نقول: إن الإسلام مشروع سلم عالميٍّ حقيقي ينعم أهله تحت مظلة عبودية الجميع لله عز وجل، دون أي استغلال ولا عدوان. وهو المعنيُّ بقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

ولكي يتأتى للإسلام أن ينهض بهذا المشروع ويسير في طريق تحقيقه، لابد أن تكون له فلسفته عن الكون والإنسان والحياة، ولا شك أن من شأن هذه الفلسفة أن تفرز نسيجاً متميزاً منسجماً مع هذه الفلسفة.

إذن، فعدّة الإسلام في انطلاقته العالمية هي التعبير عن فلسفته هذه، والاحتماء خلال ذلك بثقافته المتميزة، على أرض من الحوار الذي ينطلق من الاعتراف بالآخرين والتناصح معهم.

غير أن من المهم هنا أن نعلم بأن فلسفة الإسلام هذه عن الكون والإنسان والحياة ليست ثمرة لأفكار بشرية أو لرؤى إنسانية، وإنما هي أخبار إلهية خوطب بها الناس جميعاً، بوحي من الله عز وجل إلى رسله وأنبيائه، الذين ختموا بالنبوة الشاملة التي بعث بها محمد ﷺ للناس عامة.

وهذا يعني أن الإسلام هو المنهاج العالمي الذي خاطب الله به عباده جميعاً على ألسنة الأنبياء كلهم، بدءاً من أولهم آدم إلى آخرهم محمد صلوات الله عليهم أجمعين. وقرار الله في ذلك واضح بيِّن إذ يقول: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ...﴾ [الشورى: ١٣].

والخلاف الذي نشأ من بعد، على ألسنة بعض الرسل والأنبياء، إنما كان بافتئات من بعض أتباعهم، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٩].

أي: إن الإسلام لا يتضمن دعوة لتبعية قوم لقوم أو دولة لدولة أخرى، لأن الإسلام ليس من ابتكار أي فئة أو جماعة منهم، ولكنه يتضمن دعوة موجهة إليهم جميعاً أن يدينوا بالولاء لمولاهم الأوحد؛ وهو الله عز وجل قائلين بلسان النطق أو الحال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] وهو الضمانة الوحيدة لأن يعيشوا جميعاً متساوين متعاونين متناصحين. لا يشتط فريق على فريق بأي جور أو تسلط أو خداع.

ترى، ما الذي يجعل هذه الحقيقة التي هي جوهر الإسلام ولبُّه، نظريةً تُفهم وتتم القناعة بها على الورق، ولا نجد لها اليوم مصداقاً على ساحة التنفيذ؟؟..

سبب ذلك أن إسلام الجمهرة الكبرى، لاسيما أصحاب القرارات السياسية منهم، غدا اليوم إسلام انتماء وتراث، بعد أن كان إسلام هوية والتزام،

فالقرارات والأحكام والأنظمة الإسلامية كلها مجمَّدة ومحالة ـ تحت سلطان هذا الواقع ـ إلى الخزائن والرفوف..

وإنه لأمر طبيعي، بل منطقي أيضاً، أن تبرز في الفراغ الخطير الخطط والاتجاهات الغربية الرامية إلى طيِّ الوجود الإسلامي من المناطق الإسلامية كلها، وإلى القضاء على الجذور الموصولة بالأصالة الإسلامية، والتي يفترض الغرب إمكان اخضرارها وعودة ربيع الحياة إليها من جديد.

غير أن الذي يدفع الغرب الأمريكي اليوم إلى مضاعفة جهوده، الرامية إلى تجميد الإسلام في مخزن الشعارات والألفاظ الإسلامية الفارغة من المضمون، ما يخيفه من مظاهر الصحوة الإسلامية التي وصلت عدواها ـ بدون ريب ـ إلى الغرب، لاسيما إلى الغرب الأمريكي. ومن الواضح أن تنامي تخوُّف القادة الغربيين من الإسلام، يبعث على تنامي الرغبة في معرفته ودراسته لدى شعوب العالم الغربي، وصدق المثل القائل: «رب ضارة نافعة».

فما هي أحدث الخطط المطبوخة لدى الأمريكيين للتربص بهذه الصحوة والكيد لها؟..

هنالك خطتان مرسومتان، يجري اليوم تطبيقهما على قدم وساق.

**الخطة الأولى**: تعكير أسباب الرؤية الإسلامية أمام أبصار رجال هذه الصحوة وجنودها، وذلك عن طريق إثارة التناقضات بين المسلمين في فهم الإسلام، بكل السبل والوسائل الممكنة.

وتقرير مجلس الأمن القومي الأمريكي الصادر عام ١٩٩١ ينص صراحة على ذلك. وما قصة «الاتجاه المعاكس» التي تجنَّد لها قناة تلفزيونية أجنبية ناطقة باللغة العربية على أرض عربية، إلا واحدة من الأدوات المسخرة لتنفيذ هذه الخطة.

الأقنية الوطنية العربية، تبحث عن الحق من خلال برامجها الثقافية والسياسية، فإذا اهتدت إليه تبنته ودعت إليه، وأبرزت وجه الحق الذي فيه، من خلال ما تعقده لذلك من ندوات وتثير حوله من مناقشات، فهي لا تنطلق في إثارة النقاش حوله من فراغ.. بل من قرار تتخذه وتدعو إليه، ومن الالتزام بمبدأ تقتنع به وتدعو إليه، ولكنها تصقله بالحوار والنقاش.

أما تلك التي أشرت إليها، فهي لا تنطلق في المناقشات التي تثيرها من الانتصار لقطب ترى أنه المحق، ولا تجعل من برامجها دفاعاً عن مبدأ تعتنقه وترى أنه الحق، وإنما تنطلق من فراغ كلي تجاه المشكلة أو الفكرة التي تثيرها، مع التوجه إلى هدف خفي معين، هو إبعاد المختلفين في أي قضية من القضايا عن إمكانية التلاقي على جامع مشترك، وتحويل كل القيم والمبادئ الإسلامية التي تشكل نسيج المجتمع الإسلامي، إلى تناقضات فكرية حادة، تمزق الرؤية الإسلامية الواحدة، وهي الوصية التي ألح تقرير مجلس الأمن القومي الأمريكي على تنفيذها في المجتمعات العربية والإسلامية.

**الخطة الثانية**: غزو المجتمع الإسلامي ثقافياً واقتصادياً، ويأتي دور هذه الخطة الثانية بعد الإمعان في ضعضعة الكيان الإسلامي وإرهاقه ثقافياً واقتصادياً، وقد تكلفت بها الخطة الأولى. فالمسألة تشبه تماماً الغزو العسكري الذي يمهد لاقتحام البلدة بتخريبها وإمطار وابل من القذائف المستمرة عليها.

الآلة المتطورة الحديثة التي يستعملها الغرب الأمريكي لهذا الغزو، طبق ما تقتضيه الخطة الثانية، هي ما يسميه: «بالعولمة».. وإن كنتَ ممن له دراية واسعة باللغة العربية وسمعت بما فيها من كلمات الأضداد، فاعلم أن كلمة «العولمة» واحدة من الأضداد، التي أضافها الاستعمار الأمريكي الحديث إلى مخزون

اللغة العربية. فالكلمة وإن كانت مأخوذة من العالمية التي تعلو متحررة من قيود الإقليم والقوم والبلدة والجماعة، ولكنها في مضمونها الذي تحمله أو الذي حُمِّلته تعني عكس ذلك، إنها تعني نسخ عالمية القيم والثقافة الإسلامية، الإنسانية التي لا تعلم تحيزاً لقوم دوم قوم، وطيّها بل تذويبها والقضاء عليها تحت سلطان الثقافة الأمريكية الغازية، كما أنها تعني القضاء على نظام الاقتصاد الإسلامي العالمي في شموله ومرونته والإنساني في هدفه ومرماه، وإحلال الشركات الصهيونية العملاقة التي تتحكم اليوم بدفة السياسة الأمريكية، محل ذلك النظام الإنساني الإسلامي الذي لا يتقوقع ولا يتحيز، ولا يجعل من الاقتصاد وأنشطته أخطبوط تحكم بالقادة والشعوب.

وبعد، فإننا نحن المسلمين، الذين ربانا الإسلام على أن ندرج من أعشاش بيئاتنا وأقوامنا وخصوصيات شعوبنا، لنندمج في الأسرة الإنسانية في نطاقها العالمي الشامل، وذلك من منطلق قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

أقول: إننا نحن المسلمين الذي ربانا الإسلام على ذلك، نرحب الترحيب المطلق بأي مشروع يهدف إلى توحيد العالم على أساس حضارة إنسانية واحدة شاملة، ترتكز على النقاط والمبادئ المشتركة، وتتحاور في أمر المسائل الخلافية بحثاً عن الأصح والأجدى، حوار الأنداد مع الأنداد، لا حوار التابع مع المتبوع أو القاهر مع المقهور.

كما نرحب بأي مشروع يهدف إلى إنشاء نظام اقتصادي جديد، يحرر الساسة قبل الشعوب من أسر الحكومات الخفية المتسلطة، ومن سلطان نفوذ الشركات

العالمية القاهرة، على أن يحضّر هذا المشروع بهدي من حوار المذاهب الاقتصادية التي تفرض اليوم نفسها على الساحة، وفي مقدمتها النظام الإسلامي الذي لم يعد أي مبرر اليوم لتجاهله.

أما الغزو الذي يأخذ اليوم اسم «العولمة» بدلاً من اسمه الحقيقي «الاستعمار» فالحق الذي لا مراء فيه أن المنطق فيه للقوة؛ فما لم تستعد الدول العربية والإسلامية قوتها الذاتية، لن يكون لاحتجاجاتها السياسية ولا لمحاكماتها العقلانية أي منطق مقبول، ولسوف تظل هي المتورطة في الخطأ مهما كانت مصيبة!.. والجانحة عن الاستقامة إلى التطرف والعنف مهما كانت محقة!.. ولسوف يكون الغزاة هم الساهرون على حقوق الشعوب، والمتألمون لمصير البائسين والمنكوبين مهما استنزفوا دماء المظلومين والبراء!..

بقي أن نتساءل: ما السبيل إلى أن تستعيد الدول العربية والإسلامية قوتها؟

سبيل ذلك أن تعود فتتحد وتتضامن كما كانت كذلك من قبل. ولن تستطيع إلى ذلك سبيلاً إلا إن عادت علاقتها بالإسلام علاقة هوية والتزام، واتخذت من السياسة خادماً لنصرة الإسلام، بدلاً من النقيض الذي تسير عليه اليوم.

وعلى كل فإن «عولمة» الحقائق والثقافة الإسلامية، تغزو اليوم عقول الشعوب الغربية وأفئدتها، في كل من أمريكا وأوربا دون حاجة إلى غازين من العرب أو غيرهم.

إن النور الذي يشعُّ به الإسلام، إنما ينبثق متجهاً إلى العالم كله من داخله وذاته، فهو يستقل ـ دون حاجة إلى مُعين ـ بالامتداد والانتشار، وهو ليس من اصطناع أهله حتى يحتاج إلى من يبعثه وينشره. وجل الإله القائل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

وإذا استغنت أمتنا هذه عن نوره، واكتفت منه بالانتماء وذكرياته التراثية، فلسوف تمتد أشعته إلى أصقاع وأمم أخرى. وصدق إلهنا القائل: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] والقائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].





في ختام هذا الحوار، أسائل نفسي: ما موقف الدعاة إلى ما يسمونه «الرأي والرأي المعاكس» من هذا الذي انتهيت إليه بهذه الطريقة الحوارية التي تبرز الرأي الآخر وأدلته وطريقة محاكمته بكل أمانة وتجرد؟..

إنني على يقين بأن (المبرمجين) لطريقة التصادم بين الرأيين، لا يروق لهم هذا النهج الذي اتبعته، ولا يطيبون نفساً بالنتائج التي توصلت إليها، بقطع النظر عما تُقرّ به الموضوعية، فيما لو استُنطقت فنطقت.. إذ القرار المسموع في هذه الحالة إنما هو للنفس، لا للعقل!..

ذلك لأن هدف هؤلاء (المبرمجين) أو (المخططين) لهذا النوع من الحوار، لا يتمثل في رغبة في الكشف عن الحق من خلال إثارة الحوار والنقاش في أمر ما، لا سيما ما قد تكون له علاقة بالقيم والمبادئ والدين. وإنما الهدف المرسوم تعميق هوة الخلاف، واستثارة عوامل التناقضات في فهم العقائد والمبادئ الإسلامية، والسعي إلى تأليب المسلمين بعضهم على بعض، تنفيذاً للوصية التي وردت في تقرير مجلس الأمن القومي الأمريكي، الذي سبق أن أشرت إليه، وذكرت فقرات منه في أكثر من مناسبة.

إن الحوار المنضبط بآدابه وشروطه العلمية المعرَّفة في علم «المناظرة» جهد تعاوني مقدس، إذ من شأنه أن يكشف لكل من المتحاورين ما غاب عن الآخر، وأن يضيق من هوة الخلاف بينهما، وأن يجذبهما الحوار من أقصى ساحة الانفراج بين الضلعين إلى منطلق الزاوية الجامعة؛ وهذا هو الحوار الذي ربانا عليه الإسلام، وهو الذي أمر به القرآن في قول الله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]. وهو الحوار الذي شهده التاريخ الإسلامي في عصره الذهبي بين الفرق الإسلامية التي اهتاجت في أواخر القرن الأول الهجري، وبين جمهرة المسلمين أهل السنة والجماعة، فضاق الخلاف، ثم ازداد ضيقاً، حتى آل أمر تلك الفرق إلى الانضواء تحت سلطان العقيدة الإسلامية الواحدة الجامعة، وبادت أوهامها وشبهاتها بعد أن سادت.

أما هذا الحوار الآخر الذي يبتغى منه التصادم، ثم استمرار التصادم، والذي ينتقى أطرافه ويتم سيره برعاية مباشرة ممن يمعنون في صنع المزيد من أسباب الفرقة بين فئات هذه الأمة، فلسنا منه في شيء.

وما عجبت لشيء كعجبي من عالم أو باحث يعتز بانتمائه إلى أمته العربية الإسلامية هذه، ويخلص في العمل لخيرها، ثم يستجيب للدعوة التي تجعل منه قطباً في جلسة حوارية خادعة من هذا القبيل!..

إن حوارنا الحضاري الذي نعتز به ونتداعى إليه، هو ذاك الذي من شأنه أن يبرِّد القضايا الساخنة بالنقاش التعاوني.

أما الحوار الذي يستجرنا إليه الغزاة الفكريون في ظل الاستعمار الحديث، فهو ذاك الذي من شأنه أن يسخِّن القضايا الباردة، حتى يحيلها مادة للاشتعال ثم الانفجار.

والله المستعان والمأمول أن يكرم أمتنا بالوعي، الذي يقدرها على رؤية الفرق بين الحوارين: الجامع للأشتات، والمفرق للجماعات.

**والحمد لله رب العالمين**

دمشق في ٣ شوال ١٤٢٠
١٠ كانون ثاني ٢٠٠٠

**محمد سعيد رمضان البوطي**



# فِهْرِسُ ٱلْمَوْضُوعَاتِ